

النبى المصطفى

تأليف
الدكتور عطية القوصى
أستاذ التاريخ الإسلامى
بكلية الآداب - جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾

صدق الله العظيم

تقديـــم

إختار الله تعالى محمداً صلوات الله وسلامه عليه واصطفاه نبياً ورسولاً ، وجعله خاتم أنبيائه ورسله ، وجَهزه لذلك أحسن الجهاز وأعده خير الاعداد ليكون نبيه المصطفى . وما النبوة إلا تكليف من الله الخالق تعالى شأنه لإنسان بشر واعداد إلهى له لكى يكون صالحاً لهذا التكليف العظيم ، وتكون النبوة بذلك هبة من الله لمن يصطفيه من عباده ويصنعه على عينه ليكون محل تكليفه بتبليغ شرعه إلى الناس . وترُبى العناية الالهية النبى ، المبلغ عن الله تعالى ، تربية خاصة يكون خلال مراحل حياته محوطاً بالعناية الربانية ومشمولاً بحب الله وحمايته ورعايته . ولقد إصطفى الله آدم ونوحاً وآل ابراهيم ليكونوا أنبياءه ، وحين إصطفى موسى ، قال تعالى عن هذا الاصطفاء :﴿ **وألقيت عليك محبة منى ولتُصنع على عينى** ﴾ . وحين اصطفى نبينا محمداً ، قال تعالى : ﴿ **فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ .

ويصطفى الله تعالى رسله من الملائكة ومن الناس ، ومن يصطفيهم من الناس يميزهم سبحانه بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الخلق وكرم الأعراق . وتتوالى تربية الله لهم حتى تسموا أرواحهم درجة بعد أخرى ، فإذا ما بلغ المصطفى سن الأربعين ، وهو سن تمام الرجولة وكمال الشخصية والتهيؤ لقبول الأسرار الالهية ، أنزل الله عليه الوحى والكتاب . وبنو البشر فى حاجة على فترات من الزمن إلى ظهور الأنبياء بينهم لتذكيرهم بعبادة الله ولامدادهم بالمعارف التى تتصل بالخالق وبالخليقة وبالحياة الدنيا وبما بعدها ، وليضعوا لهم القواعد لضبط سلوكهم وتحقيق رقيهم ونهج طريق الصواب والبعد عن طريق الشر وغواية الشيطان .

ومن رحمة الله على عباده أنه زيَّنهم بالعقل عن سائر مخلوقاته ليفكروا ويتدبروا به ويصلوا إلى معرفة الخالق والحمد له وتقديسه وشكره على عظيم نعمه . كذلك من رحمة الله أنه تعالى أرسل لهم الأنبياء والرسل المصطفين بين حين وآخر عبر تاريخ البشرية الطويل ، ليذكروهم بعبادته إذا ما نسوا من

أنفسهم أو أنساهم الشيطان . وأرسل سبحانه ، فى نفس الوقت ، مع كل رسول ونبى آية صدقه وبرهان نبوته ودليل صلته برب السماوات والأرضين ، وتدخل المعجزات الحسية ضمن هذا الدليل حتى يُصدّق النبى فى دعواه . وقد كانت معجزة ابراهيم عدم إحراق النار لجسده حين أضرمها أعداؤه لاحراقه . ومعجزة موسى عصاه التى تحولت إلى حية تلقف ما ألقاه السحرة من عصى وحبال وانشقاق البحر له ليُشق له فيه طريقاً يمشى فيه وأتباعه ويغرق فيه فرعون وجنوده . ومعجزة عيسى المسيح إبراء الأبرص وابصار الأعمى وإحياء الموتى . ومعجزة ذى النون يونس لفظ الحوت له بُعد أن ابتلعه واستقر فى جوفه . وغير ذلك من المعجزات التى كانت لسائر الأنبياء والرسل . ولقد أيد الله تعالى نبيه محمداً ببعض المعجزات الحسية من جنس معجزات الأنبياء والرسل السابقين على عهده ، فهو قد أُسرى به من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس بفلسطين ، ثم عُرج به إلي السماوات العلى ثم إلى سدرة المنتهى ورأى من آيات ربه الكبرى فى رحلته السماوية هذه ما رأى . كذلك معجزة الغار حيث نسج العنكبوت خيوطه على بابه وباضت اليمامة وأفرخت على الباب أيام الهجرة إلى المدينة ، وغيرها من المعجزات التى ترويها كتب السيرة المحمدية . لكن معجزة محمد الخالدة هى القرآن الكريم ، كلام الله المُنزل بالوحى على رسوله . والقرآن معجزة ليست كسائر المعجزات ، بل هو المعجزة الكبرى ، باعتبار أنه آخر نداء نزل من السماء موجه إلى البشرية عامة على امتداد الأرض واتساع الزمان حتى قيام الساعة . يُنظم للناس حياتهم وسلوكهم فى هذه الحياة ، ويعيدهم إلى الوحدانية وعبادة صانع هذا الكون وواهب هذه الحياة ، ويذكرهم بفناء هذه الحياة الدنيا وخلود الحياة الآخرة وبالحساب وبالجنة والنار . يجدون فيه الهداية حين تضل نفوسهم وتتحجر قلوبهم وتزيغ أرواحهم ، ويجدون فيه الطمأنينة وطوق النجاة حين تعز الطمأنينة ويسود القلق ويغرقون فى بحر الضلال . والقرآن معجزة ببلاغته اللفظية ، وفى عرضه للمعانى ، وفى الاخبار عن الغيب . ولقد عجز العرب أصحاب الرسالة المحمدية الأولى ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة ، والقرآن مُنزلٌ بلغتهم ، على أن يأتوا بمثله ،

وتحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة من مثله ولو ظاهر بعضهم البعض فى ذلك ، وأن يصلوا فى قولهم إلى درجة بلاغته أو أن يدانوه فى فصاحته أو أن يحاكوه فى أسلوبه . وما كان لبشر عاقل أن يكذب تنزيل الله تعالى قرآنه على رسوله بعد أن فرغ عقلاء النوع الانسانى من إقامة الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أنه ليس من صنع البشر وأنه كلام الله المحفوظ بحدود اللغة العربية وبالوعد الالهى بالعناية والحفظ . وقد قال الله تعالى فى هذا الخصوص : **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾** ، وقال كذلك مخاطباً نبيه : **﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾** .

ومن دلائل النبوة : مقومات شخصية النبى المصطفى ؛ باعتبار هذه المقومات جزءً لا يتجزأ من دلائل الاعجاز . فالنبى له شخصية متميزة لا تخرجه عن كونه بشر ، ولكنها ترتقى به فى البشرية فيصل إلى أعلى درجة فيها بحيث لا يدانيه فيها أحد من البشر ، ويختص الله أنبياءه بهذا الرقى لأنه متخذهم وسيلة الاتصال بينه سبحانه وبين خلقه . ولابد وأن يكون الموكل بالهداية على درجة خاصة من القدرة على الاستيعاب وتحصيل المعارف ، وأن يكون قدوة حسنة تستطيع شخصيته أن تجذب إليها من تريد هدايته وكسبه إلى جنب الله .

ولقد كان محمد القدوة والمثل فى الخلق والسلوك وتحصيل المعرفة والتودد إلى الناس والرفق بهم ، ولقد شهد الله تعالى له بذلك فى قوله : **﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾** . ووصفته السيدة عائشة بقولها : « كان خلقه القرآن » . فلم يتأثر عليه السلام ببيئة منحلة أو تسلل إليه ، عن طريق الوراثة ، خلق آثم ، بل كان نموذجاً تعهدته العناية الالهية بخير التربية وأدبته غاية التأدب ، فقال عن نفسه ﷺ « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . ونحن حين نتبع النبى ، وهو المثال والقدوة ، نجد اخلاصه لرسالته يُعد من قبيل الاعجاز فى عالم الانسان على طول التاريخ وعرضه ، وقد كان هذا اللون من

الاعجاز وحده كافياً ليدلل على نبوته حين جاءته النبوة . ذلك أنه ظل قبل أن تأتيه النبوة يعيش أربعين عاماً فى مجتمع مغلق محدود يعرف أفراده بعضهم بعضاً تمام المعرفة ويطلعون على عورات بعضهم البعض . فى مثل هذا المجتمع تظهر الأخطاء فيه جلية واضحة ويتباهى فيه شبابه بالمعاصى ويعدونها من صفات الرجولة ، بينما يقضى محمد شبابه وسط هذا المجتمع دون أن يجرفه تيار الخطيئة أو يؤثر فيه جانب الاغراء . ذلك مؤشر قوى على علو نفس هذا الانسان الكامل ودليل على سمو روحه ووصوله فى مجال الانسانية إلى مكانة يعجز أحد من أقرانه عن الوصول إليها . لقد أتصف محمد بالصادق الأمين ، وهى صفة جامعة لمكارم الأخلاق وتمام الفضائل . وتفاصيل حياة النبى المصطفى وملامح شخصيته وشمائله وسيرته ذات أهمية كبيرة فى حياة المسلمين العلمية والعملية لأنهم مأمورون بالاقتداء به فى حياتهم الخاصة والعامة لقوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ، وحياة محمد كتاب مفتوح لكل البشر ليس بها أى فترة غموض .

لقد كان محمد عظيماً فى كل شىء ، وكانت مسيرة حياته مسيرة أعظم الرجال على الأرض وكانت سيرته أعطر السير . كان عظيماً فى طفولته وفى شبابه ، مضرب المثل للنبى المؤمن برسالة ربه الصادق مع قومه والمبلغ عن السماء . تحملَ المخاطر واجتاز المكاره وصبر على الصعاب ، وقابل الجفاء بالحب والصدود بالود والعنف بالبسمة والقسوة بالرحمة ، وبدلاً من أن يدعو على قومه الذين آذوه وأتعبوه دعى لهم بالهداية والرشاد . ولقد ضرب محمد المثل وهو يقيم الدولة ويطبق شرع الله ويؤاخى بين المسلمين ويجمع شمل كلمة الموحدين ويقودهم إلى النصر والفتح المبين . كان محمد رئيس دولة وقائد أمة وقاضيها ومشرعها وخطيبها ومعلمها وعينها التى لا تنام وقلبها الذى كان يخفق بكل الحب والحنان ، وكان فى كل ذلك عظيماً غاية العظمة أميناً كل الأمانة مخلصاً غاية الاخلاص .

إن حياة محمد كلها حياة إنسانية سامية رسمتها وسمت فى صنعها يد الخالق المبدع ، وسيرته نبع دائم يفيض بالخير والبركة والعلم والدرس والحكمة والمثل والموعظة الحسنة ، لا يستطيع أن يوفيها حقها قلم كاتب واحد ولا بحث مؤرخ واحد . ولو إجتمع جميع المؤرخين ليسطروا سيرة رسول الله المصطفى ما استطاعوا أن يوفوها حقها ، ولما استطاعوا أن يوفوا هذا العظيم حقه من الانصاف . ذلك لأن هؤلاء المؤرخين يأخذون مادتهم التاريخية عن سيرة الرسول ويعتمدون فى رواياتهم على ما خلفته كتب السيرة والتاريخ لهم ، لكنهم لم يعيشوا إلى قُرب رسول الله ولم يسعدوا بتكحيل عيونهم بالنظر إليه . حتى أولئك الذين كانوا أول من كتب سيرة رسول الله كتبوها بعد أكثر من قرن من لحاقه عليه السلام بالرفيق الأعلى فلم تتوفر لهم كل التفاصيل ولم يحصلوا من معلومات عن هذه الحياة الطويلة الحافلة للمصطفى إلا على القليل . ومع مرور الأيام دخلت على هذه السيرة الطاهرة زيادات كثيرة وإضافات لأشياء لم تقع ، فضلاً عن بعض المبالغات التى وُضعت ولصقت بها وضعها الواضعون إما من منطلق الحب لشخص محمد ، أو بسبب عدم فهم ، أو تعمد للإساءة للرسول ولتشويه هذه الصورة الناصعة لشخصه العظيم . وقد دُس على رسول الله الكثير من الأحاديث ، فى حياته وبعد وفاته ، فما بالنا بالنسبة لروايات التاريخ ، وقد وقع لرسول الله فى هذا الخصوص ما وقع لسير العظماء والأبطال على مر التاريخ .

ولكن برجوعنا إلى القرآن الكريم وإثبات وتحليل ما ورد فيه بصدد سيرة الرسول ، وما ثبت فى كتب الحديث الصحاح المعتمدة ، وما ورد على لسان المحدثين الثقات ، وباستخدام المنهج التاريخى الصحيح والاحساس التاريخى الخاضع للاعجاب والحب لهذا الرسول الكريم إستطعنا أن نكتب تلك السطور المتواضعة فى سيرة خير خلق الله وأكرم رسله .

ولقد كُتب الكثير عن حياة محمد فى التاريخ القديم والحديث ، وقد اتفقت هذه الكتابات جميعها على روعة هذه الحياة وعظمتها ، وشهدت أن محمداً بانسانيته وحسن تأديبه وتربيته ورجحان عقله وثاقب فكره وقوة جلده وصبره

وشدة إيمانه برسالته ودعوته إستطاع أن يحقق ما أراده الله له ، وما أراده لهذه الأمة التى نُسبت إليه .

ولقد شهد كُتاب الغرب المسيحيون المستشرقون ، رغم عداوة بعضهم لمحمد ولرسالته ، بعظمة محمد الإنسان وصدقه فى دعوته وثباته من أجل إبلاغها للناس كافةً وعامة . ولقد شهد بهذه العظمة المؤرخ « كومت » ، من مؤرخى القرن الثامن عشر ، ووصفه بأنه « مفكر حر وضع أساس ديانة إستندت إلى العقل » . كذلك إمتدحه الشاعر الألمانى « جوته » ونظم فيه شعراً وصف فيه ذكاءه وعبقريته وشبهه « بالنهر العظيم الفياض الذى إستقى إخوته الأنبياء جداولهم منه » . ووضعه « كارليل » Carlyle ضمن « أعاظم الأبطال الذين توهجت جزوة الألوهية على أيديهم » . ورآه المستشرق « هيوبرت جريم » H. Grimme « مصلحاً إجتماعياً أقر العدالة بين الناس » . وقال عنه « ماكسيم رودنسون » أنه « واحد من ندرة الرجال الذين قلبوا العالم رأساً على عقب » .

وفى الحقيقة ، حين أكتب عن نبينا العظيم ورسولنا الكريم يتواضع قلمى خجلاً أمام ما كتبه العظماء فى سيرة خير البشر . ولا أستطيع أن أقول بأننى أضفت شيئاً جديداً على هذه السيرة العطرة التى إستقرت أبوابها واكتمل تقرير أحداثها بما كتبه الكتاب عن سيدنا رسول الله ﷺ فى التاريخ القديم والحديث . وليست هنالك وثائق جديدة تم اكتشافها عن حياة هذا الغائب الحاضر العظيم تعطينا مادة تاريخية جديدة نضيفها لسيرة هذا المعلم الخالدة . ومع ذلك فمن الضرورى لكل جيل من الأجيال أن يعاود الكتابة فى سيرة المصطفى إحياءً لهذه السيرة العطرة ، وأن يحلل ويرتشف من نبعها الفياض ليأخذ العبرة والعظة ما دامت الحياة وحتى تقوم الساعة . ولعل أهم ما دفعنى للكتابة عن سيد البشر هو الرغبة فى الرد على حملات التشكيك المتواصلة وسهام الحقد والكراهية التى يوجهها بعض المتعصبين من كتاب الغرب والمستشرقين فى كتاباتهم بين آن وآخر دون توقف وهم ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو**

كره المشركون ﴾ . هؤلاء الحاقدون لم يتورعوا من وقت لآخر أن يرددوا نفس الافتراءات الباطلة والادعاءات الكاذبة ويروجون الآراء المراهقة التى سبق أن رددها عتاة الكفر والشرك فى حياة الرسول ، وهم يبغون من وراء ذلك أن ينثروا الغبار على صفحة السماء البيضاء المشرقة فى حياة البشرية ، لكن شمس الحقيقة سرعان ما تبدد كل ما أثاروا لتعيد للصفحة بياضها ونصاعتها . وهم فى غوايتهم يبغون إما الشهرة أو المال خدمة للصليبية والصهيونية العالمية وخدمةً لحزب الشيطان الذى يتربص بالغواية لهؤلاء الأشقياء من بنى البشر .

لقد أساء « والتر سكوت » (١٧٧١-١٨٣٢) إلى رسول الله إساءات بالغة فى رواية « الطلسم » التى أصدرها عام ١٨٢٥ . وأساء « فولتير » ، الذى يُسمى بأديب الثورة الفرنسية (١٦٩٤-١٧٧٨م) ، للرسول فى مسرحيته التى جعلها بعنوان « محمد » سنة ١٧٤٢ عندما صوَّر الرسول على خلاف حقيقته بأنه « رجل وحشى وفظ وعديم الضمير مجرد من المبادىء الأخلاقية وأن رسالته رسالة رجل أفاك محتال ودجال اعتمد على السيف فى إنشاء دولة له ولأتباعه بدأت فى المدينة » وأهدى مسرحيته إلى البابا حتى ترضى عنه النصرانية العالمية . كذلك أساء كل من « لا مانس » فى كتاباته التى تفوح بُغضاً للإسلام ولنبيه وتمتلىء حقداً وكراهية . وأساء أيضاً إليه المؤرخ اليهودى « جوايتاين » ، ونسب رسالته إلى أحبار اليهود وكهنتهم . كما أساء إليه « رودينسون » ، الذى سوف نرد على افتراءاته على الرسول التى نشرها فى كتابه الذى ألفه تحت عنوان « محمد » . فلا غرابة أن يتلفظ هؤلاء الكفرة المشركون والفجرة الملحدون بمثل ما تلفظوا به وأن يتهموا رسول الله وصحابته وأهل بيته بمثل ما إتهموهم به لأنهم كفرة بالدين ملاحدة . ولا ينتمون إلى حظيرة الإسلام وزمرة المسلمين ، وقولهم معروف من أنه نابع من مستنقع العداوة والبغضاء وبالوعات الحقد الذى يغلى فى صدورهم ضد الإسلام وضد نبى الإسلام . ولكن الغريب حقاً أن يصدر مثل هذا القول وبقدر كبير من البذاءة والوقاحة من رجل يدَّعى أنه مسلم أو أنه ينتسب إلى

الإسلام مدعياً أنه يريد بما كتب أن يصحح مفاهيم الإسلام . رجل ليس له من الإسلام إلا الاسم ، إسمه « سلمان رشدى » ، وُلد بالهند وسط أسرة مسلمة وتربى فى مدارس بريطانيا ثم فى جامعة « كمبردج » ، قام معسكر الغرب الحاقد على الإسلام ببرمجته بكل ما يريد أن يدسه على الإسلام وعلى نبى الإسلام . رجل تتلمذ على يد الشيطان فصار من شياطين الإنس وأخرج كتابه الوضيع تحت إسم « آيات شيطانية » "Satan Verses" . لقد ألف ذلك الفاقد للرشد كتابه ، وقد هدف من كتابته وهدف من تضافر معه وقام بتحريضه وتمويله من عتاة الصليبيين المحدثين تطعيم الأجيال الغربية والمتحدثين بلغات الغرب ضد الإسلام ، ووضع شائعات فيه تُحاط برموز الإسلام . وهى شائعات خبيثة لم تترك رمزاً من رموز الإسلام إلا وشككت فيه وجرحته . ولا نغالى إذا قلنا بأن هذا الكتاب يُعد من أشهر الكتب التى ظهرت فى ميدان الهجوم على الإسلام ومن أكثرها وقاحة فى هذا القرن كله . ولا يكتسب الكتاب أهمية أو قيمة علمية بالنسبة للموضوعات التى يناقشها ولا من قيمته الفنية كعمل أدبى ؛ فهو لا يرقى إلى أى مستوى من القيمة فى هاتين الناحيتين . وهو باختصار شديد رواية قصصية خيالية تملأها الخرافة والهذيان والهلوسة العقلية ، تقع فى ٥٤٦ صفحة . تبدأ الرواية بتخيل طائرة تنفجر فوق الجزر البريطانية فى الجو بفعل أحد الإرهابيين ، فيموت جميع ركابها إلا إثنان فقط ينجوان من الموت ويهبطان سالمين إلى أرض بريطانيا ، ويطلق الكاتب على الأول إسم « جبريل » ، رمز الخير ، ويطلق على الثانى إسم « الشيطان » ، رمز الشر . ومن بين فصول هذه الرواية الفقيرة فى المعنى المريضة فى المحتوى نجد فصلين يحتويان على أكبر نسبة من السب العلنى والألفاظ البذيئة الجارحة والخيال المريض والاساءة لمحمد رسول الله وللمسلمين عامة وللصحابة خاصةً ، بصورة دعت الكثيرين من أعداء الإسلام أنفسهم يتأففون منها ويعترفون ، فى نقدهم للرواية فى الاعلام الغربى ، بعظم الجرم الذى إرتكبه الكاتب فى حق الإسلام وحق نبى الإسلام وحق المسلمين جميعاً .

لقد جعل هذا الأفاق عنوان أحد فصلىْ الاساءة للاسلام ونبيه كلمة (ماهوند) . وهى تعنى فى الانجليزية (كلبى) ، وجعل عنوان الفصل الثانى (جاهلية) ، وإتهم فى هذين الفصلين النبى بكل الصفات الرذيلة ، واتهم القرآن الذى يُنزل عليه من عند الله ، على أنه أشعار من إملاء الشيطان عليه ، وقد جعل هذه الفكرة عماد عنوان ومحتوى كتابه . وذكر أيضاً هذا الموتور أن الصحابة كانت تدس على الرسول فى هذا القرآن بأقوال من عندهم ومن تأليفهم ، وقد خص بهذا الدس الصحابى الجليل « سلمان الفارسى » . ولقد ذكر هذا الأفاق أن سلمان كان يزوّر فى القرآن ويغيّر فى الآيات التى كان يمليها الرسول عليه ، وأن الرسول لم يكن يتنبه لهذا الدس والتزوير بسبب حالة (الصرع) التى يكون عليها وقت نزول التنزيل عليه . ولقد فات هذا المدّعى أن سلمان لم يكن من كتبة الوحى ولم يرد فى أى مصدر من مصادر السيرة أنه تصدَّر يوماً لكتابة الوحى عن الرسول . وفى هذين الفصلين أيضاً وصف هذا الكاتب المتحامل الكعبة المشرفة بأنها المعبد الأسود الذى يمتلىء بالأصنام والأوثان ليوحى للقارىء أن كعبة الإسلام ضرب من ضروب المعابد الوثنية التى تُعبد فيها الأصنام . كذلك وصف هذا الكاتب الفاحش أمهات المؤمنين بقدر هائل من الوقاحة والاستخفاف أوحى إليه بذلك ذهنه المريض الذى تعشش فيه الأقذار وينضح عن تربية فاسدة ونشأة شريرة .

والكتاب فى مجموعه ليس ذى أهمية ولا يستحق الرد عليه لأن ما جاء به ليس بجديد بل هو افتراء وبهتان قديم أخرسته وألجمته أقلام المنصفين للإسلام ولنبى الإسلام من الكتاب الأمناء المسلمين وغير المسلمين . ولكن خطر مثل هذا الكتاب يتمثل فى الخوف من تأثيره على قطاعات القراء الموجه إليهم وبخاصة المسلمين المغتربين فى شتى آفاق الأرض على اختلاف أوطانهم الأصلية ، والمسلمين الهنود بصفة خاصة الذين ينتمى إليهم هذا الكاتب والذين تُعتبر اللغة الانجليزية لغة القراءة الأساسية عندهم . ولقد ضاعف من تأثير هذا الكتاب وخطره عاملان هامان ، أولهما : أن كاتبه للأسف مسلم

ويدعى الانتماء للإسلام ، مما يجعل هجومه على الإسلام ونبى الإسلام يبدو من قبيل النقد للذات ويدخل تحت باب (وشهد شاهد من أهلها) ، والثانى : هو الرواج الشديد له والدعاية الاعلامية الواسعة والضجة المفتعلة التى صاحبت صدوره . كذلك رد الفعل العنيف فى الاعلام الغربى بعد صدور حكم القتل على مؤلفه من خمينى إيران وإباحة دمه ، وإتهام المسلمين بالارهاب ومحاربة حرية الرأى والحجر على حرية التعبير والتفكير ولنا أن نسأل هؤلاء المتباكين على حرية الرأى والتفكير هل يرضون بأن يخرج عليهم كاتب من بنى جلدتهم يهاجم المسيح أو المسيحية ؟ هل ترض كنائس الشرق والغرب بذلك وهل سيتباكى الصليبيون أنذاك على حرية الرأى والتفكير ؟ بالقطع فإنهم لن يرضوا بذلك ولكن مع الإسلام فلا بأس .

والمتتبع لحياة سلمان رشدى يجد أنه بريطانياً أكثر من البريطانيين أنفسهم وصليبياً متعصباً أكثر من الصليبيين المتعصبين . ولقد وجد شياطين الغرب فى هذا الشخص المتطلع إلى الجاه السريع والشهرة السهلة ضالته ليحارب به الإسلام ودعوته ، وبذلك يستخدم سلاحاً جديداً فى حربه ضد الإسلام ، بعد أن استنفذت أسلحته القديمة مفعولها ، وهو سلاح ضرب الإسلام على يد أهله . وعند هذا الرجل الشرير الاستعداد الكافى والدهاء اللازم لاغتنام الفرصة والقيام بمهمة بيع دينه بعد أن باع نفسه للشيطان . فقام محترفو الاعلام فى الغرب باظهاره وتلميعه والايحاء للناس بشدة نبوغه وعظيم عبقريته ، فأقاموا له الندوات وقدموا له الجوائز والمكافآت ورشحوه لنيل جائزة « نوبل » العالمية التى تتحكم الصليبية فى منحها والصهيونية العالمية . ووفقاً للمخطط الابليسى فى ضرب الإسلام ، قام هذا الأفاق بدس السم فى العسل ، أى خلط الحقيقة بشىء من الكذب ولفّق التهم ووضع هذا كله فى قالب الحدث المهم . وكتاب سلمان رشدى ، الذى أُطلق عليه اسم « آيات شيطانية » Satan Verses ماهو إلا شائعات وبلبلات فكرية تُحاط برموز الإسلام الأساسية بهدف خلق البلبلة وزرع الشك فى نفوس ضعاف الإسلام ، أو أولئك المسلمين الذين ينتمون فقط بالاسم لهذا الدين والذين

حرمتهم ظروف الحياة المختلفة من التعمق فى الإسلام ليثبتُ فى قلوبهم ويستقر . وما أكثر هؤلاء الضياع الذين ينتشرون فى كل ربوع الدنيا ويتربص بهم أعداء الدين على الدوام .

إننا فى حاجة ماسة لدراسة الإسلام ودراسة سيرة رسوله وترجمتها إلى كل اللغات حتى نضىء الطريق لهؤلاء المستهدفين من الضلال ونقدم لهم الحقيقة الناصعة عن الإسلام وعن نبى الإسلام حتى نبرز الزيف فى كتابات سلمان رشدى وحزبه وحتى نهدم معبد الوثنية على رؤوس سدنته وكهنته من الملحدين والعلمانيين وبقايا الماركسيين وعلى كل أعداء الدين . وما أحوجنا اليوم لذلك واسلامنا محاصر بالكفر والغواية والالحاد من كل الجهات وهو مستهدف والحرب معلنة عليه شعواء فى كل مكان من الصهاينة والصليبيين الجُدد وشراذم الشيوعيين . ما أحوجنا لدروس هذه السيرة العطرة التى ما أرسل الله صاحبها إلا لهداية الخلق إلى طريق الفلاح فى الدنيا وفى الآخرة وإلى تنقية القلوب وتصفية النفوس والأرواح من الشر والحقد والظلم والطغيان .

وسبحان ربى الذى أبدع نبيه محمداً صنعاً وأدبه ورباه علماً وخلقاً من بعد أن اصطفاه من دون خلقه نبياً ورسولاً وقائداً ومعلماً ومرشداً . إنه النبى المصطفى الصادق الأمين ، المؤمن القوى بربه المبلغ لرسالته ، وهو الذى دعى للإسلام فأحسن الدعوة وأقام على دعائمه الأمة والدولة وجعل لأتباع رسالته المجد والعزة . صلاة الله وسلامه عليك يا نبى الكرامة والحرية ويا خير من أشرقت شمسه على البرية وجزاك الله عنا فيما هديتنا إليه خير الجزاء وصلى الله وسلم عليك وعلى آلك ما دامت الأرض والسماء ... وأن الحمد لله رب العالمين .

عطية القوصى

١- حال العالم قبل ميلاد محمد

وُلد الهدى محمد رسول الله وأشرقت شمس النور والهداية على الدنيا بعد طول ظلام ، بعد ألف وثلثمائة عام مضت على تأسيس مدينة روما ، وأكثر من خمسمائة عام بعد ميلاد السيد المسيح ، وبعد مائتى عام من تأسيس مدينة القسطنطينية على ضفاف القرن الذهبى والبسفور عام ثلثمائة وأربعة وثلاثين للميلاد بداية تاريخ امبراطورية الروم .

وجاء الاسلام فى أعقاب المسيحية ليصحح للناس مفاهيم الدين وليعيدهم إلى عبادة الله الواحد الأحد رب العالمين ، وليكون آخر رسالات السماء إلى عالم البشر وآخر عناق بين السماء والأرض على يد محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وآخر المبشرين والمنذرين .

وكانت المسيحية قد سادت العالم آنذاك كديانة كتابية بعد أن انتصرت فى حربها لسنين طويلة مع الوثنية ، وبعد أن اعترف بها أباطرة الروم كديانة رسمية لدولتهم . وكان الصراع بين المسيحية والوثنية قد دام لأكثر من ثلاثة قرون لقى المسيحيون خلالها شتى ألوان العذاب وأشنع صنوف الاضطهاد على يد أباطرة روما الذين اعتبروا أنفسهم آلهة وأجبروا الناس على عبادتهم إلى جانب الآلهة الوثنية الأخرى التى نصبوها آلهة معهم . ولقد أخذ أباطرة روما فكرة تقديس الملوك من الفرس الساسانيين والفراعنة المصريين . فبالرغم من العداء الشديد الذى قام بين الامبراطورية الرومانية فى الغرب وملوك الفرس الساسانيين فى الشرق إلا أن الأباطرة الرومان كانوا معجبين بالطريقة التى نظر بها الفرس إلى ملوكهم وهى نظرة الاجلال والرهبة والتقديس لهم . كما تأثروا أيضاً بنظرة الشعب المصرى إلى ملوكه الفراعنة ورفعهم إلى مرتبة الآلهة ودرجة العبادة والتقديس . وقد أخذوا ذلك عنهم بعد فتحهم مصر على يد الامبراطور أغسطس الذى أصبح فى نظر المصريين فرعوناً إلهاً له نفس حقوق الفرعون المصرى . وبناءً على ذلك أصبح كل امبراطور رومانى يتحول بعد موته - إذا رضى عنه مجلس الشيوخ - إلى رب يُعبد .

ولقد جاء انتصار المسيحية على الوثنية واقبال شعب الامبراطورية عليها منذ القرن الأول الميلادى بسبب زهد الناس فى الديانات الوثنية وعجز هذه الديانات عن اشباع المتطلبات الروحية عندهم بعد التغيرات الكبرى التى حدثت نتيجةً لتوحيد الرومان للعالم ونشر السلام فيه مما أدى إلى الازدهار الاقتصادى وطغيان الجانب المادى على الروحانيات . ولمّا تاق الناس للعودة إلى الروحانيات ، وكانوا قد سئموا الوثنية تماماً ، أخذوا يستجيبون لتعاليم المسيحية التى رأوا فيها ديانة سامية روحانية وليدة جاءتهم من فلسطين لتروى ظمأهم الروحى وتحلق بهم فى عالم السماء اللا نهائى .

ولقد أقبل على هذه الديانة فئات معينة من الناس شملت الطبقات الفقيرة المطحونة وطبقة الرقيق المستعبدة وشعوب البلاد التى استعبدها الرومان واضطهدوها وحرموها من حق المواطنة الرومانية . وكان إتباعهم لها سعياً وراء وعدها لهم بالتعويض عن ظلم الدنيا بسعادة الروح فى الآخرة وأملاً فى نعيم الفردوس الأخروى .

واستمرت المسيحية فى الانتشار باضطراد فى ربوع الامبراطورية خلال القرن الثانى الميلادى ، وقد ساعد على هذا الانتشار عوامل عدة كان أهمها : نجاح المسيحية فى ملأ الفراغ الروحى عند الناس بعد أن فشلت الوثنية والفلسفات الاغريقية فى ملئه ، وتيار الحماس الشديد الذى سيطر على المسيحيين الأول وتفشى شهوة الاستشهاد فيهم لكى يلحقوا بمملكة المسيح متحدين بذلك أوامر الحكومة واجراءاتها التعسفية ضدهم ، إضافةً إلى دقة التنظيمات التى أقامها المسيحيون ونظمت سلكهم الكهنوتى .

ومنذ عام ٣٥٠ ميلادية أجمع أساقفة الكنائس المسيحية على الأخذ بكتاب مقدس يجمع أقوال المسيح وعظاته ، أطلقوا عليه اسم « العهد الجديد » أو « الانجيل » ، تمييزاً له عن كتاب « العهد القديم » الذى أطلقه اليهود على توراتهم الموضوعة . وقد تضمن هذا الكتاب سبعة وعشرين موضوعاً هى : الأناجيل الأربعة (انجيل مرقص ، ولوقا ، ومتى ، ويوحنا) ، وأعمال الرسل ، وواحد وعشرين رسالة بعث بها حواريو المسيح للتبشير

برسالته ، وسفر رؤيا القديس يوحنا . وقد التزم المسيحيون ، منذ القرن الرابع الميلادى ، بالعهد الجديد التزام اليهود بالعهد القديم . ولقد ضم المسيحيون العهد الجديد إلى العهد القديم فى كتاب واحد يُعرف بالتوراة Biblia .

ولقد اعتبرت الامبراطورية الرومانية المسيحية ، فى أول الأمر ، حركة منشقة عن اليهودية ، واعتبرت المسيحيين طائفة من اليهود يسرى عليهم ما يسرى على بنى جلدتهم من اليهود . وكان الرومان يعترفون بوجود الديانة اليهودية كديانة قائمة ومسموح بممارستها مقابل أن يدفع اليهود جزية سنوية على رأس كل بالغ منهم . وقد وقف الرومان موقف الحياد ، أول الأمر ، أثناء دعوة السيد المسيح ولم يعترضوا سبيله ، واعتبروا دعوته خلافاً مذهبياً بينه وبين جماعته من بنى اسرائيل . لكن اليهود أنفسهم لم يرتاحوا لدعوى المسيح لأنه نادى بالمساواة بين كل الناس ولم يجعل الأفضلية « لشعب الله المختار » فتآمروا ضده ، وحرضوا الوالى الرومانى فى فلسطين على القبض عليه وقتله . فاضطر الوالى الرومانى إلى فعل ذلك وهو كاره . وتؤكد الرواية المسيحية قتل المسيح وصلبه بينما يؤكد القرآن حفظه ورفعه . وبعد غياب المسيح عن الساحة أعلن أتباعه الانفصال التام عن المعبد اليهودى وتأسيس ديانتهم التى نسبوها للمسيح وسموا أنفسهم بالمسيحيين Christiani ، بعد اجتماع عقدوه سنة ٤٨ ميلادية فى بيت لحم بفلسطين فى عهد الامبراطور « كلاوديوس » .

غير أن الرومان لم يعترفوا بهذا الانفصال الجديد للمسيحيين ، وظلوا يعاملونهم على أنهم طائفة من اليهود يلتزمون تجاههم بمثل ما يلتزم به اليهود . وتحت اصرار المسيحيين على الخروج عن التبعية اليهودية والانفصال عنهم اضطر حكام الرومان إلى تحقيق رغبتهم التزاماً منهم بمبدأ احترام حرية العقائد . لكن خروج المسيحيين عن اليهودية جعل المسيحيين يُحرمون من الامتياز الممنوح لليهود من قبل الدولة والمتضمن اعفائهم من عبادة الامبراطور ، وهو امتياز مُنح لليهود فقط دون سائر أصحاب العقائد

والديانات الأخرى المنتشرة بين ربوع الامبراطورية . فكان لزاماً إذن آنذاك أن يعبد المسيحيون الامبراطور الرومانى إلى جانب عبادتهم إلههم ، لكن المسيحيين رفضوا رفضاً قاطعاً التعبد لدون الله ، وأعلنوا ذلك فى تحدٍ سافر للامبراطور الرومانى دون مبالاة لما سيدفعونه من ثمن نتيجة هذا التحدى . ومضى المسيحيون فى تحديهم قدماً ، وبالتالى اعتبرهم الأباطرة الرومان خارجين منشقين ومتآمرين على الدولة وخائنين لها . ولما كان الموت والتعذيب جزاء الخائن الخارج المنشق كان الموت والتعذيب جزاء المسيحيين . فوقع بذلك الاضطهاد الشديد على المسيحيين الذين تحملوه ببسالة وصبروا فى مجابهته وضربوا بذلك أروع الأمثلة فى التضحية والاستشهاد . ورغم وقوع الاضطهاد على المسيحيين ، لكن للحقيقة والتاريخ نقول أن هذا الاضطهاد لم يكن يمارس خلال القرنين الأول والثانى الميلاديين من جانب السلطات الرسمية فى عصر الأباطرة الصالحين ، ولكن الفتك بهم كان يتم على يد الغوغاء الوثنيين بتحريض من اليهود .

وكانت المسيحية قد ازدهرت واشتد عودها فى ظلال عصر تسامح الأباطرة الصالحين ، كذلك اتضحت معالمها فى عهدهم بعد أن استعارت الكثير من الديانات الأخرى واستوعبت الفلسفات الاغريقية . وبعد أن تركت اللغة الآرامية ، التى كان يتكلم بها المسيح والمشرق العربى ، واتخذت اللغة الاغريقية ، اللغة العالمية فى العالم القديم آنذاك ، لغة لها ، وترجمت الانجيل اليها حتى تجد قبولاً عند شعوب البحر المتوسط وبين أوساط المثقفين . وبذلك انتشرت المسيحية انتشاراً واسعاً خلال القرن الثالث الميلادى وأصبح لا ينافسها ، على مستوى العالم ، إلا الديانة الفارسية .

وبانتهاء عهد الأباطرة الصالحين انتهى عصر التسامح الكبير مع المسيحيين لتأتى مرحلة محاربة المسيحية باستخدام القوة والعنف وذلك حين حكم الامبراطورية أباطرة عسكريون من منطقة ايلليريا (٢٣٥-٢٨٥م) ، بدايةً بعهد حكم الامبراطور « ديقيوس » ونهايةً بعهد حكم الامبراطور « دقلديانوس » . وقد وقع أشد البطش بالمسيحيين فى عهد « دقلديانوس »

الذى عُرف عهده عند النصارى باسم « عصر الشهداء » لكثرة من قُتل فيه من المسيحيين ، حتى أن كنيسة الاسكندرية جعلت تقويمها يبدأ بيوم جلوس دقلديانوس على العرش احتفاءً بعصر الشهداء .

ولم يتنفس المسيحيون الصعداء إلا بداية من عهد الامبراطور الرومانى « قنسطنطين » الذى اعترف بالديانة المسيحية ديانة قائمة شأنها فى ذلك شأن باقى الديانات الوثنية فى الامبراطورية ، وذلك حين أصدر مرسومه الشهير المعروف « بمرسوم ميلان » سنة ثلاث عشرة وثلثمائة للميلاد .

وكانت الأحداث قد مهدت لظهور « قنسطنطين » واعتلائه عرش الامبراطورية بعد الأحداث التى وقعت فى مطلع القرن الرابع الميلادى ، وذلك حين قامت سنة ٣٠٥ للميلاد حرب أهلية فى الامبراطورية الرومانية بين خمسة من ورثة « دقلديانوس » بسبب التنافس على العرش . وقد تعاون اثنان من الخمسة المتنافسين وهما « ليكينيوس » و« قنسطنطين » ووحدا قواتهما وشرعا فى محاربة الثلاثة الآخرين ونجحا فى هزيمتهم فى معركة « نهر ميلفيا » الشهيرة بالقرب من مدينة روما . وفى هذه المعركة إدعى « قنسطنطين » أنه شاهد عبارة باللغة اللاتينية تبرق فى السماء تحت رسم الصليب وهى عبارة (بهذا سوف تنتصر In hoc Vinces) وأن هاتفاً رن فى أذنه قائلاً : « أن إصدر أوامرك إلى رجالك بأن يكتبوا حرفىْ الخاء والراء (وهما الحرفان الأولان من حروف كلمة خريستون اليونانية وتعنى المسيح) فوق دروعهم قبل خوض المعركة ضد عدوك ماكسنيتوس » ، وقد قام « قنسطنطين » بفعل ذلك ولهذا أوعز نصره على خصمه فى معركته إلى إله المسيحيين . وعندما أصبح قنسطنطين وليكنيوس شريكين وحكما الامبراطورية معاً مدة أحد عشر عاماً (من ٣١٣ إلى ٤٢٤ ميلادية) قررا رفع الغبن عن المسيحيين نظراً لتأييد المسيحيين فى الغرب لهم ، وأصدرا مرسوم ميلان الشهير الذى رفع الاضطهاد عن المسيحيين ومنحهم حق ممارسة شعائرهم وطقوسهم دون تدخل من السلطات .

وارتكز قنسطنطين بعد ذلك فى سياسته للانفراد بعرش الامبراطورية على قوة المسيحيين فى محاربة شريكه ليكنيوس حتى استطاع بمساعدتهم القضاء عليه سنة ٣٢٤ للميلاد . وبذلك أصبح قنسطنطين الأغسطس الأوحد على سائر الامبراطورية ، وبالرغم من استمراره على الوثنية حتى وفاته إلا أنه ظل على وفائه للمسيحيين وظلت حمايته بحماس لهم واعتنق المسيحية وهو، على فراش الموت عام ٣٣٧ حين طلب أن يُعمد مسيحياً .

وتطور الأمر بعد ذلك بالمسيحية حين صارت ديانة الدولة الرومية الوحيدة الرسمية حين دخل أباطرة الروم ، بعد قنسطنطين ، فى هذا الدين واختفى ما دونها من الديانات الوثنية الأخرى ، وصار أولئك الأباطرة حماة للمسيحية ورعاة لكنيستها . وعلى أثر ذلك حدث الانتشار الكبير فى العالم لهذه الديانة بعد أن حملت البعثات التبشيرية الدعوة للمسيحية إلى أبعد البلدان : من غابات الشمال الأوروبى وسهوبه الباردة إلى شواطىء البحر المتوسط الدافئة وأرض الشرق الغنية الواسعة الثراء .

- وما كادت المسيحية تتسيد الديانات فى العالم وتنتشر فى أنحائه ، إلا وانقسمت على نفسها ، وتقسمت إلى طوائف ومذاهب مختلفة متنافرة . وكانت الإختلافات بين هذه الطوائف والمذاهب تمس صميم العقيدة ذاتها وتختلف فى طبيعة الإله وطبيعة المسيح . وصارت المشكلة المسيحية وانشقاقها على نفسها من أهم المشاكل التى كان على أباطرة الروم أن يواجهوا وأن يعالجوا آثارها . وكان على قنسطنطين ، أول هؤلاء الأباطرة ، أن يجابه مشكلة الانقسام الدينى الذى وقع بين المسيحيين غداة ظهور المذهب « الأريوسى » سنة ٣١٨ م .

وكان « آريوس » ، الذى نُسب إليه هذا المذهب الجديد ، أحد أساقفة كنيسة الاسكندرية ، قد أثار صراعاً عقائدياً عنيفاً بداخل الامبراطورية وأحدث بلبلة فكرية كبيرة لما أثاره من جدل حول طبيعة السيد المسيح ، وحول العلاقة ، فى اعتقاد معتنقى المسيحية ، بين الابن المسيح والأب الإله فى دائرة الثالوث المقدس . فلقد استنكر آريوس أن يتساوى المسيح الابن

البشر ، فى زعمه ، مع الأب الإله ، وقال بأنه من المؤكد أن يكون الابن البشر دون الأب الإله فى المكانة والمرتبة والجوهر والقدسية والأزلية .

ولم يتقبل كل المسيحيين آراء آريوس الجديدة والجريئة حول طبيعة العلاقة بين الأب والابن وبين اللاهوت والناسوت ، بل إن بعضهم رأى فى آراء آريوس انتقاص لمكانة المسيح وأن هذا الانتقاص قد يقضى على المسيحية تماماً ، لأن أساس اعتناق هذه الديانة ، فى نظرهم ، قائم على الاعجاب بشخص المسيح وبسيرته وبمسيرة آلامه .

وقد تزعم المعارضين لمذهب آريوس رجل آخر يُدعى « أثناسيوس » ، وهو شماس كنيسة الاسكندرية ، وقام بالرد على آراء آريوس وضحدها ، ونادى بضرورة التمسك بالثالوث المقدس كرب واحد ، وبضرورة مساواة الأب مع الابن فى كل شىء واعتبارهما « أقنوماً » واحداً . وقد ارتاح المعجبون بشخص المسيح وبسيرته لآراء أثناسيوس وصاروا أتباعاً له ، وخاصةً أولئك المسيحيون البسطاء القاطنون للمناطق الشرقية من الامبراطورية . وتبعاً لذلك انقسم المسيحيون آنذاك إلى فرقتين : آريوسية وأثناسيوسية .

وكان لزاماً لذلك أن يتدخل الامبراطور قنسطنطين ، الذى لم يكن يريد هذا الانقسام حفاظاً على وحدة الامبراطورية ، لتسوية هذا الخلاف وللتوفيق بين المذهبين وتوحيد الرأى . وعلى ذلك أمر بعقد مجمع دينى يضم كبار رجال الدين المسيحيين من سائر أنحاء الامبراطورية يترأسه هو للنظر فى هذه المشكلة . وعلى ذلك وبسبب عدم نجاح هذا المجمع فى حل المشكلة عُقدت مجامع أخرى ، على فترات متتالية ، وعُرفت هذه المجامع بالمجامع المسكونية لحسم هذا الشقاق الواقع فى صميم الاعتقاد الدينى المسيحى . ولقد اعتقد المسيحيون المتدينون أن قرارات هذه المجامع كان يوحى بها (الرب) ، وأن إطاعة هذه القرارات أمر واجب وأساسى شأنه فى ذلك شأن إطاعة كتاب العهد المقدس .

ولقد عُقدت ثلاثة مجامع مسكونية لحل مشكلة الخلاف بين الآريوسيين والأثناسيوسيين ، الأول عُقد فى مدينة « نيقية » سنة ٣١٥ م ، والثانى فى

مدينة « صور » سنة ٣٣٤ م ، والثالث فى مدينة القسطنطينية » سنة ٣٨١ م . وقد أعلن فى المجمع الأخير ، وبصفة نهائية ، عدم شرعية الأريوسية وفرض عقوبات شديدة على معتنقيها فى جميع أنحاء الامبراطورية ، كما قرر اعتماد الأثناسيوسية المذهب الأرثوذكسى (الحقيقى) للدولة وقد تبنته الدولة واعتبرتـه المذهب (الملكانى) الرسمى ، الذى يدين به الملك الامبراطور ورعيته .

وبذلك وُجد شرخ فاصل بين كنائس الشرق وكنائس الغرب ، مما أدى إلى انقسام الكنيسة المسيحية إلى شقين : الشق الشرقى وتمثله كنيسة القسطنطينية ويرأسها بطريركها ، وهى التى تحولت فيما بعد إلى كنيسة الروم الأرثوذكس ، والشطر الثانى وتمثله كنيسة القديس بطرس فى روما ويرأسها البابا ، وهى التى تحولت فيما بعد إلى الكاثوليكية . وبين الاثنين بدأت كنيسة الاسكندرية فى الاستقلال بشخصيتها وآرائها ، وهى التى تحولت فيما بعد إلى الكنيسة القبطية .

ذلك وإن الخلاف بين الآريوسية والأثناسيوسية كان قد تمخض عن ظهور مذهب آخر فى آخر القرن الرابع الميلادى كان له الانتشار فى سوريا ، انطلاقاً من مدينة أنطاكية . وقد عُرف هذا المذهب بالمذهب « النسطورى » نسبة إلى الداعى إليه وهو « نسطوريوس » بطريرك القسطنطينية الأنطاكى المولد والسورى الموطن .

ولقد نادى نسطوريوس فى مذهبه الجديد بالقول أن الطبيعتين الإلهية والبشرية لم تتحدا اتحاداً كاملاً فى المسيح ، وأن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة . وقد رفض نسطوريوس الاعتراف بالسيدة مريم كوالدة للإله وقال أنها والدة للمسيح البشر . ولقد لقى هذا المذهب النسطورى إقبالاً كبيراً فى بلاد الشام وشمال بلاد العراق .

ولم يقتصر الأمر على ظهور المذهب النسطورى ، بل ظهر فى منتصف القرن الخامس للميلاد مذهب آخر ، وهو مذهب « الطبيعة الواحدة » أو المذهب « المونوفيزيتى » ، الذى نادى به سنة ٤٤٤ للميلاد كل من « ديوسقوروس »

بطريرك الاسكندرية و« يوتيخا » ، المنوب عنه فى القسطنطينية ، وقد قالا : « بأن طبيعتى المسيح الالهية والبشرية قد تحولتا عند التجسد إلى طبيعة واحدة مع تغلب الطبيعة الإلهية على الطبيعة البشرية وذوبانها فيها ، وبذلك أصبحت للمسيح طبيعة واحدة وهى الطبيعة الإلهية » .

ولقد رفضت كل من كنيستىْ القسطنطينية وروما هذه الآراء ولم تعترفا بهذا المذهب ولا بالمذهب النسطورى ولقى المذهبان معارضة كبيرة منهما على الرغم من مناصرة الامبراطور مارقيان للمذهب المونوفيزيتى . وقد اضطر هذا الامبراطور ، تحت ضغط من رجال الكنيسة ، أن يعقد سنة ٤٥١ م مجمعاً مسكونياً فى مدينة « خلقدونية » . وانعقد هذا المجمع بالفعل ، وتوصل رجال الدين الذين حضروه إلى تحديد العقيدة الخاصة بطبيعتى المسيح ، وقالوا بوجود الطبيعتين كل منهما غير قابلة للتجزئة ومستقلة عن الأخرى . وأنكروا فى هذا المجمع آراء النساطرة والمونوفيزيتيين . ورغم قرار هذا المجمع فإن مذهب الطبيعة الواحدة قد انتشر فى مصر والشام ، وعُرف معتنقوه هناك باسم (اليعاقبة) نسبة لإتباعهم القسيس « يعقوب براديوس » (البراذعى) أسقف انطاكية فى الشام الذى عمل على نشر هذا المذهب فى هذه البلاد وصار مذهب كنيسة الاسكندرية القبطية .

وهكذا عاشت الامبراطورية الرومانية الشرقية والغربية فى فوضى دينية وخلافات مذهبية حول صميم العقيدة المسيحية . وصارت كل فرقة من هذه الفرق تدعى أنها الأصح وتكفر الفرق المخالفة لها فى الرأى والاعتقاد . وظل المسيحيون فى المشرق والمغرب فى حيرة بين هذه المذاهب دون الوصول إلى رأى نهائى ومعرفة المذهب الحق فيها .

ولم يكن الصراع الدينى وحده هو الذى يمزق امبراطورية الرومان ، بل قاست الامبراطورية الرومانية الغربية آنذاك من الضربات الموجعة التى وجهتها إليها قبائل الجرمان المتبربرة التى هاجمت أراضيها من شمال أوروبا ، واقتطعت أجزاء كبيرة منها ليقيموا لأنفسهم عليها دولاً مستقلة فى الجزء الغربى من أوروبا . وقد كان هذا الجزء من الامبراطورية الرومانية

ضعيفاً ضعفاً ظاهراً فى الداخل ، ولم يكن لديه قادة قادرون على القيام بشئونه والدفاع عنه ، كما لم يكن له مركز قوى يتجمع حوله ، لذلك كان لقمة سائغة وسقط فى سهولة فى يد قبائل الجرمان . فغزى اللمبارديون منهم ايطاليا ، وغزى القوط الشرقيون أسبانيا ، والكتلان والأنجلو سكسون بريطانيا . وباتت ، بعد هذا الغزو الجرمانى ، الامبراطورية الرومانية الشرقية (امبراطورية الروم) هى القوة الرومانية الكبرى وأكبر دول العالم الغربية فى أوائل العصور الوسطى .

كان هذا حال الغرب وقت ميلاد محمد ، فكيف كان حال الشرق ؟ .. كان لابد من أن تحكم شرق العالم قوة كبرى ودولة عظمى حتى تتعادل كفة ميزان الحكم فى العالم كما كان الحال فى العالم القديم وحتى تتوازن القوى الدولية مع مطلع العصر الوسيط . وكانت دولة فارس الساسانية القوية والغنية هى الامبراطورية الثانية العظمى فى عالم ذلك الوقت ، وكانت من عاصمتها طيسفون « المدائن » تحكم البلاد الممتدة ما بين الفرات والهند . وكانت هذه الدولة تمتلك جيشاً قوياً يعتمد فى المقام الأول على سلاح الفرسان القوى التسليح ، الذى تأتى من خلفه فرق المدرعات الثقيلة المتمثلة فى الأعداد الهائلة من الفيلة المدرعة التى تثير بزئيرها الرعب فى قلوب الأعداء حين يشتد وطيس القتال . وفى مؤخرة الجيش تأتى فرق المشاة المسلحة تسليحاً خفيفاً والمدربة على الاجتياز والاقتحام . ولقد استطاع الفرس ، بهذا الجيش ، فى القرن السادس الميلادى ، إحراز انتصارات باهرة فى بلاد التركستان والهند والقوقاز وعلى جيوش الامبراطورية الرومانية .

وكان الفرس يعتنقون ديانة وثنية وهى الديانة الثنوية المجوسية (الزرادشتية) ، وأصحاب هذه الديانة يؤمنون بوجود إلهين : أحدهما للخير ويُعرف عندهم باسم (أهورامزدا) والآخر للشر ويُعرف باسم (أهرمن) ، ويرمز للأول بالنور وللثانى بالظلمة . وتنتسب هذه الديانة إلى مؤسسها « زرادشت » ، ولها كتاب يُعرف « بالأفستا » ، وهو مكتوب باللغة البارثية القديمة . وأتباع زرادشت يوقدون النار فى معابدهم ظناً منهم أنها تساعد وتقوى إله الخير فى حربه ضد إله الشر .

ولقد تفرع عن المجوسية مذهبان هما المذهب المانوى والمذهب المزدكى . وتنتسب المانوية إلى مؤسسها « مانى » ، الذى ظهر فى القرن الثالث للميلاد ، وقام بمزج تعاليم المجوسية مع البوذية والمسيحية وخرج بتعاليم مذهبه الذى أخذ من المجوسية عقيدة الثنيوية واستباحة الزواج من البنات والأخوات ، وأخذ من البوذية عقيدة تناسخ الأرواح ومن المسيحية الزهد والرهبنة .

وتنتسب المزدكية إلى داع جديد ظهر فى بلاد فارس فى أواخر القرن الخامس الميلادى ويدعى مزدك ، كان ثنيوياً يؤمن بالهى النور والظلمة وبتقديس النار ، وقد مضى يدعو دعوة صارخة إلى العكوف على الملذات والشهوات والاستغراق فيها حتى الأذقان . وقد نادى مزدك بشيوعية المال والنساء وجعلهما شركة للناس جميعاً . وقد اعتنق هذا المذهب أعداد كبيرة من الفرس ، وكان لهذه الدعوة ، كما كان لأتباع المانوية أتباع كثيرون .

وهكذا كان الفرس يعتنقون الديانات الوثنية ويسجدون لغير الله ويتخبطون فى اعتقاداتهم ويعمهون فى ضلالاتهم ، فضلاً عن تأليههم لملوكهم وشاهاتهم والايمان بالحلول والتناسخ والقول بأن روح الله حلت فى ملوكهم من بنى ساسان . وكان البيت الساسانى هو الذى أقام الامبراطورية الكبرى لفارس وجعلها تناطح امبراطورية الروم ، وقد كان لزاماً أن تصطدم أكبر قوتين عالميتين بعضهما ببعض لفرض سيادة إحداهما على العالم ، وتلك سُنة التاريخ منذ أقدم العصور .

وفى عام ٥٣١ للميلاد ارتقى عرش فارس الامبراطور « كسرى أنو شروان » (الروح الخالدة) ، وكان من أشهر وأعظم ملوك الفرس ، وكان له إيوان وعرش كبير محلى بأغلى الدرر وأندر الأحجار الكريمة ، وكان يُضرب بإيوانه المثل فى العظمة والبهاء . وقد قام كسرى أنو شروان باصلاح أحوال بلاده الاجتماعية والمالية والعسكرية وصارت بذلك أقوى مما كانت عليه فى عهد والده . ولما أكمل استعداد جيشه وتجهيزه وتسليحه قام بغزو سوريا التى كانت تخضع لحكم الروم آنذاك ، واستولى على مدينة انطاكية الهامة وقام بتخريبها وتدمير أهم معالمها نكايةً فى أهلها الذين دافعوا عن مدينتهم وتصدوا بشراسة لقواته الغازية .

وعندما اعتلى هرقل عرش الروم ، كان الخطر الفارسى يهدد كل ممتلكات الامبراطورية ، فقد وسع الفرس رقعة فتوحاتهم على حساب الروم واستولوا على كل سوريا وأرمينية ومدوا بأطماعهم إلى البحر المتوسط وطرقت قواتهم أبواب القسطنطينية عاصمة الروم . وقد ساعد الفرس فى هذا الفتح وهذا الانتشار تلك الاضطرابات التى سادت ولايات الروم الشرقية بسبب الخلافات الدينية بين أهاليها واضطهاد الدولة للعناصر المونوفيزيتية المعارضة لمذهب الدولة الملكانى . ولقد ساعد أهالى هذه البلاد الفرس فى الاستيلاء على بلادهم وفتحوا أبواب مدنهم لهم ودلوهم على نقاط الضعف فى التسليح الرومى بسبب هذا الاضطهاد وبسبب سياسة التسامح الدينى التى انتهجها الفرس فى البلاد الرومية المفتوحة . وكان الفرس قد نهجوا سياسة التسامح مع المسيحيين النساطرة الذين اعتنقوا هذا المذهب فى بلادهم .

ولقد نجح الفرس فى الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦١٤ للميلاد ، وأباحوا هذه المدينة المقدسة لجنودهم ثلاثة أيام ، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها وأسروا عدداً أكبر منهم ، وكان من بينهم « الأب زكريا » بطريرك المدينة . كذلك إستولوا على « صليب الصلبوت » أهم آثار المسيحية الدينية ، وهو الصليب الذى يدعى المسيحيون أن المسيح قد صُلب عليه ، ونقلوه إلى عاصمتهم « المدائن » . ودمرت حرائق الفرس كنيسة « القيامة » التى كان قد شيدها قنسطنطين الكبير ، وهى من أقدس كنائس المسيحية هناك . وبعد أن فتح الفرس سوريا واستولوا عليها جميعها قاموا بغزو مصر وفتحها ، فسقطت الاسكندرية ، العاصمة ، فى يدهم سنة ٦١٩ للميلاد ، ثم استولوا ، بعد ذلك ، فى سهولة على بقية بلاد مصر فى الدلتا والصعيد .

وكان لزاماً على الروم ، بعد أن تخلصوا من مشاكلهم الداخلية ، أن يتصدوا لفتوحات الفرس لممتلكاتهم ، فتقدمت قواتهم لرد الضربة لهم ، وبذلك دخلت الامبراطوريتان الكبيرتان فى حرب ضروس دامت لسنوات طويلة بينهما ولم تنته بنصر لأىٍ منهما ، بل أدت فى النهاية إلى ضعفهما معاً وتضاعف مشاكلهما .

ولم تكن الحرب العسكرية وحدها هى التى وقعت بين الامبراطوريتين الكبيرتين آنذاك لإحراز السيادة والزعامة على العالم فحسب ، بل كانت هنالك أيضاً حرب بين ديانتىْ الدولتين : بين المسيحية والمجوسية وكل منهما تريد فرض السيادة على العالم واكتساح الديانة الأخرى . وكانت فارس ، رغم سيادة المجوسية بين شعبها ، قد عرفت المسيحية واعتنقها بعض شعبها ولكن علىَ المذهب النسطورى المخالف لمذهب الدولة الملكانى . وكان نسطوريوس ، بعد رفض الكنيسة لمذهبه وإتهامه بالكفر والخروج عن الدين ، قد هرب إلى فارس ، وهنالك لقى الترحيب من مليكها وسمح له بالإقامة فى بلاده ، ولقى مذهبه هناك قبولاً من بعض الفرس دون أن تعترض الدولة عليهم فى اعتناقهم له . وكانت فارس قد عرفت اليهودية كما عرفت المسيحية ، ولقى اليهود الفارون من اضطهاد الكنيسة المسيحية الشرقية فى بلادها ترحيباً من دولة الفرس ، وسمحوا لهم بمزاولة التجارة العالمية وكونوا بسبب ذلك هنالك لهم ثروات طائلة وأحرزوا مكانة إجتماعية ممتازة فى مجتمعات فارس وأقاموا لهم فيها أكاديميات دينية نشطة كانت نواة لنشاط اليهود الدينى الكبير فى بلاد العراق تحت حكم دولة الفرس الساسانيين .

ولقد واجه الامبراطور هرقل الخطر الفارسى ووضع حداً لهجمات الفرس على بلاده ونجح فى قلب هزائم الروم أمام الفرس إلى انتصارات عليهم حتى أنه إسترد معظم الأراضى التى كانوا قد استولوا عليها ، وزاد على ذلك بأن قام بمهاجمتهم فى عقر دارهم . فتقدم بجيشه سنة ٦٢٧ للميلاد ووصل إلى مدينة « نينوى » ، القريبة من الموصل ، وهناك دخل مع الجيش الفارسى فى معركة كبيرة نجح هرقل فى ايقاع هزيمة كبرى فيها بالفرس . وبعد هذه المعركة عُزل كسرى عن مُلك الفرس وحل مكانه على العرش إبنه « شيرويه » الذى قام بقتله ، والذى لم يجد بداً من عقد الصلح مع هرقل سنة ٦٢٨ للميلاد بعد أن تأكد من عدم قدرة قواته على مجابهة قوات الروم . وبمقتضى هذا الصلح المُذل استرد الروم لكل ما كان قد استولى عليه الفرس من بلاد الروم ومستعمراتها بما فى ذلك بلاد سوريا ومصر . واستعاد الروم من الفرس أيضاً صليبهم المقدس ، المعروف بصليب الصلبوت .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى نصر الروم هذا فى سورة الروم فى قوله تعالى : **﴿ ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾** .

وكان هذا الصلح الأخير بين الفرس والروم نهاية مطاف الحروب الطويلة بين القوتين العظيمتين آنذاك ، وقد أضعفت هذه الحروب كلا الطرفين وأنهكت قواهما ، ولم تكن أى من الامبراطوريتين يعلم ما كانت تخفيه الأيام لكليهما ، وما كانت عناية الله تعده داخل جزيرة العرب . لقد كانت البشرية جمعاء فى انتظار بزوغ فجر جديد بعد أن ساد العالم الفساد وغطى أجواءه الظلام وران على قلوب العباد الكفر والضلال والشر والإلحاد . وتطلع الكون جميعه وران ببصره صوب جزيرة العرب ، أرض الرسالة ، حيث أشرقت هنالك شمس الاسلام .

٢- أرض الرسالة

ظهرت الدعوة المحمدية في شبه جزيرة العرب ، واختار الله تعالى هذه الأرض كي تكون مهبط الوحي ومنبعث رسالة الاسلام . وشبه الجزيرة أرض واسعة تساوي في مساحتها تقريباً ، ثلث مساحة قارة أوروبا بأكملها ، وتغلب الصحراء على معظم أراضيها بسبب نقص سقوط الأمطار عليها . وهنالك مناطق كثيرة داخلها تغطيها الجبال التي يرتفع بعضها لأكثر من ستمائة قدم عن مستوى سطح البحر وتمتد طولياً إلى عدة أميال . وتنقسم شبه الجزيرة من حيث طبيعتها الجغرافية إلى خمسة أقسام هي : الحجاز ، تهامة ، نجد ، العروض ، واليمن وحضرموت . ويقع الحجاز شمال اليمن وشرقي تهامة وغربي نجد ، وهو الاقليم الممتد من خليج العقبة إلى عسير . وقد سُمي هذا الاقليم حجازاً لأنه يحجز بين نجد وتهامة ، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو سبعمائة ميل وعرضه مائة وسبعون ميلاً ومساحته ٩٦ ألف ميل مربع . ويتكون الحجاز من عدة أودية تتخللها سلسلة جبال السراة ، وأشهر مدنه : مكة والمدينة والطائف وجدة وينبع وتبوك التي تقع على حافة صحراء النفود . أما « تهامة » فهي الأرض الواقعة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر الشرقي من ينبع إلى نجران ، وتسمى أيضاً « الغور » لانخفاض أرضها ، وقد سميت بتهامة لشدة حرها وركود ريحها ، ومن أهم مدنها عسير وأبها . أما نجد فهو أوسع أقسام شبه الجزيرة ، وقد سُمي نجداً لارتفاع أرضه ، وهو إقليم يمتد من بادية الشام شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً ، ومن بلاد الحجاز غرباً إلى البحرين شرقاً ، ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠٠ ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب نحو ٢٢٠ ميل . وإلى الجنوب من نجد تقع صحراء الربع الخالي (الأحقاف) وكانت دياراً لقوم عاد ، وتعادل مساحة الربع الخالي مساحة دولة فرنسا الحالية . وفي شمال نجد تقع صحراء « النفود » (بادية السماوة) وتغطي مساحة أربعين ألف ميل مربع ، وجنوبها تقع جبال شُمر . وأشهر مدن نجد : الرياض عاصمة المملكة السعودية الحالية ، ومدينة حائل والقصيم . وإقليم العروض ، وهو اليمامة ،

سكنى بنى ربيعة ، وقد سُمى عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق ، وقد سكنه قديماً بنو طسم وجديس من العرب البائدة . أما اليمن وحضرموت فيقعان فى جنوب وجنوب شرقى شبه الجزيرة العربية ، وقد تميزت أراضيها بالخصب لسقوط الأمطار عليها ، وقام أهلها بالزراعة ، وشهدت أرضها حضارات قديمة ، هى حضارة معين وسبأ وحمير ، على التوالى .

ونجد فى أماكن متفرقة من شبه الجزيرة حقولاً من التربة البركانية (اللافا) تكونت منذ عصور بعيدة بفعل النشاط البركانى . ويحمل وادى شبه الجزيرة شواهد على حقبة زمنية مطيرة كبيرة مرت على هذه البلاد فى الزمن القديم ، لكن معظم أجزائه جفت مع مرور الزمن ولم يتبق فيه إلا نقاط صغيرة مازالت خصبة بسبب توافر بعض الينابيع بها . وتسقط بعض الأمطار المتفرقة على هذه البلاد من حين لآخر تسبب فى بعض الأحيان سيولاً جارفة ، الأمر الذى يفسر سر كثرة المياه الجوفية فى باطن أرضها ، وقد تعلم سكان شبه الجزيرة كيفية حفر الآبار ووصلوا إلى أماكن تواجد الماء فى باطن الأرض . وحيث وُجد الماء ، قامت الزراعة فى الواحات ، وقاومت خضرتها إصفرار رمال الصحراء الغالب على هذه البلاد . كذلك قامت الزراعة فى سهل تهامة الساحلى بسبب سقوط الأمطار عليه بشكل منتظم ، وأيضاً بسبب إنخفاض واديه واحتفاظه فى جوفه بكميات كافية من مياه المطر .

وقد فرضت طبيعة الأرض فى شبه الجزيرة نمط حياة العرب فيها ، فسادت البداوة وغلبت حرفة الرعى بسبب غلبة الصحراوات على أرض هذه البلاد . وقد رعى أهالى هذه البلاد الإبل وعرفوها منذ خمسمائة عام قبل ميلاد المسيح ، وهى حيوانات تتناسب طبيعة تكوينها مع حياة الصحراء القاسية . ومن ثم أصبحت الإبل هى عماد ثروتهم ومصدر طعامهم ، ووسيلة تنقلهم الوحيدة عبر الصحراء ، ولذلك عُرفت بسفينة الصحراء . والجمل هو الحيوان الوحيد دون الحيوانات الذى يستطيع أن يقطع المسافات الشاسعة عبر دروب الصحراء دون كلل أو ملل ، وهو يستطيع خلال رحلته عبر

الصحراء أن يحمل على ظهره أكثر من أربعة قناطير من الأحمال ، وأن يقطع ستين ميلاً سيراً متواصلاً فى اليوم . وهو قادر على أن يسافر عشرين يوماً متصلة دون ماء فى ظروف حرارة قاسية قد تصل إلى ١٢٠° فهرنهيت .

وتركزت الحياة فى شبه الجزيرة فى مناطق الواحات حول عيون الماء الدائمة والآبار ، وزرع الناس بعض الحبوب والغلال ، كما زرعوا أشجار النخيل التى أمدتهم بالتمر ، الذى كان هو ولبن الناقة الغذاء الوحيد للبدوى الفقير . واحترف العرب التجارة واتصلوا بواسطتها بالعالم الخارجى وعرفوه . ولقد شكلت القوافل التجارية حلقة اتصال بين المناطق المتحضرة فى جنوب الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب جامعةً منتجاتها وبضائع تجارة المرور العالمية بين الشرق والغرب . ونتيجة لهذه التجارة قامت الأسواق التجارية فى الجزيرة العربية واكتسب بعضها صفة الدوام ونال الشهرة كسوق عكاظ وذى المجاز ورأس مجنة .

وكانت مكة أبرز مدن شبه الجزيرة التجارية بسبب موقعها على طريق القوافل بين الشام واليمن ، وبسبب نشاط أهلها الذين جمعوا الثروة والمال من وراء هذه التجارة وكانت لهم بذلك السيادة والشرف فى أرض شبه الجزيرة .

وقد تناثرت بعض المدن فى صحراء شبه الجزيرة إضافة إلى تلك التى نمت نمواً طبيعياً فى منطقة الواحات ، وعاش فى هذه المدن مجموعات من التجار والحرفيين والمزارعين فى قبائل يرأسها شيوخ هذه القبائل العرب .

والعرب الذين سكنوا هذه الأرض التى نُسبت إليهم هم أمة من الأمم السامية استوطنت هذه البلاد قبل الميلاد بآلاف السنين ، ولم يستطع أحد من العلماء أن يحدد التوقيت الدقيق لهجرتهم إليها . وهم من نسل سام بن نوح ، كما ورد فى التوراة ، ولغتهم فرع من الأرومة السامية مثل العبرية والحبشية والفينيقية والآشورية . وقد قيل أن تسمية هذا الشعب بالعرب جاءت نسبة إلى جد العرب العاربة الأكبر « يعرب بن قحطان » من نسل سام بن نوح عليه السلام . وقد قسم المؤرخون هؤلاء العرب إلى أقسام ثلاثة : عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة .

والعرب « البائدة » هم العرب الذين بادوا من قديم ومحيت آثارهم واندثرت أخبارهم ، ولم يصلنا عنهم إلا القليل فيما ورد عنهم فى القرآن الكريم والسنة النبوية وما كشفته عنهم الآثار والحفريات ، وأشهر قبائلهم التى أبيدت هم قوم : عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق والمعينيون وجرهم الأول .

و« عاد » هم قوم النبى هود عليه السلام ، وكانت مساكنهم بالربع الخالى (الأحقاف) ، شمالى حضرموت ، ولقد أبادتهم ريح صرصر عاتية سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً بسبب كفرهم بدعوة نبى الله هود عليه السلام . وقد نجى الله تعالى هوداً ومن آمن معه وعُرف هؤلاء بعاد الثانية ، ودام حكمهم مدة طويلة إلى أن تغلب عليهم القحطانيون فلجأوا إلى حضرموت واستقروا هناك وذابوا فى سكانها .

أما قوم « ثمود » ، فكانوا يسكنون منطقة « الحِجر » المعروفة الآن « بمدائن صالح » فى وادى القرى ، بالقرب من تبوك . وكانوا يعبدون الأوثان ، فأرسل الله اليهم نبيه صالح ليتركوا عبادة الأوثان ويعبدوا الله الواحد القهار ، فلم يستجيبوا لدعوته فأبادهم الله بالصيحة ولم يُبق منهم أحد . وأطلال ديارهم ما زالت إلى الآن باقية تشهد على سوء نهايتهم . وقد حكى القرآن الكريم عن نهاية عاد وثمود ، فقال عنهما الله تعالى فى سورة الحاقة : **﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ﴾** .

وكانت مساكن طسم وجديس بالعروض (اليمامة) وقد أبيدوا مثل قوم عاد وثمود . والعماليق هم قبائل الهكسوس التى كانت تنزل اليمن ثم نزحت إلى الحجاز وتفرقوا شيعاً ، سار بعضهم إلى الشام والبعض الآخر إلى مصر والعراق واستوطن بعض منهم إقليم نجد . أما المعينيون وجُرهم الأولى فكانوا باليمن وخرجوا منها وتفرقوا فى البلاد .

أما العرب « العاربة » ، ويُعرفون أيضاً باليمنية ، والسبئية ، والقحطانية ، وعرب الجنوب ، كانوا فى الأصل يسكنون العراق ثم هاجروا إلى اليمن واستقروا فيه ، وكانوا معاصرين لإخوانهم من العرب البائدة ومظاهرين لهم على أمورهم . ولقد إرتحلوا من اليمن وتفرقوا شيعاً على أثر نزول سيل العرم وانهيار سد مأرب سنة ٥٢٥ ميلادية ، وتغلبوا على العماليق وانتزعوا أرضهم منهم وتوزعت قبائلهم فى شبه الجزيرة وخارجها .

ومن أشهر هذه القبائل حمير وكهلان ، ومن حمير التتابعة ملوك اليمن ، ومن أشهر قبائل حمير قضاعة التى من بطونها : بنو كلب ، تنوخ ، جهينة ، عـذرة ، وبهـراء ، وقد تفرقت هذه البطون فى شتى الأنحاء . ومن بطون كهلان : الأزد ، طىء ، بجيلة ، خثعم ، عاملة ، همدان ، كندة ، مذحج ، لخم ، وجذام . ومن بطون الأزد : أزد عمان والأوس والخزرج الذين سكنوا يثرب بعد هجرتهم من اليمن . ومنهم خزاعة وبطونها التى نزلت وادى مكة وأجلوا عنها سكانها من جُرهم الثانية ، ومنهم الغساسنة ملوك الشام .

وأما طىء فهى أكثر العرب بطوناً ونزلت نجد ، ونزلت كندة حضرموت ثم نجد واليمامة ودومة الجندل ، ونزلت عاملة الشام ، ونزلت لخم الحيرة ، ومنهم ملوك المناذرة .

أما العرب « المستعربة » ، ويُقال لهم الاسماعيلية ، والعدنانية ، والمعدية ، والنزارية ، والقيسية ، وعرب الشمال ، وعرب الحجاز ، وسموا مستعربة لأنهم لم يكونوا عرباً خُلصاً ، ولكنهم جاءوا نتيجة لتزاوج العرب الخلص مع غيرهم من سكان البلاد التى نزحوا اليها . وقد نشأت فى مكة وارتبط قيامهم بمجىء سيدنا اسماعيل مع أبيه سيدنا ابراهيم من العراق ، واستقرار إسماعيل وأمه هاجر بمكة بين قبيلة جرهم على أثر تفجر بئر زمزم تحت قدمىْ سيدنا اسماعيل ، وزواجه منهم من « وعلة » إبنة سيدهم مضاض الجرهمى . وقد أنجب اسماعيل إثنى عشر ولداً هم آباء العرب المستعربة .

عاش العرب عيشةً قبلية بدوية ، وكانت القبيلة هى دعامة الهيكل الاجتماعى فى الجزيرة العربية . وقد تشكلت القبيلة من عشائر وبطون

وأفخاذ جمعتها فيما بينها روابط القربى . وكانت العلاقات بين هذه القبائل تتغير من حين لآخر بين السلم والحرب ، بسبب الصراع على الكلأ وموارد الماء ، ولدافع الثأر ، ورغبة بعض القبائل فرض سيادتها على القبائل الأخرى واغتصاب ما بيدها . وقد كثر النزاع بين القبائل العربية بسبب ذلك فى الجاهلية ، وعُرفت الأيام التى شهدت هذه الحروب عندهم باسم « أيام العرب » . ومن أشهر هذه الأيام : حرب البسوس ، وداحس والغبراء ، وأيام الفجار . ووقعت حرب البسوس قبل الاسلام بين قبيلتى بكر وتغلب إبنىْ وائل ، ودامت أربعين سنة بينهما ، بسبب ناقة كانت تمتلكها إمرأة عجوز من بكر تُعرف بالبسوس فنُسبت الحرب إليها . أما داحس والغبراء فوقعت بين قبيلتى عبْس وذُبيان ، وكان سبب إشعالها هو سباق جرى بين فرسين بهذين الإسمين : داحس ، وكان لقيس بن زهير ، والغبراء ، وكان لحمل بن بدر ، ودامت هذه الحرب أربعين عاماً . وقد ورد فى هذه الحرب شعر كثير ، ومن أحسن ما قيل فيها وأقواه : معلقة زهير بن أبى سلمى ومعلقة عنترة بن شداد العبسى .

وأيام الفجار كانت حروب وقعت بين القبائل العربية – فى الأشهر الحرام ، (رجب ، ذى القعدة ، ذى الحجة ، والمحرم) . وكانت الفجار الأولى بين كنانة وهوازن ، والثانية بين قريش وهوازن ، والثالثة بين كنانة وهوازن أيضاً ، والرابعة بين قريش وكنانة معاً ضد هوازن . وكانت الفجار الرابعة أشهر هذه الأيام ووقعت قبل مبعث رسول الله بست وعشرين عاماً ، وقد شهدها الرسول مع أعمامه وهو ابن أربع عشرة ، وقد قامت بسبب قتل قريش لأحد رجال هوازن وكان على رأس قافلة تجارية قادمة من عند النعمان إبن المنذر ملك الحيرة .

ولم يكن يحكم العرب قانون مكتوب ، ولم تكن لديهم دولة تفرض قوة القانون عليهم ، وكانت العادات والأعراف تحكمانهم . وكان أساس المجتمع القبلى قائماً على المساواة بين جميع أفراد القبيلة فى الحقوق والواجبات . وكان رجال القبيلة يختارون زعيماً لهم منهم يستمد قوته من قوة الجماعة

وعليه المحافظة على وحدة الجماعة . ويتم اختيار هذا الزعيم لصفات مميزة فيه مثل الشجاعة والكرم أو الحكمة والكياسة مع كبر السن ، ولم يكن شيخ القبيلة مستبداً برأيه بل كان رأيه من رأى جماعته .

وقد كونت بعض هذه القبائل ثروات لها بسبب الاغارات على القبائل الأخرى ، أو بسبب التجارة ، وكان فى كل قبيلة الأغنياء والفقراء من أبنائها . وقد شرع الأغنياء فى شراء الرقيق من الجنسين . وكان الرق يقع على الشخص إما لأسره فى الحرب وعدم مقدرته على فداء نفسه ، وإما غُرماً لديْن لم يستطع سداده . وقد قام بعض ممن يتملكون هؤلاء العبيد بعتقهم على أن يصيروا موالٍ لهم أو لقبائلهم ، فيُقال له : « مولى فلان » ، أو « مولى قبيلة كذا » .

ولقد أحرز الحكماء والشعراء مكانة هامة فى مجتمع الجزيرة العربية . وكان الشعراء لسان حال قبائلهم ، وكانت المباريات تعقد بينهم فى الأسواق فيتعرف الناس منهم على أخبار القبائل . وكان كل شاعر يحاول أن يبرز مفاخر قبيلته ويمتدح رجالها ويهجو أعداءها ، ويشيع ذلك بين القبائل كما تفعل الصحافة اليوم ووسائل الاعلام المختلفة .

ولم يكن البدو يميلون بطبيعتهم إلى التدين ، وكانوا يعتقدون بأن الأرض مسكونة ، بالأرواح الشريرة والجن الخفى الذى يظهر ، حسب اعتقادهم فى بعض الأحيان ، على هيئة الحيوان . وكان بعضهم يعبد الكواكب والنجوم ، والبعض الآخر يعبد الأصنام والأوثان ، وكان لكل قبيلة وثنها أو صنمها . وفى الحجاز كانوا يعبدون « اللات » و« العُزى » ، و« اللات » هى الإلهة ڤينوس (زهرة الصباح) عند اليونان الأقدمين ، وقد عبدتها قبيلة ثقيف بالطائف ، وكانت صخرة مربعة على شكل زهرة أقيم عليها بناء ، وكانت فى موضع بناء مئذنة مسجد الطائف اليسرى اليوم . أما « العُزى » فهى إله القوة ، وهى شجيرات فى وادى نخلة عند يمين الذاهب من مكة إلى العراق . كذلك عبدوا « منات » وهى إلهة القدرة والموت والحياة عندهم ، عبدها الأوس والخزرج بالمدينة ، وكان لها نصب على ساحل البحر الأحمر ببلدة قديد بين مكة

والمدينة . ولقد جلب « عمرو بن لحىْ » سيد خزاعة ، فى أوائل القرن السادس الميلادى ، معه من الشام صنماً على صورة إنسان مصنوع من العقيق الأحمر أسماه « هبل » وأسكنه جوف الكعبة وجعله كبير الآلهة ، ولما كُسرت يده اليمنى صنعت قريش له يداً من ذهب . كذلك عبد عرب الحجاز صنمين هما « إساف ونائلة » وكانا على موضع من زمزم ، وكانوا ينحرون عندهما . وقيل أنهما كانا رجلاً وامرأة من جرهم تواقعا عند الكعبة فمسخهما الله حجرين ليكونا عظة وعبرة عند الكعبة ، ولما طال مكثهما وعرف العرب عبادة الأصنام عُبدا معها . وقد كان حول الكعبة ثلثمائة وستين صنماً .

وعند العرب الأنصاب وهى صخور ذات صور معينة زعموا أن أصلها سماوى . وقدّس العرب الكعبة ووضعوا حولها الأصنام وذبحوا عندها الذبائح ، واتخذوا مع الكعبة بيوتاً يعظمونها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب يقومون بأمرها ، وتُهدى لها كما تُهدى للكعبة ويُطوَّف بها .

وقد عرف العرب فضل الكعبة ، وعرفوا أنها بيت ابراهيم الخليل ومسجده وأبقوا فيهم من دين ابراهيم : من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف بعرفة ومزدلفة وإهداء البُدن .

. وعرفت شبه جزيرة العرب المسيحية واليهودية والمجوسية والصابئة ، فانتشرت المسيحية بين بنى تغلب وغسان وقضاعة وفى إقليم نجران باليمن . وانتشرت اليهودية فى اليمن ووادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب (المدينة) . أما المجوسية فكانت فى بلاد البحرين وعلى حدود فارس ، والصابئة فى شمال العراق .

كذلك عرف العرب الحنيفيين الموحدين من بقايا أتباع ملة سيدنا ابراهيم ، وهى الأصل عندهم فى تقديس مكة والكعبة والحج اليها ، وقد دعى أصحاب هذه الدعوة الناس إلى نبذ عبادة الأصنام وعبادة الله الأوحد . واشتهر من هؤلاء رجال تميزوا بالعقل والحكمة بين قومهم من أمثال : « أمية إبن أبى الصلت » ، الذى كان شاعراً فى ثقيف وعاصر دعوة الرسول ولكنه لم يؤمن به وكان يحرض قريشاً بعد معركة بدر ويرثى من قتل بها ، ونزل فيه

قوله تعالى: ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ ، ومات على الكفر بالطائف سنة تسعة للهجرة . ومنهم « ورقة بن نوفل » ابن عم السيدة خديجة زوج رسول الله ، وكان على النصرانية ، وتُوفى موحداً فترة نزول الوحى . ومنهم « زيد بن عمرو بن نفيل » ، ومات قبل البعثة بخمس سنين ، و« عثمان بن الحويرث » ومات فى بلاد الروم مسموماً ، و« عبد الله إبن جحش » ، وقد أسلم وهاجر إلى الحبشة ومات هناك ، و« قس بن ساعدة الأيادى » ، وكان من حكماء العرب ومات قبل بعث الرسول .

وكانت لكل قبيلة طقوسها الدينية ، ولقد قدست قريش بعض الحيوانات وحرَّمت ذبحها وأطلقت عليها أسماء أعطتها صفة القداسة : كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام . و« البحيرة » هى الناقة التى يمنع درها وتترك هبة للآلهة فلا يحلبها أحد من الناس ، وكانت تشق أذنها ويخلى سبيلها ولا تُركب ولا يُشرب لبنها ولا يُجز صوفها . و« السائبة » هى الناقة التى يسيبونها للآلهة لا يُحمل عليها ولا يُركب ظهرها ولا يُشرب لبنها ولا يُجز صوفها ، وهى الناقة التى تأتى بعد ولادة عشر إناث متتابعين ليس بينهن ذكر .

و« الوصيلة » هى الناقة البكر التى تبكر فى أول نتاج الأبل ثم تثنى بعد بأنثى وليس بينهما ذكر ، فكانوا يسيبونها لوصلها بأنثى مثلها .

أما « الحام » فهو فحل الإبل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ، فإذا ضرب هذا العدد ودعوه لبيوت عباداتهم وأعفوه من الحمل والعمل ، فلا يُركب عليه ولا يُجز وبره ويُخلى فى إبله يضرب فيها ولا ينتفع منه . وقد أنزل الله تعالى إبطال ذلك بقوله تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ .

وعموماً كان السحر شائعاً بين العرب ، كذلك الفأل والتطير والخوف من الحسد والعمل على الوقاية منه بالتعاويذ والأحجبة .

وفى جنوب شبه الجزيرة ، فى بلاد اليمن قامت حضارة زاهرة . ففى تلك البلاد ، التى عُرفت ببلاد اليمن السعيدة ، تختلف نوعية الأرض عن بقية

أرض شبه الجزيرة وبتوافر المياه ، لذا قامت الزراعة الغنية هناك الأمر الذى أدى إلى ثراء أهلها وغناهم فضلاً عن مشاركتها فى التجارة العالمية ما بين الشرق والغرب وتحكمها فى طرق هذه التجارة . وقد قامت فى هذه البلاد ممالك قوية هى : ممالك معين وسبأ ، وحميْر ، وخلفت هذه الممالك حضارة مادية عالية . وقد عبد أهل اليمن كثيراً من الآلهة وكان « عشتار » أكبر آلهتهم (وهو نجمة الزُهرة) ، كذلك عبدوا الشمس ، وانتشرت بينهم المسيحية واليهودية . ولقد وقفت هذه الممالك موقفاً متشدداً أمام زحف القبائل العربية البدوية التى كانت تجوب الصحراء بحثاً عن الاستقرار وحالت بينها وبين الاستقرار فى بلادها . وكانت فى بعض الأحيان تصطنع بعض هذه القبائل تسمح لها بالاستقرار على حدودها حتى تكون موانع تزود عنها هجوم سائر القبائل وتدفع لها فى المقابل ما يؤمن معيشتها .

ولم تكن الجزيرة العربية بمعزل عن العالم القديم ، فقد كانت بسبب وقوعها فى مفترق طرق ذلك العالم مقصداً للتجار وقبلتهم . وتعرضت هذه الجزيرة أيضاً لبعض الغزوات الخارجية برغم وعورة صحرائها . فقد قام الملك البابلى « نبانونيديوس » فى القرن السادس الميلادى بغزو صحراء الجزيرة ووصل بقواته من العراق إلى يثرب ونصّب نفسه ملكاً لعدة سنوات على تيماء والحجاز . كذلك قام الملك السلوقى اليونانى « أنتيوخوس الثالث » بغزو البحرين . وفى عام ٢٤ و ٢٥ ق.م. قام « إيليوس جاليوس » الحاكم الرومانى على مصر بغزو اليمن بأمر من الامبراطور « أغسطس » .

وفى المقابل خرج كثير من العرب من شبه الجزيرة واتصلوا بالعالم واتجروا معه قبل الاسلام . ولقد سافر العرب إلى بلاد اليونان ، وإلى مصر وسوريا وبلاد الهلال الخصيب واستقر هنالك بعض منهم ، كما عرف العرب الحضارتين الآرامية واليونانية .

* * * *

كان الصراع قوياً فى القرن السادس الميلادى بين الامبراطوريتين الرومانية الشرقية والفارسية ، وكانت المنافسة على السيادة الاقتصادية فى

العالم شديدة بينهما ، وكان كل منهما يرغب فى فرض سيطرته على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب للاستفادة من عائد تلك التجارة الغنية . وسعت الامبراطورية الرومانية لذلك من أجل فرض سيطرتها على بلاد الرافدين ومنطقة أرمينية . كذلك سعت امبراطورية الفرس فى استعادة سوريا ومصر من يد الرومان أيام حكم مليكهم دارا (داريوس) . ولذلك وقعت الحرب بين الدولتين مع بداية القرن السادس الميلادى . وقام الملك الفارسى عام ٥٠٢ ميلادية بشن الحرب على الروم فى منطقة القوقاز ، وواصل الملك « خسرو » هذه الحرب بعد وفاة والده . وعُقد صلح بينه وبين الامبراطور « جستنيان » عام ٥٣٢م ، إستمر لثمان سنوات اندلعت بعدها الحرب بينهما عام ٥٤٠م ، ونجح الملك خسرو فى الاستيلاء على أنطاكية . ثم عقد الصلح بين الدولتين عام ٥٦٢م على أن يظل سارى المفعول مدة خمسين عاماً ، لكنه لم يستمر لأكثر من عشر سنوات ، فاندلعت الحرب بينهما ثانيةً عام ٥٧٢م .

ولقد قام كل من الفرس والروم باصطناع العرب الذين سكنوا على حدود إمبراطوريتهم فى الشام وفى العراق ، وكوّنوا من هذه الولايات العربية ما يُعرف باسم « الامارات الحاجزة » Buffer States ، لتقف فى وجه القبائل العربية التى كانت تغير على بلادهم وتهدد الأمن فى القرى الزراعية والمراكز التجارية المجاورة لتلك القبائل كلما أصابهم الجدب . وقد سبق الفرس الروم فى ذلك إذ قاموا بالاعتراف « ببنى لخم » وهم من قبيلة « تنوخ » ملوكاً على دولة عُرفت بدولة « المناذرة » . وحذى الروم حذوهم بأن اعترفوا « ببنى غسان » الذين كانوا على حدود الشام مع العراق ملوكاً على دولة عُرفت بدولة « الغساسنة » . وقد حاول المناذرة والغساسنة أن يقلدوا حضارة الفرس والروم ، فأحاط ملك الحيرة اللخمى نفسه بجميع مظاهر البلاط الفارسى ، وكذلك أحاط الملك الغسانى نفسه بجميع مظاهر بلاط القيصر الرومانى . وتوالت وفود العرب على بلاط كسرى وقيصر ، كما توالت الحروب بين الدولتين العربيتين لصالح الامبراطوريتين الكبيرتين المتنافستين . فقد إتخذ الفرس ملوك الحيرة عوناً لهم على حربهم مع الروم ، كما اتخذ ملوك الروم أمراء غسان سلاحاً لهم فى وجه الفرس . وبلغت الامارتان العربيتان أوج

ازدهارهما فى القرن السادس الميلادى وخاصةً فى منتصفه عندما كان « الحارث بن جبلة » يحكم غسان و« المنذر بن ماء السماء » يحكم الحيرة . ولقد أنعم الملك الفارسى « يزدجرد » على المنذر بقلب « راموزه يزدجرد » ، أى الذى ينعم برضاء يزدجرد ، كذلك لقّبه بلقب « ماهيشت » أى الأعظم . وفى الوقت نفسه أغدق الامبراطور الرومانى « جستنيان » على « الحارث الغسانى » وأعطاه لقب « فيلاروخ » ، ولقب « بطريق » ، وهى من أكبر الألقاب الرومانية . وقد اعتنق الغساسنة المسيحية على المذهب المونوفيزيتى (مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح) ، وهو المذهب الذى ساد فى مصر وسوريا ، وكان مخالفاً للمذهب الامبراطورى الملكانى الذى ينادى بالتثليث .

وقد قامت الحرب بين الحارث بن جبلة أمير غسان والمنذر أمير الحيرة بسبب النزاع على الأراضى الواقعة على جانبى الطريق الحربى من دمشق إلى ما بعد تدمر . وفى سنة ٥٤١م حارب الحارث المناذرة فى العراق إلى جانب قوات الروم تحت قيادة القائد « بليزاريوس » . وتجددت هذه الحرب بعد ثلاث سنوات واستمرت حتى أحرز الحارث الغسانى إنتصاراً حاسماً على المناذرة عام ٥٥٤م فى معركة دارت بالقرب من قنسرين ، وانتهت بمقتل المنذر ملك الحيرة ، ويسمى العرب هذه المعركة « بعين أباغ » . ولما توفى الحارث الغسانى ٥٧٠م خلفه فى الحكم إبنه المنذر الذى واصل حرب ملوك الحيرة وانتصر عليهم فى معركة عُرفت « بيوم حليمة » ، وقام المنذر فيها بالاستيلاء على الحيرة وتخريبها واحراقها . ثم وقعت جفوة بين الغساسنة والروم ، لأن الامبراطور البيزنطى « جستين » لم يكن يرتاح لاعتناق الغساسنة المسيحية على المذهب المونوفيزيتى المخالف للمذهب الرسمى للدولة ، وتخوف من أن يقيم الغساسنة دولة مونوفيزيتية فى بلاد الشام كلها . وقام جستين بمحاولة لقتل الملك الغسانى وفشلت هذه المحاولة ، وكان من نتيجتها وقوع الجفاء بينهما مدة ثلاث سنوات . وتوقف الغساسنة عن مساعدة البيزنطيين فى حربهم ضد المناذرة ، الأمر الذى أعطى الفرصة للمناذرة أن يعيثوا الاضطراب والتخريب فى كل سوريا . فاضطر لذلك امبراطور الروم إلى مصالحة الملك الغسانى وكسب وده ، فتم الصلح بينهما على أساس التعاون بينهما ، وكان ذلك عام ٥٨٠م .

وبعد موت الامبراطور جستين فى ذلك العام ، سافر المنذر الغسانى ومعه ولديه إلى القسطنطينية لتقديم العزاء فى الامبراطور الراحل وتقديم التهنئة للامبراطور الجديد . غير أن الامبراطور الجديد ويُدعى « موريس » أمر بالقبض على المنذر ونفاه إلى صقلية حيث أمر باعدامه هناك . وسخط أبناء المنذر على الامبراطور وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم ، وقام إبنه الأكبر « النعمان بن المنذر » بالانتقام لأبيه حيث أمر قواته باجتياح سوريا واشاعة الاضطراب فيها ، غير أن القائد البيزنطى تمكن من القبض على النعمان وأخذه أسيراً إلى القسطنطينية سنة ٥٨٢م ، ثم حوكم هناك وحكم عليه بالنفى إلى صقلية ليلحق بوالده .

وقد تفرقت كلمة الغساسنة بعد أسر النعمان وتقسمت مملكتهم بين خمس عشرة أمير لجأ معظمهم إلى حماية الفرس . ونجح الفرس ، بسبب ذلك ، فى الاستيلاء على بلاد الشام وانتزاعهم بيت المقدس ودمشق ، وقد أنزل الفرس الرعب فى قلوب أهالى الشام وطردوا منها عمال الروم . غير أن الروم نجحوا فى سنة ٦٢٩م من الانتصار على الفرس واسترداد بلاد الشام من أيديهم . وقام « هرقل » ، قيصر الروم ، بتولية مُلك الشام « لجبلة بن الأبهم » أحد أمراء الغساسنة . لكن المُلك لم يدم طويلاً فى يد الغساسنة فقد كان جبلة آخر ملوكهم لأن تاريخ هذه البلاد وتاريخ دولة الروم نفسها شهدت ميلاد عصر جديد ، وشهدت إطلالة الإسلام على هذه البلاد على أثر موجة الفتح الاسلامى لبلاد دولة الروم ومن بينها بلاد الشام . ولمَّا وقعت معركة « اليرموك » فى هذه البلاد وانتصر فيها المسلمون إنتصاراً عظيماً كان ذلك إيذاناً بأفول نجم دولة الروم وزوال سلطانها نهائياً من على بلاد الشام .

ولقد حاول الروم ، من قبل ، أن يمدوا نفوذهم داخل الجزيرة العربية بواسطة نشر المسيحية بها ، ووجدوا فى تحقيق ذلك حليفاً قوياً على البحر الأحمر وهى بلاد الحبشة ، التى كانت عاصمتها آنذاك مدينة أكسوم . وكان ملك الحبشة الذى عُرف باسم « النجاشى » قد اعتنق المسيحية فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى . وكان للأحباش بعض المستعمرات فى جنوب

شبه الجزيرة انتشرت فيها المسيحية فى نفس ذلك الوقت . وقد قام الامبراطور الرومانى « كونتانيتوس » ، الأريوسى المذهب (٣٥١-٣٦١م) ، بارسال مبشر من أصل هندى اسمه « ثيوفيليوس » لنشر المسيحية فى جنوب شبه الجزيرة على المذهب الأريوسى . لكن هذا المبشر فشل تماماً فى فرض مذهبه على الحبشة التى كان نجاشيها يدين على المذهب المونوفيزيتى المخالف للمذهب الأريوسى .

وفى منتصف القرن الخامس الميلادى تقريباً كان جنوب شبه الجزيرة العربية قد توحد تحت حكم دولة حمير التى ورثت ملك السبئيين وكانت عاصمتهم مدينة ريْدان (ظفار) ، ولقد انتشرت المسيحية فى جنوب هذه البلاد . وقد سقطت هذه الدولة على عهد آخر حكامها « يوسف ذو نواس » (٥١٥-٥٣٤م) الذى اعتنق الديانة اليهودية ، وصار شديد التعصب لها ، وقام باحراق أهل نجران النصارى المونوفيزيتيين فى الأخدود ، وعددهم ٤٢٥٢ رجلاً و ١٢٩٧ طفلاً وشاباً تحت سن الخامسة عشرة و ٤٢٧ قسيساً . ولقد أورد القرآن الكريم قصة ذى نواس وأصحاب الأخدود فى سورة البروج بقوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾ .

ولقد شكل الأمير ذو نواس تهديداً سياسياً واقتصادياً للروم بسبب تحكمه فى طريق التجارة العالمية الذى كان مصدراً من أهم مصادر ثروتها . وحين استنجد أهل نجران بامبراطور الروم جستنيان ، كتب الامبراطور إلى نجاشى الحبشة يطلب منه غزو هذه البلاد والثأر للمسيحيين بالقضاء على ذى نواس . وقامت دولة الروم فى حوالى سنة ٥٣٤م بارسال حملة تشترك مع قوات الحبشة لحرب ذى نواس ، وعبرت القوات البحر الأحمر ونجحت فى هزيمة قوات ذى نواس الذى اقتحم البحر بفرسه حين أدرك الهزيمة ومات غرقاً منتحراً .

وكان الجيش الذى أرسله نجاشى الحبشة بقيادة قائد يُسمى « أرياط » ، وهو الذى أحرز النصر على ذى نواس ، وكان يساعده قائد يُعرف باسم « أبرهة » . وبعد الانتصار على ذى نواس وقع الخلاف بين القائدين ونجح أبرهة فى قتل أرياط والخلاص منه والانفراد بحكم اليمن ، وجاءته موافقة النجاشى على ذلك . وكان أبرهة قد جُرح فى المعركة ضد ذى نواس وشجت شفته فصار أشرماً وعُرف من وقتها بأبرهة « الأشرم » . وقام أبرهة بإصلاح سد مارب وأخذ فى تثبيت سلطانه فى بلاد اليمن ، كما فكر فى بناء كنيسة فى صنعاء أسماها « القليس » لصرف الحجاج عن الكعبة إليها . ولما لم يتحقق لأبرهة ما أراد من صرف الحجيج عن الكعبة إلى كنيسته ، قرر غزو مكة وهدم الكعبة ، فقام بحملته الشهيرة على مكة أيام سيادة عبد المطلب جد الرسول عليها والتى أورد سيرتها القرآن الكريم فى سورة الفيل بقوله تعالى : **﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ﴾** .

وخلف أبرهة فى حكم اليمن ولداه « يكسوم » ثم « مسروق » وكان حكمهما جائراً ، فثار عليهما ثائر من أهل البلاد يُدعى « سيف بن ذى يزن » وهو من بقايا ملوك حمير . ولجأ سيف إلى قيصر الروم وطلب منه أن يساعده فى إخراج الأحباش من بلاد اليمن على أن يدين له بالطاعة ، فلم يستجب ملك الروم له بسبب الأخطار التى كانت تتعرض لها دولته وبسبب انشغاله فى محاربة الفرس . وما كان من إبن ذى يزن إلا أن استنجد بالمنذر بن ماء السماء حاكم الحيرة وطلب منه أن يقدمه لملك الفرس « كسرى أنو شروان » ، فلما قابله طلب منه العون وأطمع كسرى فى بلاده وذكر له غنى مواردها . فأرسل معه جيش قليل العدد استطاع سيف بواسطته وبمساعدة أهل البلاد من الانتصار على الأحباش وطردهم من اليمن بعد حكم دام لأكثر من سبعين عاماً . وتملك ابن ذى يزن اليمن وفرض كسرى جزية عليها يؤديها له فى كل عام . وقام سيف بقتل عدد كبير من الأحباش الذين كانوا فى بلاد اليمن وانتهى أمره بأن قتله رجل منهم . فأرسل كسرى جيشاً ثبَّت به حكم الفرس

لليمن ، وظلت هذه البلاد ولاية فارسية يتولى عليها ولاة من قبل فارس حتى كان « بازان » آخر هؤلاء الولاة الذى دخل الاسلام واستجاب للدعوة المحمدية فأقره الرسول على ولاية اليمن ، ودخلت بلاد اليمن منذ ذلك الوقت تحت راية الاسلام .

فى هذه الأثناء كان العرب فى شبه الجزيرة قد نظموا تجارتهم ، وكونوا الثروات الطائلة من وراء هذه التجارة ، وازدهرت مدنهم التى كانت على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب . وكانت مكة من أهم هذه المدن التى ازدهرت لوقوعها فى منتصف الطريق بين جنوب شبه الجزيرة وبلاد الشام الخاضعة لدولة الروم . كذلك إزدهرت مدينة الطائف التى تقع جنوبى مكة ، وكانت مزرعة لمكة تزودها بما تحتاجه من خضر وفاكهة وما تحتاجه القوافل التجارية وقوافل الحجيج الوافدة إليها فى كل عام . كذلك ازدهرت يثرب بما كانت تنتجه من حاصلات زراعية ساهمت بها فى التجارة العالمية . وأخذ المجتمع الرأسمالى فى الظهور فى الجزيرة العربية بسبب المكاسب الهائلة التى حققها المشتغلون فى التجارة العالمية . وقامت الأسواق التجارية الكبرى فى شبه الجزيرة مثل سوق عكاظ الذى كان يجذب إليه رجال القبائل من شتى الأنحاء فيشتعل من خلاله النشاط التجارى والنشاط الثقافى .

ومن الطبيعى ، نتيجة لهذا التغير الاقتصادى ، كان التغير الاجتماعى والأخلاقى فى حياة شبه الجزيرة قبل الاسلام . إذ تطلع الناس للغنى والثروة على حساب المُثل والأخلاق . وازداد تبعاً لذلك الحقد والجشع بين الناس ، وضعفت أواصر القربى بينهم وصارت القرابة للمصلحة والمنفعة المتبادلة . وازداد الأغنياء غنىً وازداد الفقراء فقراً فى مجتمع طغت عليه المادة وساد فيه الفساد .

ونسى الناس فى غمرة ذلك تعاليم ملة سيدنا ابراهيم وقاموا بعبادة الأصنام والأوثان رغم معرفتهم باليهودية والمسيحية . فى نفس الوقت كان مجتمع الجزيرة العربية يعيش دون دولة موحدة ودون قيادة تسوسه ، وكان

الحكم قبلياً تسيّد فيه الأغنياء وكبار التجار ، وتقاتلت القبائل وتصارعت فيما بينها وفقدت البلاد الأمن والسلام الاجتماعى .

وكان الوضع فى الجزيرة سيئاً للغاية فى كل المجالات .. وكان الناس فى حالة جدب روحى ، وكانت الشواهد تنذر بريح التغير ، وكانت الدلائل تشير إلى قرب إشراق شمس وسط دياجير الظلام التى سادت العالم آنذاك .

وكان أن أشرق هذا النور من داخل هذه الجزيرة على العالم من مكة يوم وُلد رسول الله محمد النبى المصطفى ﷺ .

٣- المجتمع المكى قبيل مولد الرسول

تأسست مدينة مكة (بكة) حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى كمدينة تجارية هامة تتحكم فى طريق القوافل العالمى بين الشرق والغرب . وكان العماليق (الهكسوس) أول من سكنها على أثر هجرتهم اليها من بلاد العراق ، ثم خلفتهم عليها قبيلة جرهم الثانية اليمانية بعد أن هاجرت من اليمن وتغلبت عليهم . وفى عهد سيادة جرهم على مكة كانت هجرة نبى الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام من العراق وكان نزوله مع زوجته « سارة » بمصر ، وكانت مصر آنذاك تحت حكم العماليق . ونزح سيدنا ابراهيم من مصر مع زوجته المصرية « هاجر » ، التى أهداها له ملك العماليق إلى الحجاز ، ومعهما طفلهما الرضيع اسماعيل . وكان ذلك تنفيذاً لأمر الله تعالى بتركهما فى صحراء جرداء بوادٍ غير ذى زرع عند موضع بيته الحرام . وقد دعى إبراهيم ربه لأسرته وهو يستودعها عنده بقوله ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرعٍ عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ . واستجاب الله تعالى لدعوة نبيه فأنبع الماء من تحت قدمىْ الطفل الصغير العطش وأمه تهرع ذهاباً وإياباً بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء للطفل الذى كاد العطش أن يقتله . وجاءت قبيلة جرهم فى أثر ماء زمزم لتسكن مع هاجر وطفلها ، وهوت أفئدة الناس اليهم ورزقهم الله من طيب ثماره وقامت الحياة وازدهرت فى تلك البقعة القاحلة من صحراء الحجاز . وحين وصل اسماعيل إلي سن الشباب تزوج من جرهم بعد أن أحرز الرياسة عليهم . ولما مات اسماعيل عادت الإمارة والرياسة فى مكة ثانيةً لجرهم ، ولم ينازع أبناء اسماعيل أخوالهم عليها ، وظلت الرئاسة فى يد جُرهم حوالى قرنين من الزمان إلى عهد آخر رؤسائهم « مُضاض بن عمرو بن الحارث » . وفى عهد رئاسة مُضاض حدث أن نضبت ماء زمزم ، ونجح عرب قبيلة خزاعة الذين هاجروا من اليمن ، بعد وقوع سيل العرم فيها وانهيار سد مأرب ، فى الاستيلاء على مكة ، بقيادة « حارثة »

ابن زعيمهم « عمرو بن لحى » الملقب بخزاعة . وكان مُضاض قد حذر قومه عاقبة الفساد والترف الذى انغمسوا فيه نتيجة الثروة التى حلت عليهم بسبب التجارة ، ولكنهم لم يسمعوا له . فلمّا أيقن كبير جرهم زوال أمر دولتهم فى مكة عمد إلى زمزم فأعمق حفرها ودفن بها ما كان مُدخراً للكعبة مما أُهدى اليها من مال وذهب وأهال عليها الرمال ، على أمل عودة جرهم للسيادة على مكة ثانيةً يوماً من الأيام فيعيد الكشف عنها وتستفيد وتتقوى جرهم بها .
وخرج مع مُضاض بنو اسماعيل من مكة ، ووليت خزاعة أمر مكة والبيت ، وقد تولى رئاستهم يومئذ « عمرو بن لحى الخزاعى » ، الذى يُنسب إليه إدخال عبادة الأصنام إلى بلاد العرب بعد أن استوردها من الشام . واستمرت خزاعة على رياسة مكة حوالى ثلاثة قرون حتى تقوّت عليها قبيلة قريش وانتزعت الرياسة عليها منها عام ٤٤٠ ميلادية ، بقيادة « قصى بن كلاب » ، الجد الخامس لرسول الله عليه الصلاة والسلام . وقد قام قصى باجلاء خزاعة عن مكة إلى وادى فاطمة بالحجاز ، وقام باقطاعها رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم بمكة التى أصبحوا عليها . وكانت قريش تنقسم بدورها إلى قسمين كل قسم له عشائره : « قريش الظواهر » ، وكانت تسكن أطراف مكة ، و« قريش البطائح » ، وهى التى سكنت أسفل الوادى حول بئر زمزم مع من حالفها من القبائل والأحابيش .

وصارت إلى « قصى » الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة . والحجابة هى سدانة الكعبة ، أى تولى مفاتيحها وخدمتها والاشراف عليها والتكفل بحراستها . أما السقاية فكانت تعنى توفير الماء ونبيذ التمر لحجاج بيت الله فى موسم الحج . أما الرفادة ، فكانت مبلغاً من المال تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها ليُصنع منه طعاماً يقدم للحجيج فيأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد . وكان « قصى » أول من فرض ذلك على قريش وقال لهم: « يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم » . فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً

يدفعونه إلى قصى فيصنع منه طعاماً للناس أيام بقائهم فى منى ، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية على قومه حتى قام الاسلام .

أما اللواء فلقد عقد لهم قصى راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا للعدو . وابتنى قصى كذلك داراً أطلق عليها « دار الندوة » يجتمع فيها كبراء أهل مكة (الملأ) تحت إمرته ليتشاوروا فى أمرهم ولحل مشاكلهم وبخاصة وقت وقوع حرب مع عدو .

وقد راجت تجارة مكة آنذاك رواجاً كبيراً وكانت مجمعاً للتجار والحجاج من مختلف بلاد العالم ، وقد تبوأت قريش المكانة والسيادة فى مكة على سائر القبائل ، وكانت علاقتها طيبة مع دولة الروم والحبشة على المستوى العالمى .

وكان لقصى ثلاثة أبناء : عبد الدار وعبد مناف وعبد العُزى ، وكان عبد الدار أكبرهم وكان أحب أبنائه إلى قلبه وأقربهم إليه ، وكان عبد مناف أشرفهم . ولما طعن قصى فى السن وضعف بدنه ولم يعد قادراً على تولى أمور مكة أوصى لعبد الدار بما كان له من وظائف وأن يحل مكانه فيها ليعوضه بذلك ما نقصه من شرف أخيه عبد مناف . ولما توفى قصى عام ٤٨٠م قام عبد الدار من بعده بأمر مكة ، ولم ينازعه فى ذلك أخوه عبد مناف إحتراماً لرغبة والده . واستمر الحال كذلك إلى أن مات عبد الدار وعبد مناف ، فتنازع أبناء العم على الرئاسة وانقسموا فى ذلك إلى فريقين وتفرق بذلك أمر قريش . وصمم بنو عبد مناف : « هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل » أن يأخذوا الرياسة من بنى عمومتهم وأخرجوا جفنة ملأوها طيباً ووضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها وتعاقدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم وعرفوا آنذاك « بالمطيبين » . وقام بنو عبد الدار باخراج جفنة ملأوها دماً ووضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها وعُرفوا « بالأحلاف » و « بلعقة الدم » . وكاد القتال أن يقع بين الطرفين لولا تداعى الناس للصلح فاصطلحوا على أن تقسم الاختصاصات بينهما على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تبقى الحجابة واللواء والندوة لبنى

عبد الدار كما كانت ، ورضى الفريقان بهذا وتحاجز الناس عن الحرب ، وظل الأمر كذلك حتى مجىء الاسلام . وحين فتح الرسول مكة طلب العباس عم الرسول الحجابة لنفسه فأراد النبى أن يعطيه مفتاح الكعبة فنزل قوله تعالى **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾** فرد النبى المفتاح إلى عثمان بن طلحة بن عبد العزى من بنى عبد الدار ، ولا تزال الحجابة باقية فيهم إلى اليوم كما أرادها الله تعالى .

وكان « هاشم بن عبد مناف » ، كبير بنى عبد مناف فتولى أمرهم ولزم السقاية والرفادة حتى وفاته سنة ٤٦٤م . وقد سَنَّ هاشم لقريش رحلتىْ الشتاء والصيف باتجار مكة وخروج تجارها فى رحلة شتوية إلى اليمن والحبشة وأخرى صيفية إلى الشام فى كل عام . وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرحلتين بقوله تعالى : **﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف .. ﴾** .

وقد حاول أمية بن عبد شمس ، ابن أخى هاشم ، أن ينافس عمه فى زعامة مكة وأن يتولى أمر السقاية والرفادة ولكنه لم يستطع ، وحكم عليه القداح أن ينحر خمسين ناقة عند الكعبة وأن يخرج عن مكة إلى الشام مدة عشر سنوات ، فامتثل لأمر القداح وخرج ، وكان ذلك بداية العداء بين بنى أمية وبنى هاشم وبداية التثبيت لبنى أمية فى الشام .

توفى هاشم بأرض الشام فى رحلة من رحلات الصيف التجارية إليها ، فخلفه أخوه المطلب فى مناصبه ، وكانت قريش تسمى المطلب « بالفيض » لسماحته وفضله . وكان هاشم قد تزوج فى يثرب من سيدة من الخزرج ذات شرف ونسب تُدعى « سلمى بنت عمرو الخزرجية » من بنى النجار ، وأنجب منها إبناً أسمته أمه « شيْبه » ، وقد ترك هاشم إبنه مع أمه بيثرب قبل أن يلقى منيته . ولما مات هاشم ذهب المطلب أخوه إلى يثرب ليحضر إبن أخيه إلى مكة . فلما جاء به أطلق الناس عليه اسم عبد المطلب ، وغلب هذا الاسم عليه حتى نسى الناس « شيْبه » إسمه الأصلى .

وقام « عبد المطلب » فى مناصب أبيه هاشم بعد وفاة عمه المطلب « بردمان » ، من أرض اليمن ، سنة ٤٩٥م ، فصارت له السقاية والرفادة . ولقد وقع حب عبد المطلب فى قلب قومه وعظم خطره عندهم وخاصةً حين تصدى لحملة أبرهة الحبشى على مكة ومحاولته هدم الكعبة وفشله فى ذلك .

ولم يكن لعبد المطلب من أولاد إلا ولد واحد اسمه « الحارث » ، ولقد لقى عبد المطلب بسبب ذلك مشقة كبرى فى أمر سقاية الحاج ، ذلك لأن الماء اللازم للسقاية كان يؤتى به من آبار عدة مبعثرة حول مكة وكانت توضع فى أحواض إلى جوار الكعبة . وكان بئر زمزم قد جف وطُم منذ قرون ، وجاء الهاتف فى المنام لعبد المطلب وهو نائم فى الحجر وألح عليه أن يعيد حفر البئر . وتفاءل عبد المطلب خيراً وتمنى أن يعيد حفر البئر الماء إليها فتخف عنه مشقة جلب الماء من أماكن بعيدة متفرقة هو وابنه . وكانت المفاجأة لعبد المطلب أن عثر على الذهب والأموال التى كان مُضاض بن عمرو الجرهمى قد دفنها قبل خروجه وقومه من مكة . ونازعت قريش عبد المطلب فيما حصل عليه وأرادت مشاركته فيه لكن القداح التى إحتكموا إليها حكمت لصالح عبد المطلب ، فتقوّى عبد المطلب بتلك الثروة على أداء ما عليه من واجب السقاية والرفادة . وكان عبد المطلب قد نذر ، حين لقى ما لقى من مشاق إعادة حفر زمزم ، أنه إن أنجب عشر بنين أن ينحر أحدهم عند الكعبة قرباناً للآلهة . ومع الأيام تحقق أمل عبد المطلب وصار له عشرة ذكور وكان عليه الوفاء بنذره . فطلب الأب من كل واحد من أولاده أن يكتب أسمه على قدح ، وأخذ الأقداح وذهب بها إلى صاحب القداح عند الصنم هُبل فى جوف الكعبة . فجاءت القداح على عبد الله أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه وأمه فاطمة بنت عمرو من بنى مخزوم . وصمم عبد المطلب ، والألم يعتصر قلبه ، على أن يفى بنذره . فاعترضت قريش كلها على ذلك ، وكانت تحب عبد الله الشاب الجميل الوسيم البهى الطلعة الدمس الأخلاق . وطلبت قريش من عبد المطلب أن يراجع القداح على أن يرفع ديةً من الإبل ترضى عنها الآلهة . فضربت القداح من جديد على الإبل وعلى عبد الله ، وكانت فى كل مرة تزاد الإبل وتخرج القداح على عبد الله حتى وصل عدد الإبل إلى مائة فخرجت القداح على الإبل ثلاث

مرات . عندئذ فرح عبد المطلب وفرحت قريش كلها لفداء عبد الله ، وقدم الأب الإبل ونحرها عند الكعبة وتركت هنالك أياماً لا يُصد عنها إنسان ولا حيوان .

كان عبد الله يشارك والده فى رحلاته التجارية . وفى سن الرابعة والعشرين ، وأثناء أحد هذه الرحلات تزوج عبد الله ، وهو فى طريقه إلى الشام ، فى المدينة من « آمنة بنت وهب » سيد بنى زهرة من بنى النجار وتزوج الأب من هالة بنت وهيب من نفس القبيلة . وبعد أشهر قليلة من زواجه توفى عبد الله وهو فى سن الخامسة والعشرين وهو عائد من الشام فى تجارة له وقد مر أثناء رجوعه على أخواله من بنى النجار فى يثرب وهناك توفى وترك آمنة بعد أن حملت منه فى محمد فى شهرين . ولم يترك عبد الله لزوجته إلا القليل ، ترك لها جارية هى أم أيمن « بركة » وخمسة من الإبل وعدد قليل من الغنم . وبقيت آمنة مع أهلها فى المدينة تنتظر أن تضع وليدها ثم عادت إلى مكة وهى لا تعلم أنها ستضع خير خلق الله وأكرم رسله محمداً ﷺ خير من أنجبته النساء ، صاحب الرسالة الخاتمة أحب البشر إلينا وأجلهم نعماً علينا .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » وقال عليه السلام : « إنما خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم لم يصبنى من سفاح أهل الجاهلية شىء ، لم أخرج إلا من طهرة » .

٤- مولد الرسول

وُلد الهدى فالكائنات ضياء　　　وفم الزمان تبسم وثناء

وُلد محمد يوم الاثنين الثانى عشرة من شهر ربيع الأول (٢٠ أبريل ٥٧١م وهو عام الفيل) ، بالدار التى فى زقاق « المدكك » بشعب بنى هاشم من الطرف الشرقى لمكة . وكانت قابلته « الشفاء » أم عبد الرحمن بن عوف ، وكانت حاضنته « أم أيمن » أمة أبيه ، وأول من أرضعه « ثويبة » مولاة عمه عبد العُزى بن عبد المطلب (أبو لهب) بلبن إبن لها يُقال له « مسروح » أياماً ، قبل أن تقدم حليمة ، وأرضعت معه عمه حمزة بن عبد المطلب وأبا سلمة بن عبد الأسد ، فكانا أخواه من الرضاعة . وقد فرح جده عبد المطلب بمولد محمد حين بُشر به فحمله ودخل به الكعبة وسماه محمداً . وفى اليوم السابع من مولده ختنه جده وأولم وليمة بتلك المناسبة دعا إليها أعيان قريش . وقد أحب عبد المطلب محمداً حباً شديداً ، وكان يوضع له فراش فى ظل الكعبة كان يُجلس معه عليه محمداً وهو طفل صغير دون سائر أبنائه وأحفاده .

لم يُعرف الكثير عن طفولة محمد ، ولكن من القليل الذى ورد عن هذه الطفولة وتواتر عن حياته ﷺ نقول أن الرسول نشأ فى قبيلة تُعد من أشرف قبائل العرب ، وفى بيت من أفضل بيوت قريش وأمنعها ، نشأ يتيماً فلم يعرف الأب ولم يحظ طويلاً بحنان الأم . وكعادة القرشيين ، كان لمحمد من يرضعه وهو طفل ، وقد اعتادت قريش على أن ترسل أطفالها إلى البادية يرضعونهم هناك حتى يكتسبوا هناك الصحة والعافية بفعل هواء الصحراء الصحى والنقى ، وليتعرفوا أيضاً على اللغة العربية السليمة من عرب البادية وتتعود ألسنتهم منذ أن تبدأ النطق على النطق العربى السليم . ولقد أُلتُمس لمحمد المراضع من البادية فأرضعته إمرأة من بنى سعد بن بكر يُقال لها « حليمة السعدية » بنت أبى ذؤيب ، من قبيلة ، بنى سعد ، وهى فرع من قبيلة هوازن الكبرى . وكانت حليمة قد جاءت إلى مكة ضمن عشرة نسوة من بنى سعد يلتمسن الأطفال الأغنياء ليرضعهن ويتكسبن من وراء رضاعتهن . فأخذت كل واحدة منهن طفلاً إلا حليمة التى لم يبق لها من الأطفال إلا الطفل

اليتيم الأب محمد . وكانت أمه آمنة بنت وهب قد وقفت به منكسرة مع جاريتها . فقالت حليمة لزوجها أبى ذؤيب (الحارث بن عبد العُزى) : « لقد غادرت النسوة ، ولم يبق سوى هذا الطفل اليتيم ولا أريد العودة دون طفل » ، فقال لها زوجها : « خذى هذا الطفل اليتيم عسى الله أن ينفعنا ببركته » ، فأخذته حليمة ، عائدةً به إلى ديارها لترضعه وليعيش مع أبنائها من الحارث : عبد الله وأنيسة وخزامة التى عُرفت بالشيماء والتى تولت حضانة رسول الله مع أمها طيلة مكوثه عندهم .

• وظل رسول الله فى بيت حليمة حتى سن الرابعة حين وقعت قصة شق صدر رسول الله ، كما وردت فى المصادر ، فخافت عليه حليمة وأعادته إلى أمه فلزمها حتى وفاتها وهو فى سن السادسة من عمره وهى لم تتجاوز العشرين ربيعاً . وقد ماتت الأم « بالأبواء » بين مكة والمدينة (شمال شرقى رابغ على مسافة ٤٠ كم منها) ، فى طريق عودتها بعد زيارتها معه لقومها أخواله من بنى النجار ، ماتت من أثر حمى أصابتها . وشاءت إرادة الله أن يذوق محمد مرارة اليتم وهو طفل صغير وأن يُحرم بذلك من حنان الأبوين . لكن الله تعالى عوّضه عن ذلك بأن فتح له أشد القلوب إيصاداً وألان له أشد الأفئدة تحجراً وآواه خير المأوى فكفله جده عبد المطلب ، وكان قد بلغ من العمر آنذاك الثمانين . لكن جده مات بعد ذلك بعامين ، والرسول فى سن الثامنة ، ودُفن بالحجون ، فكفله عمه أبو طالب (عبد مناف) وكان شقيقاً لوالده عبد الله . وكانت رئاسة بنى هاشم قد آلت إلى أبى طالب بعد وفاة عبد المطلب وكان أكبر إخوته . وكان أبو طالب قليل المال كثير العيال ، وقد لحظ محمد ذلك وهو فى سن الصبا فطلب من عمه أن يرعى له غنمه ، فرعاها ، شأنه فى ذلك شأن كل إخوته الأنبياء ، وقد روى عنه ﷺ قوله : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » . وطلب محمد بعد ذلك من عمه أن يخرج معه فى تجارته إلى الشام ، وكان أبو طالب يسافر فى بعض السنوات فى رحلة الإيلاف للتجارة ويشارك فى رحلة الصيف إلى الشام ، فخرج معه فى إحدى هذه المرات وهو فى سن الثانية عشرة . وكانت رحلة الإيلاف تنتهى عند مدينة « بُصرى » من بلاد إقليم حوران بالشام ، التى تقع على أول الطريق التجارى

القادم من الحجاز عند ملتقى خمسة طرق تجارية هامة . وكانت هذه المدينة مركزاً هاماً من مراكز المسيحية فى الشام ، وكانت المقر الرسمى للأسقف اليعقوبى (المونوفيزيتى) الذى كان يفرض سيادته الدينية على دولة الغساسنة هناك . وقد بنيت فى بصرى كنيسة قديمة كانت بها بعض صوامع للرهبان . ويروى « الطبرى » فى تاريخه قصة لقاء محمد براهب نصرانى كان يسكن أحد هذه الصوامع ويُدعى « بحيرى الراهب » . وقد تصادف أن نزل محمد وعمه عند صومعة بحيرى هذا فصنع لهما طعاماً ، ودار حوار بين محمد وبحيرى عرف منه أن بمحمد الأوصاف التى وردت فيما عنده من كتب دينية عن نبى آخر الزمان . وطلب بحيرى من أبى طالب أن يحافظ على إبن أخيه وأن يعود به سريعاً إلى بلده حتى لا يقع فى يد اليهود الذين يعتقدون أن يكون نبى آخر الزمان من بين رجالات بنى إسرائيل . وقد قال بحيرى لأبى طالب فى ختام حديثه معه : « إرجع بابن أخيك إلى بلده وأحذر عليه يهود ، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شراً فإنه كائن لإبن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده » . فعاد العم بإبن أخيه مسرعاً إلى مكة ، وازداد بذلك حب أبى طالب لمحمد عما كان عليه من قبل ، واستمر هذا الحب يزداد ويقوى مع الأيام .

عاش محمد فى صباه مثالاً للشاب النظيف ، وشب وعناية الله تكلأه وتحفظه وتصونه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته وصار أفضل رجال قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأطيبهم جواراً وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً حتى سماه قومه "الصادق الأمين" لما جمع الله فيه من محاسن الخصال ومكارم الأخلاق . نشأ محمد بين قومه فكان صادقاً لم يجرب عليه كذب قط ، وأميناً لم تعرف الخيانة إلى طريقه مطلقاً سبيلاً ، مميزاً عن غيره لا يجهل ذلك أحد ولا يساويه فى ذلك رجل ولا ينكر ذلك عدو ولا يتهمه خصم . ولما بُعث عليه السلام ، وناصبه قومه العداء لم يستطع أحد منهم أن يتهمه فى خلقه أو أن يعيبه فى سلوكه ، ولو عرفوا شيئاً من ذلك ، وقد عاش بينهم أربعين عاماً ، لأراحهم عن التنقيب عن خصلة غير حميدة

يلصقونها به حين يحل الموسم ويلتقى الناس فى الحج حتى يبعدوه عنهم ويسومونه أمامهم ، فعجزوا ولم يتهموه إلا بصفة الساحر الذى فرق بدعوته بين الأب وإبنه والأخ وأخيه والرجل وزوجه ، وعندما أراد البعض أن يصمه بالكذب قالوا جميعاً : « حاشا لله ما جربنا عليه كذباً قط » . لم يشارك محمد شباب مكة فى لهوهم ولعبهم واقبالهم على الحياة ، وكان ذلك أمراً ميسراً لشباب مكة الذى كان يعيش فى مجتمع كثُر فيه الفساد وأُحلت فيه المنكرات والموبقات ، وقد آثر محمد الوحدة والتأمل والخلوة مع نفسه . كانت فطرته تأبى عليه أن يكون مثل أقرانه وكان إعداده الربانى يمنعه من التهافت على الدنيا ، فلقد أعده الله إعداداً خاصاً لتحمل مسئولية أعظم الرسالات وشب وعين الله ترعاه وتحفظه من أدران المجتمع الجاهلى .

ولقد شاهد محمد « حرب الفجار » وشارك فيها مع أعمامه وهو فى سن العشرين ، وكانت هذه الحرب بين قريش وكنانة من جهة وهوازن من قيس عيلان من جهة أخرى ، وكان مسرحها عند منطقة نخلة شمال شرقى مكة ، خارج الحرم ، وقد سميت بالفجار بما إستحل فيها هذان الخصمان المتحاربان من المحارم بينهما . وكان دور محمد فى هذه الحرب هو جمع السهام التى كانت تسقط من هوازن عند قومه ويدفعها إلى أعمامه ليردوها إلى صدور خصومهم . وقد شارك فى هذه الحرب أعمام الرسول : الزبير وأبو طالب وحمزة والعباس ، وقد استمرت مدة أربعة سنين .

وفى شبابه ، شهد رسول الله « حلف الفضول » ، الذى تعاقدت وتعاهدت فيه قريش ، بعد حرب الفجار ، على أن ينصروا المظلوم على الظالم أياً كان جنسه . وقد تم هذا التعاقد فى دار « عبد الله بن جدعان » ، أحد وجهاء قريش . وكان سببه أن رجلاً من بلدة « زبيد » باليمن قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه « العاصى بن وائل » ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، وامتنع عن دفع حقها لليمنى ، فاستعدى عليه اليمنى الأحلاف من بنى عبد الدار ومخزوم وجمح وسهم وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصى وانتهروه . فلما رأى الزبيدى ذلك صعد إلى جبل أبى قبيس ، أعلى جبال مكة ، عند الفجر

وقريش فى أنديتهم عند الكعبة وصاح بأعلى صوته وجهر بظلامته . فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : « ما لهذا مُترك » ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار ابن جدعان فى شهر ذى القعدة الحرام ، وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحداً مع المظلوم على الظالم حتى يُؤدىَ إليه حقه . وسمَّت قريش ذلك الحلف "بحلف الفضول" لدخول أصحابه فى فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاصى بن وائل وانتزعوا منه سلعة الزبيدى وأعادوها له . ولقد فرح رسول الله بحضور هذا الحلف الذى جُمع لغاية نبيلة تتفق مع أخلاقه السامية . وقد قال عنه بعد ذلك : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حُمر النعم ولو دُعى به فى الاسلام لأجبت » .

لمَّا بلغ محمد سن الخامسة والعشرين تزوج من السيدة « خديجة بنت خويلد بن أسد » ، وهى من شريفات قريش من بنى أسد ، ترملت وهى صغيرة السن ومات عنها زوجها أبو هالة « هند بن زرارة » وأنجبت منه ابنها هالة ختن رسول الله . وظلت خديجة عازفة عن الزواج حتى بلغت سن الأربعين ، ففكرت فى الزواج من محمد الذى حُمدت سيرته بين شباب قريش ، والذى اختبرت أمانته وصدقه وطهره حين استأجرته لتجارتها . وكانت خديجة تاجرة ذات شرف ومال يتاجر لها الرجال فى قوافل الشام بشىء تجعله لهم ، فلما بلغها عن محمد صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه وطيب سيرته بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، فوافق وخرج إلى الشام مع غلام لها يُقال له « ميسرة » . ووصل محمد إلى مدينة بُصرى ، التى كان قد سبق أن زارها وهو فى سن الثانية عشرة مع عمه أبى طالب ، وهنالك باع سلعته التى خرج بها واشترى لخديجة ما طلبت منه شراءه من سلع ، ثم عاد مع ميسرة إلى مكة . وقد حدَّث ميسرة سيدته عن الخير والبركة وحسن الصحبة التى لمسها مع محمد أثناء صحبته فى هذه الرحلة . فلمَّا أخبرها ميسرة بذلك ازدادت خديجة تعلقاً بحب هذا الفتى النبيل والشاب الأمين ، فبعثت إليه تعرض عليه نفسها ليتزوج منها ، وكانت تلك عادة الشريفات من نساء مكة أن

يخطبن لأنفسهن من يجدن فيه الشرف لهن . ووافق محمد على الزواج من خديجة ، واستأذن أعمامه فى ذلك وطلب منهم خطبتها له . فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على أهلها فخطبها له من عمها « عمرو بن أسد » وكان هو ولى أمرها بعد وفاة أبيها فى حرب الفجار . فتزوجها رسول الله على صداق قدره عشرين ناقة بكرة ، وبذلك كانت خديجة أول زوجات رسول الله ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت وهى فى سن الخامسة والستين .

وقد أنجب رسول الله من خديجة كل أبنائه ما عدا إبنه « ابراهيم » الذى أنجبه من « ماريا القبطية » . وكان أبناء الرسول من خديجة ولدان وأربعة بنات ؛ أما الولدان فهما « القاسم » ، وقد وُلد قبل البعثة بثلاثة أعوام ، وقد كُنى به رسول الله فعُرف بأبى القاسم ، وقد مات وهو ابن سنتين . أما الابن الثانى فهو « عبد الله » ، وقد لُقب بالطيب والطاهر ، وقد توفى بعد البعثة بعامين وهو أيضاً ابن سنتين . أما البنات فهم : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . وكانت زينب كبرى بنات رسول الله ، تزوجت قبل البعثة من إبن خالتها « أبى العاص بن الربيع » وتوفيت فى العام الثامن للهجرة . ورقية هى الإبنة الثانية ، وُلدت قبل البعثة ، وتزوجت من « عتبة بن أبى لهب » ، ثم طُلقت منه حين بُعث رسول الله لاستمرار عتبة على الكفر ، وتزوجت بعده من ذى النورين ، عثمان بن عفان ، وهاجرت معه إلى الحبشة وتوفيت فى المدينة غداة رجوع رسول الله منتصراً من غزوة بدر (سنة ٢ للهجرة) . وأم كلثوم هى الابنة الثالثة فى الترتيب ، تزوجت قبل البعثة من « عتيبة بن أبى لهب » ، ثم فارقته لعدم إسلامه ، وهاجرت إلى المدينة وتزوجت من عثمان بن عفان بعد وفاة أختها رقية ، وظلت مع عثمان حتى توفت عنده فى العام التاسع للهجرة . أما فاطمة ، فهى صغرى بنات رسول الله ، وُلدت فى العام الخامس قبل البعثة ، وتزوجت من على بن أبى طالب فى العام الثانى للهجرة ، وتوفيت بالمدينة بعد وفاة أبيها بستة شهور فى العام الحادى عشر للهجرة .

ولقد عاش محمد مع زوجه خديجة عيشة زوجية هانئة هادئة ، وفرتها له

الزوجة الصالحة المحبة ، وقام بتربية بناته خير تربية ، وزوجهن من خيرة شباب قريش آنذاك . وهنا لنا أن نتوقف قليلاً فيما يخوض فيه كتاب الغرب والمستشرقون من اتهام رسول الله بالاسراف فى الزواج والحب للنساء ، وهم يستدلون فى ذلك بأنه قد تزوج من تسع زوجات بعد وفاة خديجة . ولنا أن نرد على هؤلاء بقولنا أن الرسول حين تزوج من السيدة خديجة كان فى سن الخامسة والعشرين ، أى فى عز الصبا وريعان الفتوة وكمال البعولة ، تزوج من إمرأة تكبره فى السن بخمس عشرة عاماً ، وعاش معها ثمانية وعشرين عاماً وفارقته وقد تخطى الخمسين ، لم يفكر فى الزواج من غيرها ، وكان ذلك فى مقدوره ، ولكنه لم يفكر فى غيرها وكانت له نعم الزوجة وكان لها خير الأزواج . لم تسجل كتب السيرة أى خلاف وقع بين رسول الله وخديجة أو أى انحراف أو تغير عنها ، ولم تسجل المصادر أى تفكير لمحمد فى الزواج من غير خديجة فى سن كان فى مقدوره الزواج فيه وفى مجتمع تعوّد على تعدد الزوجات . وقد كان لمحمد العذر والمبرر فى أن يتزوج على خديجة وهو معها ، فلم يكن ذلك أمراً معيباً فى مجتمع شبه الجزيرة فى أى يوم من الأيام وحتى الآن ، وخاصةً أن عذره كان فى أن السيدة خديجة لم تنجب له الولد بعد وفاة ولديه القاسم وعبد الله ، والعرب معروفون جميعاً بحبهم لانجاب الذكور وكراهيتهم لإنجاب الاناث وخاصةً أيام الجاهلية . ولم تُغر نساء الجاهلية الكاشفات المتبرجات المتأنقات رسول الله ، وقد كان لجمال منظره وأناقة هندامه ونظافته وكريم أصله ما يُغرى النساء بمشاغلته ومطاردته ولفت نظره إليهن . لكن الله عصم نبيه ، ولم يذكر له معاصروه إلا العفة والاستقامة وطهارة الذيل ، وأنه كان الزوج البار لبيته المحب لزوجته المتفرغ لتربية بناته والمتدبر فى أمر الكون والباحث عن الخالق والمبدع له . فمن غير الطبيعى ، أن نرى محمداً ، بعد أن تخطى الخمسين ، ينقلب إلى رجل مزواج لا يفكر إلا فى شهوته وفى الاستحواذ على أكبر عدد من النساء إرضاءً لرغبته الجنسية كما يدعى جهلاء الغرب الذين استحوذ الجنس على تفكيرهم وطغى على عقولهم . والرسول لم يتزوج بعد خديجة فى أى زيجة من زيجاته من تلقاء نفسه أو استجابة لشهوة أو إرضاءً لجنس ، وإنما كان ينفذ أمراً من أوامر

الله ، وكان هذا الأمر إما لاقرار تشريع أو لزيادة رابطة أواصر أو لإعالة أرملة أصبحت وحيدة في الحياة بعد أن فقدت عائلها . والله تعالى أحل لكل مسلم أربع زوجات له أن يطلقهن أو يغيرهن كيف شاء ، لكن النبى لم يكن له أن يطلق نساءه ولم يكن لهن أن يتزوجن من غيره في حياته أو بعد وفاته . فكان التعدد لحكمة أرادها الله فلما تمت هذه الحكمة قيَّد الله زواج نبيه وأمر ألا يتزوج أحد من نسائه أيضاً لنفس الحكمة التي أرادها الله تعالى . وسوف نرجيء حديثنا عن زوجات رسول الله وظروف زواجه منهن إلى آخر فصول هذا الكتاب .

* * * *

تصدعت الكعبة ، ومحمد في سن الخامسة والثلاثين ، على أثر سيل عارم أصاب مكة آنذاك ، وكانت مكة تتعرض للسيول في أوقات متفاوتة ، وكانت هذه السيول تتفاوت في قوتها وقوة تخريبها . وفي هذا العام كان التخريب قوياً ، وكان لزاماً أن يُعاد بناء البيت من جديد من جراء التصدع الذى شمله . وقد صادف أن رمى البحر آنذاك بسفينة قادمة من مصر في البحر الأحمر ، وكانت مملوكة لتاجر رومى يُدعى « باخوم » ، وكان باخوم هذا يحترف صنعة البناء إلى جانب إحترافه التجارة . فاشترت منه قريش السفينة بما تحمل من خشب ومواد بناء . وكان يسكن مكة رجل من القبط يعرف حرفة النجارة وتصنيع الخشب ، فوافقهم على أن يعمل لهم بمعاونة باخوم له في إعادة بناء الكعبة .

وقامت جميع القبائل من قريش بجمع الأحجار اللازمة للبناء ، ثم أخذوا في البناء ، ورفعوه حتى بلغوا موضع « الحجر الأسود » فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن يكون لها شرف رفعه إلى موضعه . وقد اكتسب هذا الحجر قدسية عند العرب على مر العصور ، والاعتقاد أنه من أحجار الجنة . وكاد القوم أن يقتتلوا وتقع الحرب بينهم لهذا السبب ، فاستعدوا للحرب وتجهزوا للقتال وثارت فيهم حمية الجاهلية . وظل القوم على هذا الحال من التوثب للقتال خمس ليال في حالة إستنفار تام . ثم إجتمع كبراؤهم في الحرم

لحسم هذا الأمر دون قتال ، وتشاوروا فى الأمر ليحقنوا دماءهم . فأشار عليهم « أبو أمية بن المغيرة المخزومى » ، وكان أكبر الموجودين سناً ، أن يضع الحجر فى موضعه أول من يدخل عليهم من باب المسجد ، فتكون إرادة الآلهة إرتضت به فيقوم بوضع هذا الحجر المقدس مكانه ، فاستحسن الجميع رأيه وارتضوا به ، وأخذوا يترقبون أول داخل عليهم وصاحب هذا الشرف الرفيع . وكان محمد أول من دخل عليهم منه ، فلما رأوه فرحوا بمقدمه ورحبوا به وقالوا : « هذا الأمين رضينا به .. هذا محمد » . فلما انتهى اليهم أخبروه الخبر ، فقال لهم ﷺ : « هلمَّ إلىَّ ثوباً » ، فأتى به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوا جميعاً » ، ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده ، ثم بُنى عليه . وحسم محمد بذلك الموقف ومنع بحكمته ورجاحة عقله تقاتل قريش ، ووضعت الحجر مكانه اليد التى أراد الله أن يتشرف الحجر بوضعها له مكانه .

تحدث المؤرخ الشيوعى الفرنسى « ماكسيم رودنسون » فى كتابه الذى ألفه بعنوان « محمد » وتناول فيه سيرة رسول الله بالدرس والتحليل ، تحدث عن مرحلة ما قبل البعثة (الترجمة الانجليزية لكتابه ، ترجمة آن كارتر ، طبعة نيويورك ١٩٧٤ صفحات ٥٣ - ٦٨) ذاكراً الدوافع التى أدت بمحمد إلى التفكير فى مسألة النبوة منكراً ، عن كفر ، حقيقة هذه النبوة ومتخذاً ، عن جهل ، بعض افتراضات غير منطقية ولا مقبولة بنى عليها نتائج زائفة . وهو فى كل ما كتب عن ذلك يريد أن يخضع شخصية الرسول للتحليل النفسى ويطبق عليها نظريات « فرويد » لينتهى فى النهاية إلى أن حياة محمد فى شبابه وفقره وزواجه من خديجة التى تكبره بخمس عشرة عاماً وعدم إنجابه لولد ذكر ، كل ذلك جعله قلقاً فى حياته ناقماً عليها راغباً فى تغييرها . وقد هدته هذه الظروف إلى فكرة إعلان نفسه نبياً لدين جديد ، إدعى رودنسون ، أنه أخذ أصوله عن أحبار اليهود وقسس النصارى . ورودنسون فى كتاباته ينكر الأصل الإلهى لنبوة محمد ، وينكر أن الله كان يجهزه لأمر هذه الرسالة وأنه كان يعده الاعداد الجيد فى جميع مراحل حياته حتى يكون المثل والقدوة

للناس حين يصل إلى مرحلة الإعلان عن هذه الدعوة . وهو قول ليس بغريب على مؤلف شيوعى لا يؤمن بالأديان أصلاً ويعترف على نفسه ، فى مقدمة كتابه ، أنه ملحد ولا يؤمن بوجود الله . فلا أدرى ما الذى دفع بهذا الملحد المنكر لوجود الله أن يكتب كتاباً عن خاتم رسل الله ، وهو منكر أصلاً لوجود الله لولا أنه أراد بكتابه هذا أن يدس سماً من سمومه ضد الاسلام والمسلمين بعرضه لحياة محمد كما يعرض لحياة أى سياسى أو زعيم دنيوى لا لحياة رسول ونبى جاء بأكمل وخاتم رسالة سماوية لبنى الإنسان . وهو الذى قال فيه الله تعالى وقوله الحق : **﴿ وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً ﴾ ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ، ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ ، ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيرا ﴾ .**

وحتى نكشف سطحية فكر رودنسون وغيره من كتاب المشركين وافترائهم على حياة رسول الله ونبين مدى ما تضمره قلوبهم من حقد وكراهية لرسول الله وما تحتويه أنفس هؤلاء الناس من جدب وخواء روحى نعرض فيما يلى بعضاً من أفكار رودنسون فى هذا الخصوص ونترك لكل ذى عقل وفكر منصف أن يحكم على فكر هؤلاء الناس الذين يُطلق للأسف عليهم علماء ومفكرون.

.. يقول رودنسون ما نصه « وعموماً فإن الانطباع الذى ظهر به محمد هو انطباع لرجل عاقل رصين ومتزن . نراه طوال حياته يفكر قبل أن يتخذ القرار ، يصرف أموره العامة والخاصة فى مقدرة وكفاءة ، عارفاً متى يتقدم ومتى ينسحب ، قادراً على اتخاذ القرار الهام الذى ينجح خططه . وكانت قوته الجسدية ، الغير عادية ، كفيلة بتمكينه من أن يظهر كفاءته فى معاركه المختلفة طيلة حياته . وقد كان محمد دبلوماسياً لبقاً ، وقادراً على أن يناقش محدثه بوضوح ومنطق وجلاء . ولكن ، تحت هذا السطح الظاهر ، فقد كان محمد فى داخله عصبى المزاج ، حاد الطبع ، قلقاً ، محموماً ، تتأجج فى

داخله رغبة محمومة نزاعة إلى المستحيل . وهذا الافراط فى الشعور الداخلى يقود الناس من أمثال محمد إلى أزمات نفسية شديدة سريعة التأثير على المزاج » .

ويواصل رودنسون قوله : « .. وكان عند محمد ، كما تقول الروايات ، كل ما يوفر له السعادة ، ومع ذلك فهو لم يكن سعيداً . فالسعادة ، بحدودها النسبية ، من راحة بال وتقبل للأمر الواقع ، والرضاء بما قد قُسم ، لم تتوفر لهؤلاء الذين يتطلعون إلى أبعد مما هم عليه وأكثر مما هو فى أيديهم ، والذين تتطلع روحهم الحيْرى دوماً إلى الوصول إلى الهدف المطلوب . وطفولة كطفولة شخص مثل محمد ، التى عانت الفقر والحرمان واليُتم منذ الصغر ، كانت كفيلة بأن تحتضن تلك الطموحات التى لم تكن لها نهاية ، وكان النجاح وحده فقط هو الذى يُرضى ويُشبع عند صاحبها تلك الطموحات . وإذا تساءلنا عن سر عدم قناعة محمد ورضائه عن حياته ، وعن الأسباب الظاهرة التى يقبلها العقل وتفسر تصرفاته الأخيرة (قبل البعثة) ، فنحن نستطيع أن نتلمس هذه الأسباب فى حياته بعد جهد جهيد ، وقد تبدو هذه الأسباب غريبة كما بدت لنا . فإن أحد الأسباب التى كان لها التأثير الأكبر عليه هى حقيقة أنه لم يكن له وريث من الذكور . وإن مثل هذا الأمر للعرب خصوصاً وللشعوب السامية عموماً أمر مخجل ، وقد كانت العرب تطلق على من لا ينجب ولداً ذكراً لقب « الأبتر » . وقد ورد فى القرآن فى سورة « الكوثر » دفاعاً عن الرسول حين وصفه أحد المشركين (العاصى بن وائل السهمى) بهذا اللقب ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾ . وإن عدم إستطاعة زوجته خديجة أن تنجب له الولد الذكر قد أضاف ، بدون شك ، سبباً إضافياً من أسباب عدم الوفاق مع زوجته التى كانت تكن له كل الحب . وقد رأى محمد كل من كان حوله من أثرياء قريش يستمتعون بأى عدد يشاءون من النساء ، وأنه كان لكل تاجر أو مسافر الحق فى أن يتزوج زواج متعة حيث رحل . وبرغم أن تعدد الزوجات لم يكن شائعاً آنذاك لكن الطلاق كان وارداً وكان كثير الوقوع ، كذلك كان البغاء منتشراً وشراء الجوارى الحسان كان شائعاً . لكن محمداً كان زوجاً لخديجة وزوجاً لها وحدها فقط ، ومن المحتمل أن يكون عقد الزواج بينهما قد جعل

العصمة فى يدها وينص على ألا يتخذ دونها زوجة ثانية . وقد كانت خديجة الغنية فى وضع تستطيع أن تُملى منه شروط زواجها عليه . ولكن محمداً ، كرجل وزوج ، عُرف بصفائه ونقائه ورفقه واعتداله ، وكان مرتبطاً مع أم أبنائه بروابط أقوى مما هو مكتوب بينهما فى عقد الزواج . وقد عرفنا ما كان يعانى منه محمد ، وما كان يتأجج فى داخله من رغبات محمومة لإرضاء نزعاته فى الحياة كبشر ، إلا أنه لم يتوفر له الوقت ، أيام البعثة ، لتحقيق مثل هذه الرغبات ، والأمر الذى لا شك فيه هو أنه قد قاوم هذه الرغبات عدة مرات ودفنها داخل نفسه بصعوبة بالغة . وسواء ظهر هذا الاحساس على شخص محمد ، خافتاً أو حاداً ، فى بعض فترات بعثته فعلينا أن نقدر الثمن الذى دفعه للانتصارات التى حققها فيما بعد ، وعلينا أن نقدر مدى الشعور بالخيبة الذى خلّفه له وراءه » .

هذا هو نص ما أورده رودنسون فى كتابه ، وهو يقوم بتحليل شخصية محمد ، فلا أتصور أن كاتباً مثل رودنسون وُصف بأنه كبير ، وعمل أستاذاً للاسلاميات فى أكبر جامعات أوروبا ، يتناول حياة الرسول هذا التناول ، ويجعل الرغبة الجنسية والحرمان منها هى أساس تصرفات نبى أرسله الله تعالى وأعده إعداداً خاصاً لتبليغ رسالة من أخطر الرسالات ولينقذ هذا الكون من الضلالات التى كان يغرق فيها . وحاشا لله أن تكون فى رسول الله تلك الأسباب التى زعمها الكاتب وادعى بأنها هى التى كانت تحرك شخصه ، فإن محمداً ، بشهادة الكاتب نفسه ، « عُرف بالصفاء والنقاء والرفق والاعتدال » . وإذا كان الله قد حرمه من نعمة الولد ، فلقد أنجب الرسول الولد والولدين لكن الله إختارهما إلى جواره لحكمة من عنده ، وكان ذلك إبتلاءً من الله لرسوله . وإذا كان الله تعالى قد حرم رسول الله الولد فقد عوضه بما هو أكبر من ذلك وهو أن صار أباً لكل المسلمين والموحدين حتى تقوم الساعة ، وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين ، قال تعالى : **﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾** .

ويواصل رودنسون إفتراءاته مُصراً على إدعاء محمد للنبوة ومنكراً إنكاراً تاماً من أنها من عند الله فيقول في آخر هذا الفصل من كتابه الذى يتناول فيه ما قبل البعث بقوله : « .. على الجانب السياسى أزال الروم دولة الغساسنة العربية ، كما أزال الفرس دولة المناذرة اللخميين ، وقد وصل الصراع بين الفرس والروم غايته وأثقل كاهل الطرفين وتسبب في خراب بلادهم ونفاد ثرواتهم .

وكان في الجزيرة العربية آنذاك رجال جوالون أعلنوا أن نهاية العالم قد قاربت ليحثوا المذنبين على العودة إلى الله بعد أن قرب يوم الحساب . ومن بين هؤلاء برز إسمان هما : « خالد بن سنان » ، الذى أُرسل إلى قبيلة « عبس » ، و« حنظلة بن صفوان » . كذلك ظهر رجل يُدعى « مسيلمة » ، من بنى حنيفة في اليمامة ، وكان مسيلمة يدعو إلى إله سماه « الرحمن » وسمى نفسه عبد الرحمن . ولقد إتهم المعارضون لمحمد بأنه أخذ تعاليم ديانته من شخص يُدعى رحمان اليمامة . وتشير بعض المصادر إلى ظهور مسيلمة بدعواه قبل إظهار محمد لدعوته ، وقيل أن مسيلمة عرض على محمد أن يتقاسما الدعوة فيما بينهما » . ويواصل رودنسون قوله بما نصه : « .. كل ذلك كان له التأثير على محمد ، وكان يدرك أنه أصبح على حافة شيء سوف يُعطى معنى لحياته ، ويحقق رغبته في الانتقام من الأغنياء وأصحاب السلطان . وكان محمد على علم بأسس الأفكار الجديدة التى انتشرت في الجزيرة على يد اليهود والنصارى ، وكان معجباً بأفكار « الحنيفيين » الموحدين . ولقد أصاب الفزع محمداً بسبب الشرور التى سادت المجتمع والتردى في الأخلاق الذى استشرى فيه . وبفعل ذكرياته عن أيام الفقر والمعاناة ، استشعر معاناة ضحايا هذا التغيير . كذلك أفزع محمداً الفوران والغليان الذى كان يجتاح العالم آنذاك ، وتساءل عما إذا كانت تلك هي علامة إقتراب البعث والساعة . وعرف محمد أن أنبياءً ورسلاً من قبله قد أُرسلوا لهداية الناس ودفعهم إلى طريق التوبة والخلاص . ولقد أوحى له إعتداده بنفسه وعجبه بها أن يتخذ لنفسه دوراً في مسرحية البعث هذه ، وجعله استعداده الطبيعى جاهزاً لمثل هذا الانقلاب العظيم الذى سيفتح أمامه أبواب السماء » .

لقد أخفق رودنسون وأمثاله فى تحليل الظروف التى بُعث من أجلها وخلالها محمد ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين ، واتخذوا الأسباب المادية سبيلاً لهم لتفسير مسيرة حياة الأنبياء والرسل . ومثل هذا التفسير لا ينطبق على سيرة محمد ، رسول الله لأن الله إصطفاه وطهره من دون خلقه وأعده إعداداً خاصاً لحمل رسالة الاسلام . وإن كل لحظة عاشها محمد قبل الرسالة أو بعدها هى درس وموعظة للناس . ولقد رضى محمد بما قسمه له الله وامتثل لإرادته وصبر لحكم ربه قبل البعثة وبعدها وهو يعلم أن الله حافظه وراعيه ومدخر له خير الجزاء ، وفى ذلك يحقق رسول الله قول الله فيه :

﴿ وأصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح ربك حين تقوم ﴾ .

ولقد أكد الله تعالى إنكار الكفار على طول التاريخ لرسالة رسول الله فقال تعالى :

﴿ ويقول الذين كفروا لست مُرسَلاً قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومَن عندَه علمُ الكتاب ﴾ .

٥ - إشراقة شمس الاسلام

ليس الإسلام بدين جديد ظهر على يد محمد فى آخر الزمان ، بل هو رسالة الله الخالدة التى بعث بها رسله وأنبياءه إلى عباده على الأرض منذ بدء الحياة . وما كان محمد إلا خاتم هؤلاء الأنبياء والرسل الذين دعوا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد خالق هذا الكون وواهب الحياة **﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾** . وما كانت رسالة محمد إلا نفس رسالة إخوته الأنبياء والرسل ، وقد جاءت ناسخة لما قبلها مهيمنة عليها جامعة فى الدعوة إلى الله إلى يوم قيام الساعة والحساب . ولقد ظهر بين العرب وغير العرب على مر القرون أنبياء ورسل بعثهم الله تعالى إلى أقوامهم ليهدوهم إلى الاسلام الذى يرتكز محوره على وحدانية الله تعالى وعدم الشرك به . قال تعالى : **﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ﴾** . وقال كذلك **﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ﴾** .

ولقد كان « هود » عليه السلام أحد هؤلاء الرسل ، ظهر فى قوم « عاد »، الذين كانوا يقيمون فى منطقة الأحقاف (الربع الخالى بالمملكة السعودية) وكانت عامرة ، وكانوا يعبدون الأصنام . فدعاهم هود للاسلام فرفضوا دعوته واستكبروا وتمادوا فى طغيانهم وشركهم فأبادهم الله تعالى بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية زلزلت قواعدهم واستأصلت شأفتهم ، وقد قال الله فيهم : **﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة . أو لم يروا أن الله الذى خلقهم أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا يُنصرون ﴾** .

كذلك دعى نبى الله « صالح » قوم « ثمود » ، وكانوا يسكنون « الحجر » ، وهى مدائن صالح الحالية قرب خليج العقبة ، وكانوا يعبدون الأوثان ، دعاهم

إلى عبادة الله الواحد القهار ، فلم يستجيبوا لدعوته وكانت نهايتهم كنهاية قوم عاد فأنزل الله عليهم صاعقة من السماء أبادتهم عن آخرهم . وقد روى لنا القرآن الكريم روايتهم فى قوله تعالى : **﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾** . وقد صور لنا القرآن الكريم ما أصاب عاد وثمود معاً فى صورة واحدة ، فقال تعالى : **﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ﴾** .

وجاء النبى « شعيب » يدعو شعب « مدين » ، وكانوا بالحجاز إلى الاسلام وعبادة الله الواحد الأحد فرفضوا دعوته فأصابهم ما أصاب عاد وثمود ، وقال الله تعالى فى أهل مدين : **﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وقد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾** وعن نهايتهم قال تعالى : **﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين الذين كذبوا شعيباً ، كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾** .

وقد هلكت جميع هذه الأمم حين لم تتبع الرسل الذين سبقوا محمداً فى هداية الناس إلى الاسلام والذين آمنوا بمحمد قبل أن يُبعث ، وفى ذلك يقول الله تعالى : **﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدقٌ لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾** . كذلك يقول تعالى : **﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾** .

جاءت رسالة محمد فى وقت ساد العالم فيه ظلام الشرك والالحاد ، وتحول الناس فيه عن عبادة الله الأوحد إلى عبادة الأصنام والأفراد والملوك وبعض مظاهر الطبيعة . ولقد حَرّف أحبار اليهود رسالة التوحيد التى نزلت على « موسى » ، وأنبياء بنى اسرائيل ، وأدخلوا الوثنية عليها وصاروا عبيداً للمال . كذلك حرفت رسالة المسيح واختلف المسيحيون فيما بينهم وانقسموا إلى فرق ومذاهب تكفر كل منها الأخرى وتترك المواطن العادى فريسةً لهذا التخبط وذلك الإختلاف المذهبى الخطير .

إبتعد الناس آنذاك عن ضياء الروح وكست قلوبهم غشاوة العمى فتحكمت فيهم المادة ونسوا الله فأنساهم أنفسهم وعاشوا فى جدب روحى ، فلا المسيحية بطقوسها المتعددة وكهنوتها المسلط على رقاب الناس ، ولا الفلسفة اليونانية المعقدة استطاعتا أن يملآن هذا الفراغ . وبات الناس يتطلعون إلى إشراقة نور فجر جديد يضىء الكون ويزيح عنه دياجير الظلام ، وينتظرون حادياً ورباناً منقذاً لسفينة البشرية التى كادت تغوص فى بحور الضلال والشرك والوثنية .

وجاءت هذه الإشراقة من الجزيرة العربية أيضاً ، جاء بها النبى العربى محمد ، جاء برسالة خاتمة من عند ربه ليذكر الناس بما سبقه إليه أقرانه من الأنبياء والمرسلين ، جاء مكملاً ومتمماً لدعوتهم ، جاء مؤكداً وحدة رسالة الله إلى العالم منذ خلق الأرض إلى أن تقوم الساعة ، وقد قال الله تعالى فى ذلك **﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾** . جاء محمد من نسل نبى الله « ابراهيم الخليل » الذى قال الله فيه **﴿ إن ابراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين شاكراً لأنعمه إجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾** . جاء محمد متبعاً ملة جده ابراهيم التى تدعو إلى الاسلام وتوحيد الله الخالق البارىء . وقد أوحى الله بذلك إلى نبيه محمد حين قال تعالى : **﴿ ثم أوحينا إليك أن إتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾** . وقد أورد الله تعالى فى كتابه دعاء

ابراهيم واسماعيل لله أن يكونا مسلمين بقولهما فى كتابه الكريم : **﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾** ، وكان الله تعالى قد أمر ابراهيم بالاسلام فقال له تعالى : **﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾** .

* * * *

مضى العمر بمحمد وهو يحيا حياة صافية طاهرة نظيفة ، فقد حفظه ربه فى شبابه وطهره من مظاهر الدنس وحياة اللهو وجو الفساد الذى كان يعيش فيه شباب الجاهلية من أقرانه ، وقضى أكثر من عشرين عاماً فى التحنث ، وعمل بالتجارة ورعى الغنم وقام بأمر أسرته ورعاها حق الرعاية . وقد بدت على محمد شواهد النبوة منذ صغره ، وأول ما بدىء به رسول الله من النبوة الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤية فى منامه إلا جاءت كفلق الصبح . كذلك حبب الله إليه الخلوة ، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو بنفسه يتفكر ويتدبر ويتأمل فى خلق الله . واعتاد محمد أن يرتقى جبلاً على بعد أميال قليلة شمال شرقى مكة ويخلو بنفسه فى غار بداخله عُرف بغار « حراء » ، ويتحنث فيه فى شهر رمضان من كل عام مدة تتراوح ما بين العشرة أيام والشهر . وكان يتحمل مشاق الصعود إلى هذا الجبل الوعر كى يصل إلى هذا الغار حتى لا يعرف أحد مكانه متزوداً بقليل من الزاد الذى يكفى قوته أيام تحنثه . وكانت نفس محمد تتهيأ للحدث الكبير ، وكانت روحه الحيرى تبحث عن طوق النجاة ، وكان كثير النظر إلى السماء يرتقب نزول شىء عليه لا يعلم ما هو . ولكنه ظل ينظر ويرتقب وكان يؤمن بأن أبواب السماء سوف تفتح له يوماً ما . وفى يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان العام الثالث عشر قبل الهجرة / أول شباط - فبراير (٦١٠م) ، ومحمد قد بلغ من السن تمام الأربعين ، فُتح باب السماء وانشق عن نور عظيم أضاء الكون كله ونزل عليه جبريل الأمين ، نزل عليه الوحى ليتحول محمد من راعى غنم إلى راعى بشر . نزل عليه الملك « جبريل » بكتاب ملفوف

بحرير ديباج ، واستوى عنده فى الوحى وقدم له هذا الكتاب قائلاً : «إقرأ» ، فقال محمد وقد أخذ بما رأى : « ما أنا بقارىء » ، وقد كان محمد أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة وجبريل يعلم ذلك . ويروى رسول الله هذا الموقف العصيب له مع جبريل فيقول عليه السلام : « فضمنى إليه حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ . قال : فضمنى ثانية حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : إقرأ . قلت : ماذا أقرأ ؟ فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : إقرأ . قلت : ماذا أقرأ ؟ ، قال : إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » . قال : « فقرأتها فلمَّا إنتهيت إنصرف عنى ، فكأنما كُتبت فى قلبى كتاباً » . قال : « فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صافٍ قدمه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » ، قال : « فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك فمازلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ثم إنصرف عنى » . تلك كانت رواية الصادق الأمين عن بدء نزول الوحى عليه .

وانصرف رسول الله راجعاً إلى أهله حتى أتى خديجة وفؤاده يرجف من هول ما رأى وما وقع وهو يقول : « زملونى .. زملونى » ، فقالت له خديجة : « يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى دونك » فحدثها رسول الله بما وقع له ، فبدت السعادة على وجهها واستبشرت قائلة له : « أبشر يا أبن العم وأثبت فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر » .

ثم قامت خديجة وانطلقت إلى إبن عمها « ورقة بن نوفل » ، وكان شيخاً كبيراً أصابه العمى ، وكان نصرانياً دارساً للتوراة وللانجيل ، فأخبرته بأمر رسول الله . فقال ورقة : « قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت

صدقتيني يا خديجة فلقد جاءه الناموس الأكبر « التشريع » الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت » . فرجعت خديجة إلى الرسول فأخبرته بقول ورقة ، فخرج رسول الله إلى الكعبة وطاف بها ، فلقيه ورقة هناك فقال له : « يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت » فأخبره ، فقال له ورقة : « والذى نفسي بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتُكذَّبَن ولتؤذيَن ولتُخرجَن ولتقاتلَن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ، يا ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك » . فقال رسول الله : « أو مخرجيَّ هم ؟ » ، قال : « نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت إلا عوديَ ، وإن يدركنى يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً » ، ثم أدنى ورقة رأس محمد منه وقبلَّها ، ثم إنصرف ، وانصرف رسول الله إلى منزله ، ولم يلبث ورقة أن توفى بعد ذلك بأيام .

وأسلمت خديجة على يديَّ رسول الله وآمنت بما نُزل عليه ، وكانت بذلك أول من أسلم وأول من أيده ونصره ووقف إلى جانبه وهوَّن عليه ما لاقاه من الناس فبشرها الله تعالى لذلك ببيت فى الجنة «من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

ثم فتر الوحى عن رسول الله مدة أربعين يوماً حتى شق ذلك عليه فأحزنه ، حتى جاءه جبريل بعدها ورآه على صورته الملائكية جالساً على كرسى بين السماء والأرض فرُعب منه ورجع إلى خديجة وهو يرتعد قائلاً لها : « دثرونى دثرونى » ، فأخذت خديجة بيده وهونت الأمر عليه ودثرته كما أراد ، فأنزل الله عليه قوله فى سورة المدثر : **﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر ﴾** . ثم جاءه جبريل ثانيةً ونزل عليه بسورة « الضحى » ، بشرى له من عند الله وتأكيداً منه تعالى بأنه معه وأنه إصطفاه لرسالته وأنه ما ودعه ولا قلاه ولكنه هداه إليه واجتباه .

وقد دعى محمد الناس ، أول الأمر ، للإسلام سراً ، وقبل دعوته ودخل فى الاسلام بعض الرجال والنساء والشباب ، أغنياء وفقراء ، أحرار وموالى .

من أعيان قريش آمن به من بنى هاشم ، على بن أبى طالب ، وكان وقتها صبياً يبلغ من العمر ثمان سنوات وكان يعيش فى حجر رسول الله ، وأخوه جعفر بن أبى طالب . ومن بنى عبد شمس : عثمان بن عفان ، وخالد بن سعيد بن العاص وأخوه عمرو بن سعيد بن العاص ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة . ومن بنى المطلب : عبيدة بن الحارث ، ومن بنى تيم : أبو بكر (الصديق) بن قحافة ، وطلحة بن عبيد الله . ومن بنى عبد الدار : مصعب إبن عمير . ومن بنى أسد : الزبير بن العوام . ومن بنى عدى : سعيد بن زيد ، ونعيم بن عبد الله . ومن بنى عامر : أبو سبرة بن أبى رهم ، وسليط إبن عمرو ، وأخويه حاطب وحطاب أبناء عمرو . ومن بنى الحارث : أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح . ومن بنى زهرة : عبد الرحمن بن عوف ، وسعد إبن أبى وقاص وأخوه عمير بن أبى وقاص . ومن بنى مخزوم : عياش بن أبى ربيعة ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم . ومن بنى سهم : خنيس بن حذافة . ومن بنى جمح : عثمان بن مظعون ، وقدامة بن مظعون وعبد الله بن مظعون ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، وحاطب بن الحارث .

وأول من أسلم من النساء اثنتى عشرة إمرأة هم : خديجة بنت خويلد ، وأسماء بنت أبى بكر وأختها عائشة بنت أبى بكر ، وأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب ، وأم أيمن بركة زوج زيد بن حارثة وحاضنة الرسول ، وفاطمة بنت الخطاب زوج سعيد بن زيد ، وفاطمة بنت المحلل زوج حاطب بن عمرو ، وفكيهة زوج حطاب بن عمرو ، ورملة بنت أبى عوف زوج المطلب بن أزهر ، وأمينة بنت خلف زوج خالد بن سعيد ، وأسماء بنت سلامة زوج عياش إبن أبى ربيعة ، وسمية زوج ياسر وأم عمار بن ياسر .

وأول من أسلم من الموالى أربع عشرة هم : خباب بن الأرت ، صهيب بن سنان ، عامر بن فهيرة ، عمار بن ياسر ، زيد بن حارثة ، واقد بن عبد الله ، خالد بن البكير ، وأخواه عاقل وإياس أبناء البكير ، عبد الله بن جحش وأخوه عبد بن جحش ، وبلال بن رباح .

وهكذا لم يقتصر دخول الاسلام فى أول دعواه على عامة الناس والفقراء والمستضعفين ، كما يزعم بعض المستشرقين ، بل دخل فيه عدد من أشراف قريش وأبنائهم يزيدون على الثلاثين نفراً ، وهو عدد يصل إلى نصف عدد إجمالى الذين دخلوا فى الاسلام آنذاك ، وهم السابقون الأولون الذين وصل عددهم إلى الستين .

ولقد استمر رسول الله فى دعوى الناس إلى رسالته فى السر حتى يأذن الله له بالجهر بها ، واستمر على هذه الحال مدة ثلاث سنوات من مبعثه . وكان لقاؤه بأتباعه يتم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم فى أعالى مكة ، كما كان يصلى بهم خفيةً فى شعاب مكة خشيةً عليهم من قومهم ، وكان الله تعالى قد فرض الصلاة على رسوله والمسلمين فى السنة الثانية من البعثة ، وقد قام جبريل بتعليمه كيفية الوضوء والصلاة .

وبعد مرور السنوات الثلاثة أمر الله تعالى رسوله أن يصدع بالدعوة وأن يجاهر بها وأن يدعو الناس للاسلام علانية ، ونزل عليه بصدد ذلك قوله تعالى : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ . كذلك أمره الله تعالى أن يبدأ بدعوته عشيرته الأقربين ، فقال تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن إتبعك من المؤمنين وقل إنى أنا النذير المبين** ﴾ ، فجهر محمد بالدعوة وصعد جبل « الصفا » ، بظاهر مكة ودعى إليه بطون قريش بأسمائها ، فاجتمع الناس إليه وهم يتوقعون سماع نبأ خطير ، فقال لهم محمد : « يابنى المطلب ، يابنى فهر ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أتصدقوننى ؟ » . قالوا : « نعم ، فما جربنا عليك كذباً وأنت الصادق الأمين » ، قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال له عمه عبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب) : « تباً لك يا محمد سائر اليوم ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ » ، فانزل الله تعالى فيه قوله : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾ ، وأنصرف القوم مستهزئين مقللين من خطر خبر دعوة محمد . واستمر أتباع النبى يؤدون صلواتهم فى

شعاب مكة ، ووقع بينهم فى إحدى المرات قتال وبين المشركين . ذلك أنه بينما كان « سعد بن أبى وقاص » يصلى مع نفر من أتباع الرسول فى شعب من الشعاب إذ ظهر عليهم نفر من المشركين فأنكروا عليهم صلواتهم وعابوها ، واشتد الجدال بين الطرفين حتى تقاتلا . فضرب سعد يومئذ رجلاً من المشركين بعظم فخذ بعير فشج رأسه ، فكان دمه أول دم أهرق فى الاسلام . وبدأت قريش تشعر بخطر دعوة محمد مع ازدياد عدد الداخلين فيها يوماً بعد يوم ، وكان أول ما يعنيها مصير عباداتها وآلهتها ، ماذا سيقول محمد عنها ، وما هو موقفه منها ؟ ولما رأوا مهاجمة محمد لعبادة الأصنام والأوثان تصدوا له ووقفوا دونه ودون ذلك بكل ما يملكون من قوة . وكان أبو جهل « عمرو بن هشام بن المغيرة » القائد الأكبر لهذا التصدى ، وقد كان من كبار تجار « بنى مخزوم » وصاحب أكبر نفوذ فيهم ، وصار العدو الأول لمحمد وللمسلمين . وكان أبو جهل يقاوم انتشار دعوى الاسلام بكل الطرق فإذا ما سمع بدخول أى شريف من أشراف مكة فيه ذهب إليه وعيّره بنقضه لعبادة آلهة آبائه وأجداده وهدده فى ثروته وتجارته إن كان تاجراً ، وإن كان الداخل فى الاسلام فقيراً معدماً قام بضربه وحرض الناس على ضربه وايذائه .

ولقد عانى الفقراء الداخلون فى الاسلام الكثير من وراء ذلك ، وكان « بلال بن رباح » ، مملوك « أمية بن خلف » ، أبرز الأمثلة لهؤلاء المضطهدين ، فقد قام سيده أمية بطرحه عارياً فى بطحاء مكة وقت قيلولة النهار وأوثقه بالحبال ووضع على صدره صخرة كبيرة ليرده بذلك عن إسلامه . وقد ضرب بلال أكبر المثل فى قوة التحمل والصبر على الأذى فكان لا يجيب سيده إلا بقوله : « أحد .. أحد » . وقام بنو مخزوم باخراج « عمار إبن ياسر » وأبيه وأمه « سمية » ، وكانوا من فقراء القبيلة الذين اعتنقوا الاسلام ، فعذبوهم فى رمضاء مكة وحرقوهم بالنار ، وكان رسول الله يمر عليهم ويقول : « صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة » . وقد مر أبو جهل يوماً بسمية أم عمار ، وهى تعذب مع زوجها وإبنها ، فطعنها بحربة كانت فى يده فى فرجها فقتلها ، وكانت بذلك أول شهيدة فى الاسلام . وقد قام المشركون بضرب عبد الله بن مسعود فى كل مكان من جسده حتى سال الدم منه لجهره

بالقرآن عند المقام لأول مرة . وقد جاء هذا الاضطهاد للمسلمين بنتيجة عكس ما كانت تتوقعه قريش ، فلقد تشبث هؤلاء بدينهم وصاروا أكثر تمسكاً به وضربوا في القدرة على تحمل الأذى المثل النادر وكان محمد إمامهم في ذلك .

وعطف « أبو طالب » ، عم الرسول ، على ابن أخيه وأعلن حمايته له وعدم رده عن دعواه ، رغم عدم دخوله في الاسلام . لذلك لم تفعل قريش بالرسول ما فعلت بالمستضعفين من أتباعه لمكانة عمه وشرفه فيهم . وحاولت قريش أن تقنع العم بأن يعمل على تخلى إبن أخيه عن دعوته ولكنه وقف مع الرسول حين رأى ثباته في دعوته . وقام أبو طالب ، حين رأى صنيع قريش بالمسلمين ، فدعا قومه من بني هاشم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا عمه « أبو لهب » . فلجأ المشركون إلى تعذيب المسلمين وإعلان الحرب ضدهم في كل مكان نكاية في الرسول وعمه وبني هاشم .

وكان وفد من أشراف قريش قد مشى إلى أبي طالب يفاوضه في أمر ابن أخيه ، وكان في هذا الوفد : « عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف » ، وأخوه « شيبة بن ربيعة » ، و« أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس » ، و« أبو البختري » (العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى) ، و« الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزى » ، و« أبو جهل » ، و« الوليد بن المغيرة » ، و« نبيه بن الحجاج بن عامر » ، وأخوه « منبه بن الحجاج » ، و« العاصي بن وائل بن هاشم » .

وقال الوفد للعم : « يا أبا طالب إن إبن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه » .

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه .

وعاودت قريش سعيها مع أبي طالب لاقناع الرسول بوقف دعوته بعد أن رأوا إزدياد قوة الرسول . وتزايد أتباعه في ظل حماية أبي طالب له . فمشوا

إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة (أخى خالد بن الوليد) فقالوا له : « يا أبا طالب هذا أنهد فتى فى قريش وأجملهم فخذه وادفع إلينا هذا الذى خالف دينك ودين آبائك فنقتله فإنما هو رجل برجل » . فغضب أبو طالب ورد عليهم فى عنف قائلاً : « بئسما تسوموننى تعطونى إبنكم أربيه لكم وأعطيكم إبنى تقتلونه والله ما أنصفتمونى وأجمعتم على خذلانى فاصنعوا ما بدا لكم » .

فقال له أشراف مكة : « إما أن تخلى بيننا وبينه فنكفيكه فإنك على مثل ما نحن عليه ، أو إجمع لحربنا فإننا لسنا بتاركى إبن أخيك على هذا حتى نهلكه أو يكف عنا » .

فبعث أبو طالب إلى محمد فجاءه و فقال : « يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك » . فقال رسول الله : « نعم كلمة واحدة تعطونيها تحكمون بها العرب وتدين لكم العجم » . فقال أبو جهل متوسماً خيراً : « نعم وأبيك وعشر كلمات » . فقال : « تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه » . فصفقوا بأيديهم متعجبين لأمره ، ثم قالوا : « أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن أمرك لعجب ! » وقالوا لبعضهم : « إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً تريدونه فأنطلقوا وآمضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه » ، ثم تفرقوا .

وإنفرد أبو طالب بابن أخيه ينصحه وقال له : « يا ابن أخى لقد رأيت القوم وسمعت ما قالوه فابق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى ما لا أطيق أنا ولا أنت فاكفف عن قومك وما يكرهون من قولك » .

فدمعت عينى رسول الله وظن أن عمه تاركه ، فقال متأثراً كلمات رائعة شجاعة خلدها التاريخ : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . فربت العم على كتفه مطيباً لخاطره ومؤكداً له وقوفه معه وقال : « إمض على أمرك فوالله لا أسلمك أبداً » . فأعاد أبو طالب دعوة قومه إلى نصرة محمد فأجابه بنو هاشم وبنو المطلب ما عدا عمه أبو لهب الذى أصر على عدائه لمحمد .

وقد نزل فى المشركين آنذاك قوله تعالى : **﴿ ص والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ﴾** . كما نزل قوله تعالى : **﴿ يا أيها النبى إتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً . وأتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾** .

واستعرت نار الحرب بين رسول الله وبين المشركين وتحولت مكة آنذاك إلى أتون نار مستعر أحرقت قلوب الكافرين وكانت برداً وسلاماً على عباد الله المؤمنين .

٦ - سنوات الصبر والمعاناة

لما رأى رسول الله مايصيب أتباعه من ألوان البلاء والإيذاء ، ورأى عدم مقدرته على منع أتباعه من أذى المشركين أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وقال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لايُظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه » . وكانت قريش تعرف الحبشة وتتجر معها ، وكانت أخبار « نجاشيها » العادل معروفة لهم . فخرج عدد من المسلمين مهاجرين إلى الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت هذه أول هجرة فى الإسلام .

وكان عدد أوائل المهاجرين إلى الحبشة عشرة رجالهم هم : « عثمان بن عفان » ، و« والزبير بن العوام » ، و« أبو حذيفة بن عتبة » ، و « مصعب بن عمير » ، و« عبد الرحمن بن عوف » ، و« أبو سلمة بن عبد الأسد » ، و « عثمان بن مظعون » ، و« عامر بن ربيعة » ، و« أبو حاطب بن عمرو» ، و « سهيل بن بيضاء » ، وقد اصطحب كل من أبى حذيفة وأبى سلمة وعامر بن ربيعة معه زوجته . زوجة أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة - هى سهلة بنت عمرو ، وزوجة أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد هى أم سلمة (هند بنت أبى أمية المخزومى) ، وزوجة عامر بن ربيعة ، هى ليلى بنت أبى حثمه ، كذلك اصطحب عثمان معه زوجته « رقية » بنت رسول الله . وكان أميراً عليهم عثمان بن مظعون . ثم إزداد عدد المهاجرين إلى الحبشة بعد ذلك حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلاً وسبع عشرة إمرأة سوى الصبيان ، وكانوا كلهم من بطون قريش . وكان ممن لحق بالعشرة الأوائل : « جعفر بن أبى طالب » ، ابن عم رسول الله مصطحباً معه زوجته « أسماء بنت عميس » ، و« عمرو بن سعيد إبن العاص » ومعه زوجته فاطمة بنت صفوان وأخوه « خالد بن سعيد » ومعه إمرأته « أمينة بنت خلف الخزاعية » ، و« عبد الله بن جحش » وأخوه « عبيد الله بن جحش » ومعه إمرأته « أم حبيبة بنت أبى سفيان » . وكان عدد المهاجرين جميعاً ثلاثة وثمانين رجلاً غير النساء والاولاد .

وكان خروج المسلمين إلى الحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة

للبعثة ، فأقاموا هنالك شهرى شعبان ورمضان ، وقد رحب بهم النجاشى فى بلاده وأكرمهم وأمنهم على حياتهم . فلماً رأت قريش أصحاب رسول الله من المهاجرين إلى الحبشة قد آمنوا وأستقروا فيها وحظوا برعاية مليكها وأنهم قد أصابوا داراً وقراراً يدينون فيه بالإسلام بحرية ، طاش صوابهم لذلك وجن جنونهم وأصروا على الوقيعة بينهم وبين النجاشى والعمل على إعادتهم إلى مكة ليأخذوهم أسرى ويفعلوا بهم مايشاءون . واتفقت قريش على أن تبعث منهم رجلين إلى النجاشى محملين بالهدايا يطلبان منه أن يطرد المسلمين المهاجرين من دياره بعد أن يقنعاه بخطر مايحملون من اعتقاد على شعبه ومخالفتهم له فى ديانته وديانة آبائهم وأجدادهم ، والتأكيد على معاداتهم ومعاداة رئيسهم محمد للديانة النصرانية والاعتقاد فى بشرية المسيح . فأختاروا لذلك « عبد الله بن أبى ربيعة » و« عمرو بن العاص » وجمعوا لهما هدايا من الجلود للنجاشى ولبطارقة كنيسة الحبشة ثم بعثوهما إليه . فقدما إلى الحبشة عن طريق البحر ، وقدما هدايا قريش لبطارقة الكنيسة ثم للنجاشى حين حظيا بمقابلته ، فتقبلوها منهما ، ثم كلماه فى شأن قومهم والهدف من قدومهم إليه وهو تسليمهم المهاجرين إلى بلادهم من قومهم حتى يحاكموا فى مكة على مايدينون به من اعتقاد يخالف اعتقاد القوم وعبادة الأجداد . فرفض النجاشى طلبهما ، وأرسل إلى المسلمين يطلب منهم محاورتهم فى أمر اعتقادهم الجديد ، وتصدى فى الرد على النجاشى جعفر بن أبى طالب وكان يتقن اللغة الحبشية مدافعاً عن الدين الجديد ومبيناً سبب اعتناقهم له وهربهم من كيد قومهم لهم . ولماً سأل النجاشى جعفرا أن يقرئه شيئاً من القرآن ، قرأ له جعفر صدرا من سورة مريم وشرح له معناها ، فبكى النجاشى والأساقفة حين سمعوا ماتلى عليهم ، ثم قال النجاشى لجعفر : « إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » ، ثم وجه قوله إلى وفد قريش قائلا : « إنطلقا ، فوالله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون » .

وفى اليوم الثانى بذل عمرو بن العاص محاولة أخيرة مع النجاشى لاقناعه بخطر المسلمين على دينه ، فقدم إليه وأخبره بأن المسلمين يزعمون بأن عيسى بن مريم عبد وليس إله . فجمع النجاشى المسلمين ثانية وسألهم

فى أمر عيسى ، فرد عليه جعفر بأنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمة القاها إلى مريم العذراء البتول ، فازداد ترحيب النجاشى بالمسلمين ورد سفراء قريش رداً قبيحاً . وأقام المسلمون المهاجرون فى بلد النجاشى خير مقام ، وتقول الروايات أن النجاشى دخل فى الإسلام ، وأن رسول الله صلّى عليه صلاة الغائب وأستغفر له حين بلغه نبأ وفاته فى السنة التاسعة من البعثة . وقد أقام بعض المهاجرين المسلمين فى الحبشة إلى السنة السابعة للبعثة ، بينما رجع البعض الآخر إلى مكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة ، ورجع جعفر بن أبى طالب مع عدد من المهاجرين يوم فتح خيبر .

* * *

بعد ثلاثة أشهر من هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وفى السنة السادسة للبعثة أعز الله الإسلام بدخول رجلين عظيمين من رجال قريش فيه ، وهما « حمزة بن عبد المطلب » عم رسول الله ، و« عمر بن الخطاب » . وقد أشتهر كل من الرجلين بالقوة والشجاعة والفروسية والغلظة والمهابة والإقدام .

وقد جاء إسلام حمزة حمية وغيرة على ابن أخيه محمد وانصافاً له من أبى جهل العدو الأول لرسول الله . وكان أبو جهل قد مر برسول الله عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض مايكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يجب عليه رسول الله وسمعت ذلك مولاة لعبد الله بن جدعان ، وهى فى مسكنها . وبعد أن إنصرف أبو جهل إلى أهل ناد من قريش عند الكعبة وجلس معهم ، لم يلبث أن أقدم حمزة متوشحاً قوسه راجعا من قنص خرج له ، وكان من عادة حمزة حين يعود من قنصه ألا يعود إلى أهله حتى يطوف بالكعبة . وكان إذا فعل ذلك لم يمر على أهل ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم وكان حمزة من أعز شباب قريش وأشدهم شكيمة وأقواهم شجاعة ، فلما مر حمزة بالمولاة ، بعد أن رجع رسول الله إلى بيته ، أخبرته بما فعل أبو جهل برسول الله ، فغضب حمزة غضباً شديداً وخرج يقصد أبا جهل . فلما دخل حيث كان ، أقبل نحوه ، وكان جالساً فى القوم ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشج رأسه شجة منكرة ، ثم قال :

« أتشتم محمداً وأنا على دينه أقول مايقول ؟ فرد ذلك عليّ إن أستطعت » . فقام رجال من بنى مخزوم ، قبيلة أبى جهل ، إلى حمزة لينصروا رجلهم، فمنعهم أبو جهل لعلمه من قدرة حمزة على النيل منهم وقال : « دعوا أبا عمارة والله قد سببت إبن أخيه سباً قبيحاً » فتم بذلك إسلام حمزة . فلما أسلم عرفت قريش أن رسول الله قد عز وامتنع وأن حمزة مانعه فكفوا عن بعض ماكانوا يكيدون له .

وأسلم عمر بن الخطاب ، فى الوقت الذى عاد فيه وفد قريش من الحبشة مردوداً مخذولاً ، وكان عمر وقتها شاباً فتياً فى السابعة والعشرين من العمر، وكان رجلاً ذا شكيمة ، شريفاً من أشراف قريش . وكان إسلامه فتحاً . وكان المسلمون قد يئسوا من دخوله فى الإسلام حتى أنهم قالوا أنه « لن يسلم حتى يُسلم حمار ابيه الخطاب » .

وكان سبب إسلامه أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ورهطاً من أصحابه ، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم عند الصفا ، وهم قريب من أربعين رجل وإمرأة ممن لم يخرجوا مع الذين خرجوا إلى الحبشة ، وكان فيهم حمزة ، وهو حديث عهد بالإسلام ، وأبو بكر وعلى بن أبى طالب . فلقيه « نعيم بن عبد الله » ، فقال له : « أين تريد ياعمر ؟ »

فقال : « أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرقّ أمر قريش وسفَّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله » .

فقال له نعيم : « والله لقد غرتك نفسك من نفسك ياعمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ؟ » .

قال : « وأى أهل بيتى ؟ » .

قال : « ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما » .

وكانت فاطمة ، أخت عمر ، قد أسلمت وزوجها سعيد وأخفيا إسلامهما عن عمر خوفاً من بطشه وشدة كفره . وكان يختلف إليهما خَبّاب بن الأرَتّ يقرئهما القرآن . فرجع عمر عامداً إلى منزل أخته والشرر يتطاير من عينيه ، فوجد عندهما خباب ومعه صحيفة فيها آيات من سورة طه يقرئهما إياها . فلما سمعوا وقع أقدام عمر إختبأ خباب فى مخدع لهم ، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها . وكان عمر قد سمع قراءة خباب حين دنا إلى البيت . فلما دخل قال :

« ما هذه الهيمنة التى سمعت ؟ » .

قالا له: « ماسمعت شيئا » .

قال : « بلى ، والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه » ، فسكتا لم يجيبا ، فأدرك صدق الخبر ، فضرب سعيداً ، وقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك ، استجمعت فاطمة قوتها إلتى استمدتها من قوة إيمانها غير مبالية لبطش عمر ، وقالت متحدية له : « نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فأصنع مابدالك » .

وهنا تدخلت عناية الله التى أرادت الهداية لعمر ، فلما رأى عمر مابأخته من الدم ندم على مافعل فجلس ساكناً وقد بدى الأسى على وجهه ، ونظر إليها بعيون حانية ، وقال لها بصوت خفيض : « أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ماهذا الذى جاء به محمد » . وكان عمر من قلة القرشيين الذين كان يعرفون القراءة والكتابة آنذاك ، فقالت له أخته : « إنا نخشاك عليها » .

قال : « لاتخافى » وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فاطمة فى إسلامه ، وهى لاتصدق مايقع أمام عينيها ، فقالت له : « ياأخى إنك نجس على شركك وإنه لايمسه إلا المطهرون » فقام عمر فتوضأ كما أشارت إليه ، ولما فرغ من وضوئه أعطته الصحيفة فقرأها ، ولما قرأ قسما كبيرا منها قال: « ماأحسن هذا الكلام وأكرمه » . فلما سمع خباب قوله ، خرج من مخبئه إليه وقال له : « ياعمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد

خصك بدعوة نبيه فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين : عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب فالله الله ياعمر » فقال له عند ذلك عمر : « فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم » فقال له خباب : « هو عند الصفا فى بيت الأرقم » ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى مكان رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب . فلما سمعوا صوته قام رجل من صحابة الرسول فنظر من خلل الباب فرآه ، فرجع إلى رسول الله وهو فزع فقال : « يارسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف » .

فنهض حمزة وقال لرسول الله : « إإذن له يارسول الله فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه » . فأذن له رسول الله ، وأدخل عمر ، ونهض رسول الله حتى لقيه عند مدخل الحجرة فأخذ بمجمع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة وقال له : « ماجاء بك ياابن الخطاب ، فوالله ماأرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة » فقال عمر : « يارسول الله جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله من الحق » . فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمراً قد أسلم ، وقد بلغ عدد المسلمين بإسلامه أربعين رجلاً .

فتفرق أصحاب رسول الله من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر بعد إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله والمسلمين وأنهم سينتصفون بهما من عدوهم . ولما أسلم عمر ذهب إلى بيت أبى جهل ، أشد أعداء رسول الله ، ليخبره بإسلامه ، فضرب عليه بابه ، فلما فتح له قال : « مرحبا وأهلاً بإبن أختى ماجاء بك ؟ » قال عمر : « جئت لأخبرك أنى قد آمنت بمحمد وبرب محمد وصدقت ماجاء به من الحق » ، فضرب أبو جهل الباب فى وجه عمر وقال له : « قبحك الله وقبح ماجئت به » . ولم يخُف عمر إسلامه ولم يستتر ، بل أعلنه على رءوس الملأ ، ولم يرض أن يستمر المسلمون فى إخفاء إسلامهم بصلاتهم فى شعاب مكة ودون الحرم ، فذهب وصلى عند الكعبة متحدياً قريشاً ، وصلى المسلمون هناك معه محتمين بوجوده معهم .

وقد وصل خبر إسلام عمر وعزة الإسلام به إلى المسلمين المهاجرين

بالحبشة ، وسمعوا أن أهل مكة أسلموا وأن قريشاً كفت أذاها عن محمد وعن المسلمين ، فارتأى لذلك البعض أنه لاداعى عندئذ لبقائهم فى الحبشة ، وقد هدأت الأمور فى مكة فقرروا العودة إلى وطنهم ، وعاد منهم ثلاثة وثلاثون رجلا فى شهر شوال من السنة السادسة للبعثة وكانوا قد غادروا مكة فى شهر رجب من العام نفسه . ولكنهم ماكادوا يصلون مكة حتى أنهم أدركوا أن مكة على ماتركوها عليه ولم يتغير بها شىء ، بل إن اضطهاد قريش للمسلمين قدازدادوصار مقرراً عليهم ، فقرروا العودة من حيث جاءوا ، ودخلوا فى جوار عدد من سادة قريش واحتموا بهذا الجوار من أذى المشركين حتى تتاح لهم العودة ثانية إلى الحبشة ، فدخل أبو سلمة فى جوار خاله أبى طالب ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة .

ولاترجع بعض الروايات عودة المهاجرين من الحبشة إلى سماعهم عن إسلام عمر وهداية قريش ، بل يرجعونها إلى قيام ثورة داخلية فى الحبشة ضد مليكها الذى كان يحمى المسلمين ، فخاف المسلمون على أنفسهم من رجال الحكم الجديد المعادى فآثروا العودة إلى بلادهم بعد أن ظنوا أن أمر اضطهاد المسلمين فى مكة قد خف أو تلاشى .

ويحلو لبعض المستشرقين المغرضين والكتاب المضللين ، ربط عودة المهاجرين من الحبشة بالقصة التى عرفت بقصة « الغرانيق » وملخص هذه القصة الكاذبة التى أوردوها هى أن حدثت مصالحة بين الرسول وبين قريش على أن يعترفوا بدينه مقابل أن يعترف بدوره بآلهتهم ، وأن تتم المصالحة على هذا الأساس ، وكلمة « غرانيق » ومفردها « غرنوق » ، كلمة غير شائعة فى العربية وهى تعنى « الحجر الأبيض » والغرانيق هى الحجارة البيضاء ، والمقصود بها فى القصة هنا : أصنام قريش .

والقصة وردت فى الجزء الثانى من كتاب « تاريخ الرسل والملوك » للطبرى ، والحافظ « ابن كثير » فى تفسيره الكبير . ولقد أورد ابن كثير هذه القصة وعلق عليها فى تفسيره للآيات : ٥٢ ، ٥٣، ٥٤ من سورة « الحج » إبتداءً من قوله تعالى : **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى**

إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ﴾ . ويقول ابن كثير : « قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى ارض الحبشة ظناً منهم أن مشركى قريش قد أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها من وجه صحيح والله أعلم » ولقد أراد ابن كثير أن يوضح أن هذه الروايات التى أوردت هذه القصة روايات مرسلة ، بمعنى أن إسنادها ينتهى إلى أحد التابعين إلى أحد الصحابة، وهى عنده بذلك روايات غير صحيحة . وقد أورد ابن كثير عديد من الروايات التى روت هذه القصة واحدة منها تنتهى إلى التابعى « سعيد بن جبير » ، وقد قال : « قرأ رسول الله ﷺ سورة « النجم » ، فلمابلغ هذا الموضع **﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾** . قال : فألقى الشيطان على لسانه : **﴿ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن تُرجى ﴾** قالوا « أى المشركون » : « ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا فأنزل الله هذه الآية : **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾** . وتتمادى الرواية فى كذبها فتقول: « أن قريشاً أعلنت بذلك رضاها عن محمد وأن باعتراف محمد بشفاعة آلهة قريش قد زال وجه الخلاف بينهما ، وأن الأمر قد فشا بين الناس حتى بلغ أرض الحبشة وبسببه عاد المهاجرون المسلمون منها إلى وطنهم مكة » .

والقصة كما هو واضح من سردها مختلقة من أساسها وليست بمعقولة . وقد فند علماء المسلمين هذه الروايات وفضحوا كذبها الواضح ، ماعدا عالم واحد هو الذى صدقها وعلل صدقه لها بعلل من بينها تعدد رواياتها ، هذا العالم هو « ابن حجر العسقلانى » ، وهو من علماء المسلمين ومؤرخيهم الذين عاشوا فى القرن الثامن الهجرى . وقد رد علماء أجلاء على رأى ابن حجر مستندين فى ردهم على عصمة الرسل فى التبليغ عن رب العزة باعتبارها اصلاً من أصول الإسلام ، ويناقشون تلك الروايات موضحين التناقض والتباين فى نص الكلمات الدخيلة فيها وتفاصيلها الأخرى والتنبيه إلى أن كل

هذه الروايات روايات مرسلة مما يدلل على بطلان هذه القصة من أساسها . وقد قال « ابن اسحق » عن هذه القصة أنها من وضع « الزنادقة » . كذلك أبطل « القاضى عياض » حديث الغرانيق هذا من أربعة وجوه عقلية ، بالأضافة إلى مابينه من فساد أسانيده النقلية ، وهذه الوجوه هى : الوجه الأول وهو عصمة النبى ﷺ من هذه الرذيلة فمن المستحيل أن يتمنى النبى أن ينزل عليه مدح الهة غير الله تعالى ، أو أن يتسود عليه الشيطان ويشبهً عليه القرآن ، أو أن يتعمد تغيير كلام الله تعالى أو حتى السهو فيه أثناء نزول الوحى عليه . والوجه الثانى : أن هذه العبارات الدخيلة بعيدة الآلتئام ، متناقضة مع القول الذى جاء قبلها والذى جاء بعدها ، وأن بهذه العبارات اعوجاج وركاكة فى الأسلوب وهو غير مألوف فى كلام الله المحكم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والوجه الثالث : أن هذه الرواية الضعيفة لو كانت قد صحت لوجدت فيها قريش واليهود فرصة لاتعُوض لإقامة الحجة على المسلمين ولكانت سببا لفتنة عظيمة بين المسلمين أنفسهم وهو مالم يحدث ولم يقل به أحد ويواصل القاضى عياض تفنيده لهذه الدعوى الباطلة ، بقوله أن الوجه الرابع هو أن الله سبحانه قد عصم نبيه أن يركن إلى المشركين شيئا قليلاً فكيف يركن لهم شيئاً كثيراً ؟ .

وينتهى إسناد الروايتين اللتين رواهما الطبرى فى تاريخه إحداهما ينتهى اسنادها إلى التابعى « محمد بن كعب بن سليم القرظى » ، والثانية تنتهى إلى نفس التابعى مع تابعى آخر هو « محمد بن قيس » ، والقرظى يهودى الأصل من يهود بنى قريظة ، وكان قد نجى من القتل حين أمر رسول الله بقتل رجال بنى قريظة ، بعد غزوة الأحزاب ، وكان صبيا لم يبلغ الحلم ، ولم يذهب القرظى إلى مكة قبل الهجرة ، بل عاش حياته فى المدينة ، ولم ير تلك الحادثة المزعومة .

ومما يؤكد كذب وتلفيق قصة الغرانيق هذه هو أن الناظر إلى سيرة النبى الكريم يتبين له من خلالها شخصية عظيمة قوية الارادة ثابتة الإيمان لاتستسلم لهزيمة ولاتخضع لقوة إلا قوة الله ومهما كانت قوة خصمه . رأيناه

وهو قوى يتحدى قريشاً بجبروتها بمفرده ورأيناه يستهزئ بقريش وهى تعرض عليه المال والجاه والرئاسة والزعامة والملك . رأينا إيمانه لم يتزحرح قيد أنملة فى أحلك الظروف التى مرت به : وهو فى الطائف حين رده أهلها مهانا مكسور الخاطر ، لم يشكو إلا لمولاه ، ولم يكن خوفه إلا أن يكون ربه غير راضٍ عنه.. رأيناه ، وهو فى أحد ، بعد الهزيمة ، جريح مهزوم ، ولكنه يطلب من واحد من رجاله أن يرد على أبى سفيان حين صاح قائلا : « أعلُ هبل » بقوله « الله أعز وأجل » . وإن صاحب هذه الشخصية العظيمة وصاحب هذه الرسالة السامية ، والرجل الذى اصطفاه الله تعالى من بين جميع خلقه لتبليغ خاتم رسالة من السماء إلى الأرض والنبى الذى صنعه الله على عينه وأراه من آياته الكبرى لايعقل أن يتزحزح شبرا واحدا عن دعواه ورسالته تحت أى ضغط أو اغراء وعن حجر الزاوية الذى ارتكزت عليه رسالته وهو مبدأ التوحيد .

إن الشيطان لايمكن أن يلقى فى حديث النبى ، لأن النبى لاينطق عن الهوى **﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾** ، فالنبى معصوم من قبل الله تعالى فى مراحل الوحى المختلفة : مرحلة الاستلام ، ومرحلة الاحتفاظ به، ومرحلة تبليغه. ورواية الغرانيق تخالف القرآن الكريم وتهدم الإسلام من أساسه وتلغى سبب وجوده، وهو بذلك يكون لونا من العبادات الوثنية ، ولايعقل على الاطلاق أن يتحمل محمد ماتحمل من أذى وتحقير وتسفيه واستخفاف من قومه فيقوم بعد ذلك بارضائهم بعقد زواج بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك والوثنية . وتفسير آية **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾** ، فالمقصود هنا هو أمنية الرسول وليس حديثه كما ذهب البعض ، وليست كذلك فعله أو قراءته كما ذهب البعض الآخر ، إنما أمنية الرسول هى أمله فى إسلام قومه الذين ينتمى اليهم وتمنيه أن يؤمنوا كى ينالوا الخير فى الدنيا والجنة فى الآخرة وهو يعلم أنه الحق ويعلم أن قومه على الباطل ، ولكن الشيطان يحول دون تحقيق هذه الأمنية بزخرفة الشرك والوثنية والباطل

لقومه وابعادهم عن هدى نبى الله وزيادتهم عمى وصلف وغباء . وقد كانت هذه أمنية كل الأنبياء الذين بعثوا قبل محمد ، كما كانت هى أمنية محمد العزيزة ، لكن قوم كل نبى كانوا يقاومونه ويعارضونه ويصدون عن سبيله بحجة المحافظة على تراث الآباء والأجداد . ولكن الله يطارد الباطل وينسخ مايلقيه الشيطان من أمانى ويقوم بتعريته فى محكم آياته .

وقصة الغرانيق ، وضعها حلف الشيطان القديم ليستغلها حلف الشيطان الحديث للصد عن سبيل الله والتشكيك فى دعوة رسالة التوحيد التى جاء بها خاتم الأنبياء وسيد المرسلين . ولايفوتنا فى هذا المقام ونحن نتكلم عن هذه القصة أن نسرد رواية صاحب الآيات الشيطانية لهذه القصة ، وخوضه فيها بطريقة روائية فجة . ويجعل سلمان رشدى أحداث هذه القصة تدور فى مكة المكرمة التى إختار لها اسما تنكرياً هو « جاهلية » ، ويصور فى هذه القصة النبى فى حوار مع « أبى سفيان » ، زعيم المشركين ، يساومه الأخير فيها على أن يخفف من هجومه على الأوثان والأصنام مقابل أن تخفف قريش من اضطهادها له ولأتباعه، فيعده محمد أن يفكر فى الأمر بعرض الصفقة على صحابته .

وتقول الرواية أن صحابة النبى حذروه من الوقوع فى هذا الشرك ، لكن محمداً لم يقتنع برأيهم فيصعد إلى « الغار » وينزل منه بعد فترة ليقول لهم إن جبريل قد أوحى إليه بآيات جديدة سوف يقرأها عليهم ، ثم يقرأ عليهم ، على جمع يضم أتباعه وعبدة الأصنام معاً **﴿ أفرأيتم اللات والعُزى ومناة الثالثة الأخرى وأن شفاعتهن لترجى وأنها لمع الغرانيق العلا ﴾** :فسجد وسجد عبدة الأصنام معه حين سمعوه يمدح آلهتهم . ويواصل الشيطان روايته بقوله : « أن النبى بعد فترة ، وبسبب احتجاج صحابته عليه ، أدرك أن أبا سفيان قد خدعه ، فيذهب إلى « الغار » ويغيب ثم يأتى مرة أخرى ليقول لصحابته أن جبريل قد أمره بحذف تلك العبارات التى تمتدح أصنام قريش ، وإحلال عبارات أخرى محلها ، وهى الآيات المعروفة من سورة النجم » .

ثم ينهى المؤلف المرتد القصة بخروج النبى من مكة عائداً إلى يثرب .

ويترك المؤلف قارىء هذه الملهاة بين احتمالات ثلاثة لا يمكن أن يخرج مقصوده عنها : الأول وهو إما أن جبريل قد تلبس فى صورة شيطان فأملى تلك العبارات على النبى ثم عاد إلى صورته الأصلية فطلب منه أنه يحذفها ، والاحتمال الثانى : أن جبريل قد خالف ما أمره الله به وتلاعب بالوحى الذى يحمله والذى أمُر أن يبلغ النبى به. والثالث : أن النبى لم يوحى إليه بشيء ، وألفَّ الكلام من عنده حين ضعفت نفسه أمام اضطهاد المشركين فاستسلم ومدح آلهتهم، ثم رجع عن موقفه هذا لماَ بين له صحابته الخطأ الذى وقع فيه فعاد لذم آلهتهم ، وكل احتمال من هذه الاحتمالات الثلاثة تدفع مؤلفها إلى الكفر الصريح وتقطع بارتداده عن الإسلام إذا كان قبل ذلك مسلما أصلاً.

ولقد تصدى كتاب الله لهذه المحاولات الهدامة قديما وحديثا وقضى عليها وأفحم أصحابها وألزمهم الحجة فانهارت بذلك حصون الشرك فى القدم ، وهى تنهار فى كل وقت ، وسيستمر انهيارها وسيبقى نور الله الذى يريدون أن يطفئوه بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

وأياً كان أمر قصة الغرانيق التى ثبت بطلانها من أساسها ، فإن لاصلة بينها وبين عودة المسلمين من الحبشة ، وقد هاجر إلى الحبشة فى المرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة إمرأة . وقد استمر هؤلاء هناك بعد أن هدأت الأحوال فى الحبشة وبعد أن لقوا الترحاب من الحكام الجدد فى العيش بينهم،وظل هؤلاء مقيمين هناك حتى علموا بهجرة الرسول إلى المدينة . فرجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمان نساء . وقد مات من هؤلاء العائدين بمكة رجلان وحبُس سبعة منهم ، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلاً . أما الباقون فقد ظلوا فى الحبشة ولم يعودوا إلا عند فتح « خيبر » ، فى السنة الخامسة من الهجرة .

* * *

المقاطعة الاقتصادية :

لماً رأت قريش تزايد عدد المسلمين بعد إسلام عمر وانتشار الإسلام فى القبائل ووقوف بنى هاشم وبنى المطلب مع رسول الله ، برغم عدم دخول الكثيرين منهم فى دعوته ، ولكنهم آزروه حمية وعصبيةً ، اجتمعوا وائتمروا على أن يكتبوا كتابا بينهم يتعاقدون فيه على مقاطعة بنى هاشم والمطلب فلا يزاوجوهم ولايتزوجوا منهم ولايبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئا ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً ، ولاتأخذهم بهم رأفة ولا رحمة حتى يسلموا إليهم محمداً يقتلونه . وكان ذلك الإجراء أشبه مايعرف الآن بين الدول بالمقاطعة الاقتصادية والحرب الاقتصادية وكتبت قريش بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة توكيدا على انفسهم ، وقد جاء نص الصحيفة كما يلى : (باسمك اللهم » على بنى هاشم وبنى المطلب على أن لاينكحوا إليهم ولاينكحوهم ولايبيعوهم شيئا ولايبتاعوا منهم ولايعاملوهم حتى يدفعوا اليهم محمدا ليقتلوه) . ويقال ان كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر . ويقال أيضاً انه النضر بن الحارث بن أبى كلده الطبيب ، وهو من أكثر الناس عداءاً لرسول الله وحقدا عليه . وقد دعت قريش حلفاءها من كنانة « الأحابيش » ليشتركوا معهم فى نفس العقد ، فتعاقدوا معهم على ماجاء فيه .

ولماً فعلت قريش ذلك انقسم بنو عبد مناف ، قوم محمد ، إلى قسمين : القسم الأول وقدضم بنى هاشم وبنى المطلب ، مسلمهم وكافرهم ، إنحازوا إلى أبى طالب ودخلوا معه فى شعبه واجتمعوا إليه ، وخرج من بنى هاشم إلى قريش عمه عبد العزى بن عبدالمطلب « أبو لهب » فظاهرهم. والقسم الثانى من بنى عبد مناف وهم بنو نوفل وبنو عبد شمس فقد إنحازوا إلى قريش . واستمرت مقاطعة الصحيفة لأكثر من عامين جهد فيها بنو هاشم وبنو المطلب وزلزلوا زلزالاً شديداً . وقطعت عنهم قريش الطعام والماء حتى اشتد بهم الجوع والعطش ، وكان لايصلهم من الزاد الا القليل فى السر من بعض المتعاطفين معهم. وقد أحكمت قريش عيونها حولهم حتى تضمن نجاح سلاح التجويع الذى اشهرته فى وجه أهل الرسول وعائلته ، وقد صبر الرسول على هذا الابتلاء وصبر أهله وعشيرته .

وبعد مرور ثلاث سنوات على بداية هذه المقاطعة ضد بنى هاشم والمطلب ، مال بعض رجال قريش إلى نقض الصحيفة وفك هذا الحصار الجائر . وبدأت فكرة النقض من « هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث » وأخواله بنو المطلب ، وكان ذا شرف فى قومه وكان من الواصلين لبنى هاشم فكان يأتى بالبعير وقد أوقره طعاماً ويأتى به فم شعب بنى هاشم والمطلب ويخلع خطامه من رأسه ويضرب على جنبه فيدخل البعير الشعب عليهم وينالوا من الخير الذى يحمله .

ومشى هاشم يوماً إلى « زهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى » ، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال له : « يازهير أقد رضيت أن تاكل الطعام وتلبث الثياب ، وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لايباعون ولايتباع منهم ولاينكحون ولاينكح إليهم ؟ أما إنى أحلف بالله أن لو كان أخوال أبى الحكم إبن هشام ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه منهم ماأجابك إليه أبداً »

قال زهير : « ويحك ياهشام فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى انقضها » .

قال هاشم : « قد وجدت رجلاً »

قال زهير: « فمن هو ؟ »

قال هاشم : « أنا »

قال زهير : « أبغنا رجلاً ثالثا » .

فذهب هاشم إلى « المطعم بن عدى » وضمه إلى صفه، ثم ذهب إلى « أبى البخترى العاص بن هشام الأسدى » وضمه إليهم ، ثم ذهب إلى « زمعه بن الأسود بن المطلب الأسدي» وضمه إليهم . فذهب الخمسة إلى الحجون ، وهو موضع بأعلى مكة ، ليلا واجتمعوا هناك فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على نقض الصحيفة ، وأخبرهم زهير بأنه سيكون البادىء بالكلام ، فلما أصبحوا ذهبوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبى أمية عليه حلة ثمينة فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال : « ياأهل مكة أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لايباع ولايبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى

تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. » فنهض أبو جهل غاضباً ، وكان جالساً فى ناحية المسجد وقال : « كذبت ، والله لاتشق » . فتصدى له زمعة وقال : « أنت والله أكذب ، مارضينا كتابتها حيث كتبت » فأيد أبو البخترى قوله قائلا : « صدق زمعة لانرضى بما كتب فيها ولا نقربه » . وأيدهما المطعم بن عدى بقوله : « صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها » ، وقال هشام بن عمرو كلاماً نحواً من ذلك . ففوجيء أبو جهل باتفاق القوم فى الرأى ، فقال « هذا أمر قضى بليل تشوور فيه بغير هذا المكان » . حدث ذلك وأبو طالب جالس فى ناحيته من المجلس دون أن يتكلم ، وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها ، وفوجيء الجميع بأن حشرة الأرضة قد أكلتها كلها ولم تبق إلا القطعة المكتوب عليها « باسمك اللهم » فإنها لم تاكله ، وكان ذلك ماأخبر به رسول الله عمه ابا طالب قبل الاقدام على تمزيق الصحيفة . وكانت هزيمة كبرى لأبى جهل وحلفه ، وخرج بنو هاشم والمطلب من شعبهم وخالطوا الناس ، وفك بذلك ذلك الحصار الاقتصادى والاجتماعى الذى فرضته قريش على بنى هاشم والمطلب . وقد وقع ذلك الأمر بعد عشرة أعوام من البعثة .

واستمر رسول الله فى دعوته للناس بالدخول فى الإسلام، مستندا فى دعواه على رعاية الله له وحماية قبيلة وعشيرته ، وعطف ومساندة عمه أبى طالب . ولم يدخر أبو طالب وسعاً للوقوف إلى جانب ابن أخيه وتأييد دعوته باذلا فى ذلك نفسه وماله وعياله . ولكن رغم هذا العون للنبى من جانب ابى طالب ووثوقه من صدق دعوته إلا أنه لم يدخل الإسلام واعتذر عن ذلك بخوفه من مسبة آبائه لو هو ترك دين أجداده . وقد حاول الرسول إغرائه بالدخول فى الإسلام حبا له لكنه لم يهتد للإسلام ومات على الكفر .

مات ابو طالب ، بعد نقض الصحيفة بستة أشهر ، فى منتصف شوال من السنة العاشرة من البعثة ، وهو يومئذ ابن بضع وثمانين سنة . ولما مات أراد الرسول الاستغفار له فنزل عليه فى ذلك قوله تعالى : **﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾** ، وبعد موت أبى طالب بشهر

وخمسة أيام ماتت خديجة زوج رسول الله ، وقد كانت له الزوجة والأم والصاحبة والأخت والحب والحنان .لقد دام زواجهما خمساً وعشرين سنة كانت خلالها مثال الزوجة المؤمنة الصالحة المخلصة المحبة المجاهدة . فحزن رسول الله عليها أشد الحزن كما حزن قبل وفاتها على وفاة عمه ، وبسبب فراق أحب الناس إليه عمه وزوجه سمى هذا العام ، العام العاشر من البعثة ، عام الحزن .

وكان موت أبى طالب إبتلاءً كبيراً لمحمد وأتباعه ، لأن رئاسة بنى هاشم صارت من بعده لعدوه عمه أبى لهب ، بعد أن كانت لناصره ومؤيده أبى طالب ، ومنذ ذلك الحين سارت الأمور من سيء إلى أسوأ مع رسول الله ، فازداد أذى أعداءه له ولأتباعه بعد أن فقد حماية عمه ، وتجرأوا عليه وكاشفوه بالأذى وصمموا على قتله فمنعهم الله من ذلك وتكفل سبحانه بحمايته .

وكانت العصبية للعادات والتقاليد سبباً فى محاربة المكيين لمحمد ولرسالته ، وكانت حائلاً بين الناس وبين اتباع هذا الدين الجديد ، وحتى بنو هاشم ، قوم النبى ، فبالرغم من وقوفهم إلى جانب النبى يحمونه ، بدافع عصبية العشيرة فإن عصبية التقاليد غلبتهم على أنفسهم فلم يؤمنوا جميعهم ولم يقبلوا على الدين الجديد . ثم إن التنظيم السياسى فى مكة وقف فى وجه انتشار رسالة الاسلام والإيمان بها ، ذلك لأن مكة ارتضت نوعا من التنظيم ألغت فيه الرياسة العامة، وكان يحكم مكة مجلس الرياسة في قريش الذى عرف « بالملأ » وهو يتكون من رؤساء العشائر والبطون . وقد كان رؤساء الملأ حريصين على ألا يسودهم أحدهم ويرون التكافؤ فيما بينهم فإذا ظهر بينهم نبى فقد تكون الزعامة والسيادة له ويرون أنفسهم مضطرين للخضوع له وتابعين لسيادته المطلقة ، وتبعاً لذلك تكون السيادة لعشيرته على بطون قريش وعشائرها . من أجل ذلك عارض رؤساء الملأ محمداً وعارضت بطونهم القرشية رسالته ونبوته حتى لاتكون له ولبنى هاشم السيادة عليهم برغم معرفتهم بصدق رسالته وصحة ديانته .

وكانت خصومة قريش أشد لهذا النبى الذى جاء يهاجم معتقداتهم ويلغى

آلهتهم ويحطم أصنامهم ، وهو بذلك يهدم مكانة قريش بين القبائل العربية وكانت قريش قد اكتسبت زعامتها الروحية على العرب بسبب هذه الأصنام التى وضعوها حول الكعبة ويأتى الناس للحج اليها والتبرك بها . وبفقدان السيادة الروحية رأت قريش أنها ستفقد ، تبعا لذلك ، المركز التجارى المرموق الذى حققته استنادا على مجيء القبائل إلى البيت الحرام للحج وللتجارة من أقصى الأماكن والبقاع .

وكان على قريش أن تسلك شتى الطرق لوقف دعوة محمد ، التى لم تكن فى نظرهم مجرد رسالة دينية بل وجدوا فى انتشارها خطرا تاما على وجودهم فتصدوا لحرب محمد واتباعه ، وتدرجوا فى هذه الحرب من الاستنكار والاستهزاء والتحقير والاهمال إلى التهديد والوعيد ثم العنف والشدة التى وصلت إلى حد قتل محمد وقتل من يتبع دعوته . ولقد استمرت قريش على مقاومتها هذه طوال العشر سنوات التى مضت من عمر البعثة وازدادت هذه المقاومة ضراوة بعد أن رأت قريش محمداً واتباعه بلا حماية بعد أن مات أبوطالب وقد نسى هؤلاء الجهلاء من أن الله الذى أرسله بهذه الرسالة هو ناصره وحاميه وأنه فى عنايته وحفظه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ .

* * *

أعلنت قريش الحرب على محمد ومن تبعه من المسلمين ، وأشتدت عداوة القرشيين لرسول الله فأغروا به سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ورسول الله صابر عليهم مظهراً لأمر ربه لايستخفى به مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وحرب كفرهم .

واجتمع إلى « الوليد بن المغيرة » نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم وسيادة ، وقد حضر الموسم فقال لهم : « يامعشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه

بعضاً » .

قالوا : « فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به » .

قال : « بل أنتم فقولوا وأسمع » .

قال قائل منهم : « نقول كاهن » .

قال : « لا والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما يقوله محمد ، ماهو بزمزمة الكاهن ولا سجعه » .

قال آخر : « نقول مجنون » .

قال : « ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو يخنقه ولا تخالجه وسوسته » .

قال ثالث : « نقول شاعر » .

قال : « ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما قوله بالشعر » .

قال رابع : « نقول ساحر »

قال : « ماهو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما له بنفثهم ولا عقدهم » .

قالوا : « فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ » .

قال : « والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لغدق (الماء الكثير) وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته » . فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد ، إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره. فنزل في الوليد بن المغيرة قوله تعالى : ﴿ **سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قُتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر** ﴾ . وكان الوليد متكبراً معجباً بنفسه ، واستنكر أن ينزل

الوحى على محمد ولاينزل عليه أو على أبى مسعود عمرو بن عمير الثقفى ، سيد ثقيف ، وهو يرى أنهما « عظيمى القريتين » : مكة والطائف .

ولقد تفننت قريش فى ألوان الأذى لرسول الله ، فكانوا يحرضون سفهاءهم على حثوْ التراب فى وجه رسول الله ورأسه وهو قائم يصلى عند الكعبة ، وإلقاء مخلفات الحيوانات المذبوحة عليه وهو ساجد فى صلاته وطرحهم الفرث والدم والشوك على عتبة بابه . وكانوا يسمونه « مذمما » بدلاً من محمداً ويسبونه . وقد قال رسول الله فى ذلك : « مانالت قريش منى شيئا أكرهه حتى مات ابو طالب » . وقد نزل قوله تعالى فى وعيد الذين يؤذون رسول الله بالعذاب الشديد حيث قال : ﴿ **ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزى العظيم** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهينا والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ماكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا** ﴾ .

ولقد ازدادت عداوة قريش لرسول الله مع الأيام لا لشيء إلا لأنه أراد لهم الهداية وأراد أن يخرجهم من دائرة الضلالة والعمى إلى دائرة النور والهدى . ولقد شارك هؤلاء الأعداء من الإنس إخوانهم الأعداء من الجن والشياطين فى حرب رسول الله، وقد قال الله تعالى فيهم : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون** ﴾ . عجباً لهؤلاء الحمقى الذين ينضمون لحزب الشيطان ويخلصون لإبليس وهم يعلمون أنه يقودهم فى طريق الضلال ويسير بهم ليخلدوا فى النار ومع ذلك يخلصون له أشد الأخلاص ويتمادون فى

غيهم وعداوتهم لرسول الله . لقد ختم الشيطان على قلوبهم وعمت بصائرهم فساروا إلى حتفهم بارادتهم وجهلهم وضلالهم وكان مصيرهم إلى جهنم وبئس المصير .

وكان « أبو لهب » ، عم الرسول ، أشد الناس عداوة للرسول وأشدهم كراهية له ، وكانت زوجته « أم جميل بنت حرب بن أمية » تحمل الشوك وتطرحه في طريق رسول الله حيث يذهب للصلاة ، وقد سماها الله تعالى « بحمالة الحطب » وعدها وزوجها بالخلود في النار بقوله تعالى : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وماكسب سيصلى نار ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد** ﴾ . وقيل أن أم جميل حين سمعت مانزل فيها وزوجها من قرآن أتت رسول الله عند الكعبة ، وكان جالسا مع أبى بكر ، وفى يدها أحجار تملأ كفها ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله فلم تر إلا أبا بكر ، فقالت له « يا أبا بكر أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهرفاه » . ثم انصرفت . فقال أبو بكر « يارسول الله أما تراها رأتك ؟ » ، فقال له رسول الله : « ماراتنى لقد أخذ الله بصرها عنى » .

كذلك كان « أُبَيّ بن خلف بن وهب » من أشد المؤذين لرسول الله ، وكان إذا رأى الرسول همزه ولمزه، فنزل قول الله فيه : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾ ، كما نزل فيه قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولدا** ﴾ ، وكان « ابو جهل » بالطبع العدو الأول لمحمد وللمسلمين ، وكان أشد الناس ايذاءً لهم وتحريضا عليهم ، وقد وعده الله تعالى ، باطعامه فى النار من شجرة الزقوم .

كذلك كان عقبةبن أبى معيط من أكثر الناس إيذاءً للرسول ، وقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً** ﴾ . وأيضاً كان من أشد أعداء الرسول : « العاصى بن وائل السهمى » و« النضر بن الحارث » ، و« عبد الله بن الزبعرى » ، و « الأخنس بن شريق » ، و« الأسود بن المطلب » وغيرهم .

ولقد تعجب المشركون أن يختار الله لرسالته رجلاً فقيراً ، ولايختار لهذا

الأمر الخطير رجلاً غنياً له السطوة والرهبة بين رجال قريش ، وكانوا يعتقدون أن الله لو إختار نبيا ورسولا له بالفعل ، كما يدعى محمد فى نظرهم ، أن يختار رجلاً غنياً من علية القوم مثل : الوليد بن المغيرة فى مكة أو عمرو بن عمير الثقفى فى الطائف ورجل قبيلة ثقيف الكبرى ، وقد رد القرآن على تفكيرهم العقيم بقوله تعالى : ﴿ **وقالوا لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ .

وبعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود يثرب وقالوا لهما : « سلاهم عن محمد وصفا لهما صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء » ، فخرجا حتى قدما يثرب ، فسألا أحبار اليهود هناك عن رسول الله ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : « إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا » فقال لهما أحبار اليهود : « سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ماهى ؟ » فجاءوا إلى رسول الله وسألوه هذه الأسئلة ، فمكث رسول الله خمس عشرة ليلة ينتظر نزول الوحى ليخبره بهذه الأمور ، حتى أرجف أهل مكة لما تاخر محمد عليهم في الرد ، وقالوا : « انقطع الوحى عنه » ، وشق عليه مايتكلم به أهل مكة حتى جاءه جبريل بسورة الكهف ، وفيها جواب أسئلتهم ﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى** ... ﴾ . ﴿ **ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا** .. ﴾ أما عن الروح فقد أجابهم الرسول على لسان ربه بقوله ﴿ **يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليل** ﴾ .

وكان رسول الله إذا جلس في المسجد عند الكعبة وجلس إليه المستضعفون من أصحابه من أمثال : خباب بن الأرت وعمار بن ياسر وصهيب الرومي وأشباههم من فقراء المسلمين تهزأ بهم قريش وتقول : « هؤلاء أصحاب محمد كما ترون ، أهؤلاء مَّن الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا » . فأنزل الله تعالى بصدد ذلك قوله فيهم : **﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَّن الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾** .

وكان العاصي بن وائل السهمي يعاير رسول الله بعدم إنجاب الولد الذكر ولذلك كان يصفه « بالأبتر » أي المقطوع النسل ، وكان يقول عن محمد : «دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له لومات لانقطع ذكره واسترحتم منه ، فرد عليه تعالى بأن جعل صفة الأبتر له بقوله : **﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾** .

وكان زعماء قريش يهزأون بالرسول ويتهكمون وكانوا يسألونه إذا كان إلهه قد أعطاه كنزاً أو نزّل معه ملكاً من السماء يؤيد دعواه، فرد عليهم الله بقوله : **﴿ وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز وتكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾** ، وقوله تعالى : **﴿ أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز وجاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾** ، وقوله تعالى : **﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لاينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم مايلبسون ﴾** .

وزادت قريش من سخريتها وتهكمها بدعوة محمد فطلبت منه أن يُظهر لهم معجزاته إن كان نبياً حقاً مثلما فعل موسى وعيسى ، كما طلبوا منه أن يحيل الصفا والمروة ذهباً لتغتني بها مدينتهم مكة ، كذلك طلبوا منه أن يسير الجبال لتغادر مكة وتتسع مدينتهم تبعاً لذلك . وزيادة في التعجيز طلبوا منه أن يحيي الموتى وأن يعيد الحياة لأجدادهم ، وأن يفجر لهم المياه من ينابيع تسد

حاجتهم إليها ، كذلك طلب التجار منه أن يسأل ربه عن أثمان السلع فيوحى إليه بها حتى يضاربوا بها غيرهم من التجار . وقد عرض القرآن الكريم تلك العروض الساخرة فى قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه** ﴾ . فكان رد رسول الله عليهم بقوله : ﴿ **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً** ﴾ . وقوله : ﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعاً ولاضراً إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ .

لقد أراد الله تعالى لرسالة نبيه أن تنتصر بالحجة واستخدام العقل والبرهان والمنطق ،لأن رسالته هى دين الفطرة التى فطر الله عباده عليها . لم يأتهم محمد بفلسفة ولا بشعوذة ولا بطلاسم ولكنه جاء يدعوهم إلى الحق ويبعدهم عن طريق الغواية والضلال ، جاء يدعوهم إلى عبادة الإله الأوحد خالق هذا الكون ومقدر الحياة والموت . وما كان أيسر على الله تعالى الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون أن ينصر نبيه وأن يزوده بمعجزاته ، لكن الله تعالى أراد أن يستخدم الرسول بشريته وإيمانه بربه وصدق هذا الأيمان دون أن تكون له معجزات مادية خارقة كما كان الأمر مع من سبقه من الأنبياء والرسل . لقد اكتفى الله تعالى مع نبيه محمد بمعجزة وحيدة كبرى هى معجزة القرآن الكريم ، كلام الله المنزل من السماء والذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو قول تحدى الرسول به قومه فى بلاغته وفصاحته وقوة حجته وتمام اعجازه وكمال بيانه . وإذا كان المشركون لايؤمنون بهذا القرآن فلاحجة لنا عليهم بعد ذلك ، بعد أن تجردوا من آدميتهم وألغوا عقولهم وصاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً . لقد قال منكرو القرآن أنه ليس بكلام الله لأنهم لايؤمنون أصلاً ولايصدقون فى وجود الله ونسبوا هذا الكلام لصنع البشر ، فتحداهم الله تعالى وطلب منهم أن يأتوا بعشر سور من مثله أو حتى

بسورة واحدة ولكنهم عجزوا . قل تعالي : ﴿ أم يقولون إفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ . وقال تعالي : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ . وجاءت قمة التحدى من الله لهؤلاء المفترين بقوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ .

ولقد إدعى المشركون وعصابة الشرك من بعدهم أن القرآن من وضع محمد وتأليفه وأنه ليس من عند الله وهم يعلمون أن محمداً عاش أمياً لايقرأ ولا يكتب فمن أين جاءته هذه البلاغة المعجزة إذا كان القرآن من صنعه ؟ . قالوا أن الشيطان كان يلقى إلى محمد ببعض آيات القرآن قل سبحان ربى وكيف يلقى كافر بالله مثل هذا القول الذى يدعو الناس لعبادة الله الواحد ، كيف يلقيه الشيطان والشيطان أول كافر به ؟ إذا كان الشيطان موحى للرسول بهذا القول فلماذا إذن تلك الحرب الأبديةالتى يقودها الشيطان لغواية الناس عن عبادة الله ولقودهم للنار التى يعلم أنه سوف يخلد فيها أبد الآبدين ؟ وقالوا أن محمداً أخذ هذا القول من رهبان الشام حين ارتحل إليها ، ورسول الله لم يسافر إلى الشام إلا سفرتين مرة وهو صبى دون العاشرة والاخرى وهو شاب فى العشرينات من العمر . ولو تساءلنا إن صح قول هؤلاء أنه أخذ عن هؤلاء الرهبان والنصارى فلنا أن نتساءل : ماالذى أخذه منهم ؟ هل أخذ منهم رسالة التوحيد ؟ وأين هو ذلك العلم العظيم المدفون فى صوامع الرهبان وبيعهم الذى غرف محمد من بحره وأى نوع من المعلومات تلك التى أعطاها الرهبان لمحمد ؟ إذا كانت هى رسالة التوحيد وكلام القرآن كما يزعمون فأين هذا الكلام فى كتابيهم المقدسين : العهد

القديم والعهد الجديد ؟ ومن المعلوم أن فاقد الشيء لايعطيه فهل يعطى هؤلاء الكفرة بمحمد كلاماً لمحمد لايؤمنون به وهل يرشدون إلى عبادة إله هم تخلوا عن عبادته وإتخذوا لهم إلهاً غيره ؟ إذن إذا كان هؤلاء الرهبان قد علمّوا محمداً فإنهم كانوا يعلمونه بما هو عندهم من عبادة المسيح ولقال مثلهم بالتثليث . لقد جاء محمد بما يناقض عند هؤلاء فإذا كان قد استمع لهم فقد سمع منهم قولا تنافى مع الإعداد الالهى الذى أُعد له ، وإذا كان قد تعلم منهم التوحيد فلمْ حاد النصارى عن هذا العلم الذى يعلمه علماؤهم ورهبانهم ودانوا بعبادتهم القائمة ؟

وقال المشركون أن غلاماً نصرانياً إسمه « جبر » وهو عبد لبعض بنى الحضرمى ، كان يقيم فى صومعة عند المروة كان يعلمُ محمداً ، وأن محمداً كان يتردد عليه وهو الذى ألقى عليه القرآن . وقالوا أيضاً أن علّمه رجل أعجمى اسمه « بلعام » وأن محمداً كان كثير التردد عليه . فرد الله عليهم وعلى افترائهم بقوله تعالى : **﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾** . كيف يُؤتى لهؤلاء الأعاجم غير العرب الذين لايتكلمون العربية ولايفقهونها كيف لهم أن يصيغوا هذه الآيات البينات التى عجز عن صياغة مثلها فطاحل اللغة وجهابذة البيان من العرب ؟

وللأسف فبعد أربع عشرة قرناً مرت على بعثة رسول الله فإن بعض المستشرقين وكتاب الغرب المتعصبين والمرتدين من المسلمين من أمثال الشيطان صاحب الآيات الشيطانية يرددون فى كتاباتهم ومن فوق منابر الشرك نفس الأدعاءات والاتهامات السابقة التى وجهها كفار قريش إلى محمد وثبت بطلانها ورد القرآن على كذبها وضحدها وجاءت انتصارات محمد آيات بينات لصدق هذه الدعوة . وللأسف أيضاً فإن هؤلاء الكتاب يلبسون مسوح الباحثين والمفكرين الذين يبحثون عن الحقيقة مهما كان عمر القضايا التى يتناولونها بالبحث ، وهم فى حقيقة الأمر ضالون يستهدفون الإسلام ورسول الإسلام ورموز الإسلام المقدسة فى كتاباتهم متعمدين إثارة البلبلة فى جيل شباب المسلمين الذين لم تتح لهم ، وللأسف أيضاً ، فرصة التعمق فى

الدين ودراسة سيرة خير البشر أجمعين ودراسة التراث الإسلامى العظيم .

يقول المستشرق اليهودى « صموييل جوايتاين » فى مقال له جاء تحت عنوان « طبيعة الإسلام وانتشاره » ضمنها لكتابه : « دراسات فى التاريخ الإسلامى ونظمه » وهو بصدد عرضه لأصل فكرة الوحى عند محمد وحقيقة القرآن الكريم ، ونحن فى هذا المجال نعرض النص كما ورد على لسان المؤلف دون تحريف عملاً بمبدأ أمانة البحث العلمى ، ثم نقوم فى النهاية بالرد عليه . يقول جوايتاين : « إن محمداً ، وهو ابن مكة ، المدينة التجارية التى تقع على طريق التجارة العالمية ، كان ، وبكل تأكيد ، عارفاً بأمر سائر الديانات السابقة ، برغم أنه كانت لديه فكرة بسيطة عن مدى الاختلافات بين هذه الديانات ، وكان مواطنوه المكيون يعرفون بأن النصارى كانوا يعبدون المسيح ، كذلك كانوا يعرفون طبيعة التثليث عندهم . وقد كانت قوافل مكة التجارية تذهب صيفاً إلى الشام ، والزائر لهذه البلاد كان يستطيع أن يدرك الأختلاف القائم هناك بين أنصار مذهب التثليث وأنصار مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح، كذلك كان تجار مكة الذين ترددوا علي مدينة الأسكندرية ، قد لاحظوا الاختلاف المذهبى فى المسيحية بين المذهب القبطى المصرى والمذهب الامبراطورى ، ولمسوا الاضطهاد الواقع علي المصريين من جراء مخالفتهم لمذهب الدولة الرسمى . كذلك عرف تجار مكة اليهود الذين سكنوا هذه البلاد ، وإضافةً إلى اليهود الذين كانوا يسكنون فى المنازل على طريق القوافل مابين الشام ومكة واليمن . وعلى ضوء كل هذه الفروض نستطيع أن نعطى صورة عن الأصول التى إستقى منها محمد فكرة الوحى ، وفكرة الدور الذى عليه أن يلعبه كرسول الله من خلال إطار هداية البشرية . ولقد تملكت محمد فكرة أن (يدّعى) لنفسه أنه رسول من عند الله مرسلٌ لقومه من العرب ، شأنه فى ذلك شأن أقرانه الدعاة العرب الذين ظهروا فى الجزيرة العربية ، فى أوقات متفاوتة ، جاءت هذه الفكرة إلى محمد حين استمع للمبشرين الأجانب الذين كانوا يتجولون فى الجزيرة العربية ، وبعد أن أطلع على ماكان معهم من طوامير مكتوبة وبعد أن استوعب مافيها ، برغم أن هذه الطوامير كانت مكتوبة بلغات أجنبية . وقد تساءل محمد مع نفسه ، كيف

يرسل الله الرءوف الرحيم دعوته بهذه اللغات الأعجميةفى الوقت الذى لأيبلغ فيه دعوته لجمهور العرب ويتركهم بذلك للجهالة والهلاك ؟ حينئذ إستقر فى ذهن محمد الاقتناع الكامل بأن رسالة الله حتماً ستبلغ يوما ، فى رواية عربية وأن هذا التبليغ يجب أن يكون على لسانه هو ليس على لسان أحد غيره . وبإيمانه وعدم شكه لما تحتويه هذه اللفائف والطوامير وبسماعه لمختلف ماكان يردده الدعاة الجوالون على أختلاف مللهم ، اكتشف محمد أن كل مايقال على لسانهم إنما يرجع إلى أصل واحد وأنه لا اختلاف بين أى منهم لأنهم جميعهم يدعون إلى عبادة الإله الواحد . وبناء على ذلك تبنى محمد هذا القول وأعلن مراراً وتكراراً وفى أكثر من مناسبة بعد ذلك أن مانزل عليه هو مثل الذى نزل علي من سبقوه من قبل .

وقد قوى ورسخ هذا الاعتقاد عند محمد مع مرور الوقت ، استناداً على حقيقة بسيطة مؤداها أن محمداً كان يستقى معلوماته خلال حياته الأولى من التوراة الكتاب السابق له، فمن الطبيعى أن يأتى بعد التوراة كتاب آخر يردد نفس قول التوراة لكن بلسان مختلف ، وإنا لنجد التفسير الكامل للظروف التى اثارت عند محمد (ادعائه) دور رسول الله ونظريته العالمية عن الوحى فى طبيعة التناقض فى تكوين شخصية محمد التى جمعت بين طرفىْ نقيض وهما « الغنوصية » الخفية والفطرة البسيطة .

ويترتب فهمنا لبداية ظهور الإسلام على دعوى أخرى قديمة ، وأعنى مسألة المعلمين الأول الذين تعلم محمد على أيديهم ، وهنا نستطيع أن نعتمد على نص قرآنى يشير ببساطة إلى هذه المسألة . وقد ورد فى هذا النص أن أهل مكة الذين لم يصدقوا دعوة محمد أرجعوا مصدر أفكار دعوته إلى رجل أو رجال من بنى إسرائيل : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ ، ولقد استطاع محمد أن يذيع فى لغة عربية سليمة ماكان قد سمعه من معلميه بلغة مستهجنه ، بعد أن إقتنع بأن الله هو الذى نزل هذا القول على لسانه لا أولئك الذين لم يكونوا يجيدون الحديث بالعربية ، ومن ثم لم يستطيعوا أن يوصلواماكانوا يريدون قوله » .

ويواصل جوايتاين زعمه عن أصل مادة القرآن الكريم بقوله مانصه :

« وتشير الآيات التى وردت فى سور الفرقان والنحل والشورى والشعراء إلى أن محمداً قد أصبح مقتنعاً باختياره رسولاً لتبليغ قومه كتاب مقدس من عند الله، وكان من الطبيعى عليه أن يجمع مادةً لمحتوى هذا الكتاب ، ومن أجل ذلك لجأ إلى (معلمى بنى إسرائيل) وأخذ منهم مايصلح لمشروعه . ولقد ثبت إعتياد محمد على كتابات اليهود والنصارى ، ويتضح ذلك مما ورد فى القرآن من عبارات أكادية وردت فى التوراة ، وقد أوردت عبارات القرآن تشابهاً مثيراً للدهشة لتلك التعبيرات الأدبية الواردة في الأدبين اليهودى والمسيحى . ويرجع ذلك إلى تلك الاتصالات الشخصية الطويلة والمتينة التى أثرت على شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام من خلال النشاطات التبشيرية » ، ويواصل جوايتاين إفتراءاته بقوله : « ولو تساءلنا عن أى الروايات أخذ محمد مادة كتابه (القرآن) فإنا نستطيع أن نقول بأن الخمسين سورة الأولى من القرآن أو معظمها على الأقل أخذت مادتها عن يهود بنى إسرائيل الذين أشير اليهم فى سورة الشعراء . ونستطيع أن نتتبع فى القرآن معلومات محمد الواسعة عن الديانات القديمة ومدى استفادته منها فى أنها أعطته الأتساع والعمق العالمى وأكملت التجاوب بين رسالته والرسالات السابقة له التى كانت هى أساس رسالته وصاحبة أفكارها الأصلية » .

وبهذا ينهى هذا المستشرق اليهودى زعمه من أن رسالة الإسلام رسالة لم تأت بجديد ، وأنها رسالة يهودية صيغت فى ثوب جديد ، ويؤكد هذا المدعى رأيه بقوله : « وبالنسبة لتعاليم الإسلام ، فإنه وفقاً لما ورد فى القرآن ، فإن هنالك إلهاً واحداً ، وهو الخالق لهذا الكون ، وهو السيد الخالد الأزلى الأبدى ، والذى بيده ناصية أمر العباد إلى يوم القيامة . ولو قارنا هذا القول بما ورد فى التوراة نجده متشابهاً ، كذلك فإنا نجد التوراة فى سفر التكوين تبدأ بخلق آدم ونوح وفى القرآن يتجدد نفس القول مرة أخرى . ونجد العناصر الرئيسية فى تاريخ التوارة هى نفس العناصر المعروفة عند النصارى والمسلمين . كذلك نجد نفس الأسماء الواردة فى التوراة أسماءً مألوفة للجميع . وعقيدة الإسلام عقيدة توحيدية أخلاقية شأنها فى ذلك شأن

العقائد السابقة لها ، وهى تدعو إلى أن وحدانية الله تستلزم من الإنسان أن يكون مسئولا عن عمله أمام الله الرءوف الرحيم، وأن هذا العالم هو مرحلة انتقالية للعالم الآخر ، عالم الخلود ، وأن الحياة فيه مستمرة حتى قيام الساعة التى قد تقع فى أى وقت . والفرائض الرئيسية فى الإسلام : مثل الصلاة اليومية وصلاة الجمعة والصوم والزكاة وغيرها من الفرائض فرائض لها أصولها وأمثالها فى المسيحية واليهودية . وهنالك تراتيل وأدعية تتردد فى صلوات المسلمين مشابهة لما يتردد منها فى صلوات المسيحيين واليهود . وفاتحة الكتاب ، التى هى فرض أساسى يقرأ فى كل صلاة ، لاتحتوى على عبارة واحدة لانجد مثلها فى قداس الديانات القديمة والتى يتلوها كل مسيحى مؤمن أو يهودى . ويشكل القرآن ، كتاب الإسلام المقدس ، الأساسى الذى يجب أن تسير عليه أمة محمد بعد وفاته ، وهو يقيم صرحاً هائلاً للأحكام والتشريعات والأفكار الدينية . ولاتختلف التوراة عن القرآن ، إلا أن التوراة ليست بكتاب ، ولكنها مكتبة كاملة تحتوى على أدب شعوب قديمة عاشت عبر آلاف السنين ، ويخدم هذا الأدب أغراضاً مختلفة ، وهو من صنع تلك الشعوب ، بينما القرآن هو من (صنع) رجل واحد كان له هدف محدد ومباشر وضعه نصب عينيه ، وهو أن يجعل مضمونه بأن يكون كتاباً مقدساً لديانة جديدة . وكانت اليهودية ، زمن محمد ، قد أصبحت نظاماً متكاملاً للأفكار والقيم والطقوس تستطيع أى ديانة جديدة أن تنسج على منوالها » .

هذا خلاصة مادعى إليه هذا المستشرق اليهودى المتعصب وقد أوردناه بنصه لنبرز مادسه هذا الرجل من سموم داخل الحقائق عملاً بمبدأ دس السم فى العسل الذى يتقن الكتاب اليهود استخدامه . ومن عرضه نستطيع أن نكتشف حقيقة مايريد الوصول إليه وحقيقة ماعمى عليه ولم يستطع فهمه أو تعمد عدم فهمه ، فهو قد إفترى على رسول الله وأنكر نبوته وتصور إدعائه لهذه النبوة وأشار كذباً إلى أصول هذا الأدعاء على حد زعمه ، مع أن كتب اليهود والنصارى المتداولة اليوم بشرت بحقيقة نبوة محمد ، وقد فات على هذا المدعى أن يتمعن فى قراءة الكتب التى يؤمن بها . ففى العهد القديم

تكلم « سفر التثنية » عن رسول آخر الزمان وذكر أن قوته تكون فى لسانه لأن هذا النبى سيكون أمياً وليس من شجرة بنى إسرائيل إنما هو من الفرع الإبراهيمى الآخر من نسل إسماعيل . يقول النص (التثنية ١٨/١٨) « أقيم لهم نبيا من وسط إخوانهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بما أوحيه اليه » . وفى العهد الجديد وفى « سفر الرؤيا » (٩/٥) بشر بالنبى العربي وقالت عن أتباعه « أنهم سوف يرتلون بترتيلة جديدة » أى سوف يتلون كلام الله بغير العبرية لغة بنى إسرائيل وقد ورد اسم محمد على أنه نبى آخر الزمان فى أسفار أشعيا وأرميا ، وقد أكد القرآن ذلك بقوله تعالى . **﴿ والذين يتبعون الرسول النبى الأمى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾** .

وإذا كان جوايتاين يدعى بأن اليهودية هى أصل الإسلام ، فإننا نقول له أن اليهودية الحقة هى مانزل على موسى ، وليست هى اليهودية الوثنية القائمة الآن التى نبذ معتنقوها تعاليم موسى التى تنادى بعبادة الله الأوحد واتبعوا عبادة العجل وكفروا بقولهم أن عزْيراً ابن الله . اليهودية الحقة أنتهت وضاعت التوراة الحقيقة فى سيناء مع وفاة موسى وهارون ، وتوراة اليوم هى توراة مزيفة وضعها أحبار بنى إسرائيل وهم فى (الأسر البابلى) بعد وفاة موسى وهارون بخمسة قرون . وتعاليم موسى تنادى بالمساواة بين الناس وتعاليم توراة اليهود الآن تتعصب لشعب بنى إسرائيل وتجعلهم شعب الله المختار الذي استحل قتل الشعوب وابادتهم كما استحل من قبل قتل أنبياء الله فلُعنوا فى الدنيا والآخرة ووعدوا بالخزى فى الدنيا وفى الآخرة بالعذاب الشديد .

لقد أعلن محمد لأكثر من مرة أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنه ماجاء إلا ليدعو الناس لعبادة الله الواحد القهار شأنه فى ذلك شأن من سبقه من إخوانه الأنبياء والمرسلين منذ آدم حتى المسيح ، قال عليه السلام : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فاتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة فانا موضع اللبنة جئت

فختمت الأنبياء » . لقد أكد محمد للناس أن رسالة الإسلام رسالة خالدة دعى إليها أنبياء الله ورسله منذ خلق الله الأرض ومن عليها وحتي تقوم الساعة ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ .﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون** ﴾ .

﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين** ﴾ .

﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ، قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

إن التوراة الزائفة التى يشير إليها جوايتاين لاتدعو إلى التوحيد كما يدعى ولكنها تدعو إلى الشرك ، والضلال وعنجهية شعب اليهود ، وإن ماورد فيها من عدم تنزيه الأنبياء وعدم أظهارهم على حقيقتهم من الطهارة والنزاهة والنزول بهم منزلة وضيعة لأكبر دليل على وضع هذه التوراة ولايعقل أبداً أن كتاباً من قبل عزيز حكيم ترد فيه هذه الاتهامات الباطلة وتسرد فيه هذه الألفاظ السوقية الفجة . وقد جاء على سبيل المثال لا الحصرفى الاصحاح التاسع من سفر التكوين قصة لوط وارتكابه جريمة الزنا مع إبنتيْه وحملهما منه بعد أن سقياه خمراً . حاشا لله أن يسقط نبى من أنبيائه فى هذه السقطات وهم المنزهون الذين إختارهم الله واصطفاهم من بين عباده واصطفى محمداً وجعله سيداً عليهم . كذلك ماورد فى الاصحاح الأول من كتاب يوشع من أمر الرب لنبيه يوشع أن يزنى بامرأة واستجابة النبى للأمر باقتراف جريمة الزنا مع « جومر بنت دبلايم » وحملها منه فى ولدين وبنت .

إقرأوا هذه التوراة المزيفة واحكموا بأنفسكم على مايحتويه من فحش القول وتنزه الله تعالى أن ينُسب له مثل هذا القول . وهذا هو القرآن الكريم معروض أمام الناس وحتى تقوم الساعة فليبحثوا فيه ويقارنوا بين ماجاء فيه من الحق والصدق والطهر والدعوة إلى الفضيلة والحض عن البعد عن الرذيلة ليتأكدوا حقاً أنه تنزيل حكيم عليم حفظه الله تعالى ونزهه بقوله : **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾** .

ولا يمنع أن يكون هنالك بقايا من علماء بنى إسرائيل من الذين فروا إلى الجزيرة العربية هرباً من عدوان الروم عليهم ، ولايمنع أن يكون بعضهم قد تجول فى جزيرة العرب قبل بعثة الرسول ، ولايمنع أيضاً أن يكون الرسول قد إلتقى ببعض علمائهم الذين عرفوا التوراة الحقيقية وتوارثوا دراستها وأنكروا التوراة المزيفة وطافوا فى بلدان العالم يدعون إلى تعاليم موسى التى تنادى بعبادة الله الأوحد . ولايمنع أن يكون محمد قد سمع عنهم قولاً عن وحدانية الله يتوافق مع مايجيش فى قلبه وتصبو إليه نفسه أن يكون الداعى لهذه الوحدانية ، وخاتم الرسل الذين يدعون إليها .

وكان علماء بنى إسرائيل يعرفون أن هنالك رسولاًسوف يظهر فى آخر الزمان وكانوا يتوسمون أن يكون الرسول من بينهم فقد كان يهود المدينة يفاخرون سكانها من عرب الأوس والخزرج بأن رسول آخر الزمان سوف يكون منهم وأنه سوف يوجدهم وسوف يعينهم على قتالهم والنصرة عليهم ، ولذلك سارع عرب المدينة إلى نصرة رسول الله خوف أن يسبقهم اليهود إليه ففازوا بخيريْ الدنيا والآخرة .

وحتى بعد ظهور الدعوة المحمديةكان علماء بنى إسرائيل يعلمون أن القرآن حق منزل من عند الله وأنه ليس من وضع محمد ولاتأليفه ، ورغم ذلك عادوا رسول الله لأنه لم يأت من بينهم ولم يأت لتمييز شعب إسرائيل عن باقى الشعوب كما كانوا يأملون. يقول الله تعالى فى ذلك: **﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾** . ويقول كذلك : **﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به**

الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين وإنه لفى زُبُر الأولين أو لم يكن لهم آية أن يَعْلَمَه علماء بنى إسرائيل ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين ﴾ .

ولقد أورد الله آيات كثيرة تدحض قول المتشككين والذين ينسبون القرآن إلى صنع البشر ولايؤمنون بأنه قوله تعالى نزل به الوحى الأمين على رسوله الكريم ، يقول تعالى : ﴿ الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله إلى صراط العزيز الحميد ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذاإلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا وقالوا أساطير الأولين إكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً قل نزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيماً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لأرتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ومايجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم وماهو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون ولابقول كاهن قليلاً ماتذكرون تنزيل من رب العالمين . ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين وإنه لتذكرة للمتقين وإنا لنعلم أن منكم مكذبين وإنه لحسرة على الكافرين وإنه لحق اليقين ﴾ .

حاشا لله أن ينسب أحد القرآن لصنع البشر ، إنه المعجزة الخالدة التى تحدى بها الله تعالى أفصح فصحاء العرب ، وأبلغهم أن يأتوا بسورة من مثله ، وإن للقرآن أسلوباً خارجاً عن حدود التعليم والتعلم . ولوكان القرآن من كلام الرسول وانشائه كما يدعى جوايتاين وغيره ممن سبقوه من حزب الشيطان . لوجدنا فى بعض خطب الرسول وأحاديثه مايشبه القرآن فى

أسلوبه ويضارعه فى بلاغته . وكلمات الرسول وأحاديثه وخطبه محفوظة مدونة وهى ذات أسلوب آخر ليس فيه اعجاز أسلوب القرآن ، ولو كان فى كلماته مايشبه القرآن لشاع نقله وتدوينه وخصوصاً من أعداء الإسلام فى الماضى والحاضر. ولقد قام هؤلاء بالمقارنة بين القولين مرات عديدة ومازالوا حتى الآن يقارنون ويتمنون وجود ثغرة واحدة فى هذا الأمر ينفذون من خلالها ليطعنوا بها الإسلام فى الظهر .

لقد أدرك اليهود وأيقنوا أن القرآن هو معجزة محمد ، وهم على طول تاريخهم يؤمنون بالمعجزات ، ولقد ظلوا يطالبون أنبياءهم كل يوم بمعجزة . وأوحى اليهود فى مكة إلى رجالات قريش أن يطلبوا من محمد تحقيق معجزات لهم على غرار مافعل أنبياء بنى إسرائيل إن كان نبياً حقاً ! فطالبت قريش محمداً بالاتيان بالمعجزات حتى يصدقوا رسالته . فكان دائم الرد عليهم بقوله : **﴿ ما أنا إلا بشراً رسولاً ﴾** . وإذا كانت بعض المصادر قد نسبت لمحمد إتيانه بعض المعجزات الحسية فنحن لاننكرذلك ولا نستبعده وليس على الله بعزيز . ولكن الذى نحب أن نؤكد عليه أن رسالة محمد لم تكن لتعتمد على المعجزات الحسية ، وأن ماوقع لرسول الله من معجزات شاء الله لها أن تحدث وتقع فى ظروف خاصة . فلقد فرّج الله على يديه جلب الماء حين عطش الناس يوم الحديبيةوفى غزوة تبوك ، كذلك نسج الله العنكبوت وباضت اليمامة على غار ثور أثناء بقاء رسول الله وصديقه أبى بكر فى ذلك الغار غداة الهجرة. ووقعت لرسول الله معجزة الأسراء والمعراج وهى أكبر المعجزات التى كانت امتحاناً شديدا لإيمان المسلمين ، وكذلك وقعت له معجزات أخرى .

وكان محمد يؤكد للناس دوماً على بشريته بقوله عليه السلام : « إنما أنا ابن أمرأة كانت تأكل القديد وتمشى فى الأسواق » . ولقد أورد الله ذلك فى كتابه على لسان نبيه بقوله : **﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ﴾** . وقوله: **﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾** . وقوله تعالى : **﴿ قل لاأقول لكم عندى خزائن الأرض ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم أنى ملك ﴾** . وقوله : **﴿ قل لا أملك**

لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لأستكثرت من الخير ومامسني السوء ﴾ . وقد قال عليه السلام لأتباعه : « لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله » .

ولقد نفى محمد عن نفسه كل فكرة أو قول يبعده عن مصاف البشرية وتضعه في صفوف الملائكة **﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذا جاءهم الهدى إلا أن يقولوا أبعث الله بشراً رسولاً قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾** .

ولقد استطاع محمد بتكوينه البشرى وبأسلحته الآدمية أن ينشر دين الإسلام وأن يتصدى للكفرة المعارضين وكان سلاحه الدائم في معاركه الإيمان بالله والإيمان بنصره له . لم يركن محمد إلى المعجزات في أحلك الظروف التي مر بها ولم يطلب من الله أن ينزل صاعقة من السماء على قومه حين آذوه وخذلوه ولكنه استغفر لهم وطلب الهداية من الله لهم .والمعجزات التي حدثت في عهد محمد كانت مجرد تدخل سماوي أراد به الله أن يحفظ نبيه وأن يحفظ رسالته حين يرى الخطر محدقاًبهما ، ومن هذا المنطلق تظهر عظمة وشدة احتمال محمد بين الانبياء والرسل .

والأمثلة كثيرة على بشرية محمد واقراره بهذه البشرية وتواضعه وتذلله لخالقه ، جاءه يوما أحد الأعراب وسجد له ، فانزعج رسول الله ورده عن فعل ذلك بقوله : « هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وتمشي في الأسواق » ، ومر رسول الله عليه السلام يوماً بأناس كانوا يلقحون النخل فنصحهم بعدم التلقيح فامتثلوا لنصيحته ، لكن النخل بعد ذلك لم يثمر فتأذى الناس بذلك ، فلما مر عليهم ثانية عاتبوه على نصيحته فقال عليه الصلاة والسلام لهم وهو في شدة التأثر لحالهم : « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واعملوا وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر أنتم أعلم بأمور دنياكم » . وفي موقعة بدر رأى أصحابه يراجعونه

فى الموقع الذى اختاره للنزال قبل المعركة فيغير رأيه ويأخذ برأيهم ، وعندما أنتهت المعركة شاور صحابته فى الأسرى فأخذ برأى أبى بكر ونزل القرآن مؤيداً رأى عمر . وفى غزوة أحد حين أستشهد عمه حمزة قال فى حزن : « لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم » فنزل عليه جبريل يرد عليه غضبه بقوله تعالى : **﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾**. وفى هذا الموقف يوضح الله تعالى لنبيه كيف يتغلب على عواطفه البشرية وقت الغضب ، وحين أراد رسول الله الهداية لعمه أبى طالب لحبه له ، نزل قوله تعالى **﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾** .

وقد عاتبه الله تعالى فى عدة مواقف . منها عندما إجتمع بالوليد بن المغيرة وطمع فى إسلامه ، وقدكان من سادة قريش ، فى الوقت الذى إنصرف فيه عن أبن مكتوم الأعمى الفقير الذى جاءه يسأله أن يقرأ له شيئا من القرآن ، فنزلت سورة « عبس » **﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ومايدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى وماعليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾** .

* * *

وكانت قريش تهزأ بالرسول وبما يتنزل عليه من قرآن ، فأنزل الله قوله فيهم **﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾** .

وقد خرج فى ليلة « أبو سفيان بن حرب » و« أبو جهل » و« الأخنس بن شريق » كل على حدة ليستمعوا لما يقرأ محمد من قرآن أثناء صلاته فى بيته فأخذ كل منهم مجلساً خارج المنزل يستمع فيه وكل لايعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لاتعودوا فلو رآكم بعض سُفهاؤكم لأوقعتم فى نفسهم شيئا ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية كرروا نفس ماحدث فى الليلة

السابقة ، كذلك تكرر الأمر فى الليلة الثالثة عندئذ قال بعضهم لبعض : « لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود إلى ذلك .. ثم تفرقوا وتساءل الأخنس مع أبى سفيان عما سمعاه ، فقال أبو سفيان . « يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها وما يراد بها » فقال الأخنس : « وأنا والذى حلفت به » ثم ذهبا إلى أبى جهل يسألونه عما سمع فقال لهم : « ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسىْ رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ، والله لانؤمن به أبداً ولا نصدقه » .

ولقد حاولت قريش أن تساوم محمداً وعرضت عليه عروضاً مادية مغرية عسى أن تجعله يغير موقفه منهم ومن عباداتهم ، وقد اقترح عتبة بن ربيعة يوماً ، وهو جالس فى ناد لقريش قائلا : « يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطه أيها شاء ويكف عنا ؟ »

فوافقوه على ذلك ، فقام إليه عتبة وجلس إليه وقال له : « يا ابن أخى ، إنك منا من حيث علمت من الشرف فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فأسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها » ، فقال له رسول الله « قل يا أبا الوليد ، أسمع » .

قال : « يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لانقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك جنا لاتراه ولاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه » وظل رسول الله يستمع لعتبه حتى فرغ من كلامه ، فقال له رسول الله : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : « نعم » ، قال : « فاسمع منى » ، قال : « أفعل » ، فقال رسول الله آيات من سورة فصلت :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الرحمن الرحيم كتاب فصلت اياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لايسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ﴾ . ثم مضى رسول الله يقرأ السورة عليه وعتبة منصت وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما . فلما أنتهى رسول اله إلى مكان السجدة منها سجد ثم اعتدل ، وقال لعتبة : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » فقام عتبة إلى أصحابه ، وقد تغير وجهه فلما جلس إليهم قالوا : « ماوراءك يا أبا الوليد ؟ » قال والتأثر بادٍ على وجهه : « ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ماسمعت مثله قط والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم فإن تصبهُ العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به » . قالوا : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » . قال : « هذا رأيى فأفعلوا مابدالكم » .

واعترض الرسول عدد من كبار كفار قريش ، وهو يطوف بالكعبة . وكان فيهم : الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، العاصى بن وائل السهمى ، فأوقفوه وقالوا له : « يامحمد هلم فلنعبد ماتعبد وتعبد مانعبد فنشترك نحن وأنت فى الأمر فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبدكنا قد أخذنا بحظنا منه وإن كان مانعبد خيراً مما تعبد كنت أخذت بحظك منه » فأنزل الله تعالى على رسوله قوله : **﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين ﴾** .

وعاود أشراف قريش عروضهم المغرية على رسول الله عسى أن يجدوا منه تنازلاً وعسى أن يوافق ما فى هواهم هواه ، ولكنهم لم يروا منه إلا الاصرار والاقدام على انفاذ ماأمره الله به مهما كلفه الأمر ومهما كانت المغريات المعروضة عليه . وفى هذه المرة أرسلوا إليه وهم جالسون عند الكعبة بعد غروب الشمس فأتاهم مسرعا وهو يظن بهم خيراً ويتمنى أن يكونوا قد

استجابوا لدعوته . فلما جلس إليهم عرضوا عليه ثانية المال والجاه والسيادة فرد عليهم بقوله : « ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم » ، هذا هو محمد يدحض بقوله دعوى الكافرين والحاقدين ، إنه وقد عرضت عليه الدنيا بأموالها وجاهها وعزها وسلطانها فلم يقبل من ذلك شيئاً وأعلن دعواه صريحة أنه مادعاهم إلا لما يصلح دنياهم وآخرتهم وأنه مشفق عليهم يريد لهم النجاة والخلاص قبل فوات الأوان. ليقرأ هؤلاء المغرضون الذين يسيئون إلى محمد في الماضي والحاضر ، ليقرؤا هذه الكلمات الخالدة ليعلموا أنه صاحب دعوى صادقة رسالة ونبوة حقة دافع عنها وقاوم أذى من تصدوا لنشره لها في صبر وصدق وشجاعة وقوة عزم .

يئس القوم منه ورأوا منه الأصرار والثبات والصلابة والقوة ، ولما لم ينفعهم أسلوب الإغراء معه جنحوا إلى أسلوب الاستخفاف والاستهزاء ، فقالوا له : « يامحمد إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت ماسألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول ، فإن لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك فيما تقول ويراجعنا عنك وسله فليجعل لك طعاماً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم » .
فأنتظر رسول الله حتى يفرغوا من قولهم ونظر إليهم نظرة المشفق على قومه وقال : « ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، ومابعثت إليكم بهذا ،

ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً . فإن تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم وهو خير الحاكمين » .

وقام عنهم رسول الله ، وقام معه ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، عبد الله بن أمية بن المغيرة المخزومي ، فقال له وهو يحترق غضباً: « يا محمد عرض عليك قومك ماعرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك مايعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ماتخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى وأنا أنظر إليك ثم تأتيها ثم تأتي معك بأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ماظننت أني أصدقك » ثم أنصرف عن رسول الله ، وانصرف عليه السلام حزيناً أسفاً لما فاته مما كان يطمع به من إسلام قومه حين دعوه إليهم ولما رأى ماهم عليه من الكفر والانكار .

وكان أبو جهل قد قال للقوم ، بعد أن أنصرف عنهم رسول الله « يامعشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ماترون من عيب ديننا وشتم آلهتنا وتسفيه أحلامنا وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته نضحت به رأسه فأسلموني عند ذلك أو إمنعوني فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف مابدالهم » قالوا : « والله لانسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد » .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس ينتظر رسول الله ، فلما غدا رسول الله كما يغدو وقام يصلي عند الكعبة بين الركن اليماني والحجر الأسود وقد غدت جموع قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون نهاية محمد على يد أبي جهل ، فلما سجد الرسول احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع مهرولاً مرعوبا منتقعاً لونه ، فسألته قريش عما به ، فقال: « لمّا دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل لم أرى مثل هامته ولا

مثل أصل عنقه ولا أنيابه لفحل قط ، فهَّم بى أن يأكلنى » ، ولما سئل رسول الله عن ذلك قال : « ذلك جبريل لو دنا لأخذه » ، هنا وقعت معجزة الله لتنقذ رسوله من كيد عدوه.

ولما أنتهى أبو جهل من قصته نهض النضر بن الحارث بن كلدة ، وكان من شياطين قريش ، فقال: « يامعشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، أنظروا فى شأنكم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم » .

وقد أخذ النضر يتعقب مجالس رسول الله فينادى من جلس إليه منهم ويحدثهم عن ملوك فارس ، ويقول لهم : « أنا والله أحسن حديثاً منه ، سأنزل لكم مثلما أنزل إله محمد ، إن حديثه أساطير الأولين » .

وقد نزلت فى النضر هذا ثمان آيات من القرآن من سورة القلم هى قوله تعالى: **﴿ ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عُتل بعد ذلك زنيم إنه كان ذامال وبنين وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم ﴾** . وكذلك نزل فيه قوله تعالى: **﴿ وقالوا أساطير الأولين إكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ . ﴿ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصير مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾** .

* * *

ولما رأى رسول الله إصرار أشراف مكة على الكفر وتصديهم لدعوته وصدهم وفود القبائل عنه ، واضطهادهم للفقراء من أتباعه والمستضعفين منهم ، خرج إلى مدينة الطائف ، ثانى مدن الحجاز الكبرى والتى تبعد عن مكة ثمانين كيلو متراً ، يلتمس النصرة من سادتها من بنى ثقيف وهوازن والمنعة بهم من قومه ، رجاء أن يفتح الله قلوبهم للإسلام ، فخرج ومعه مولاه زيد بن حارثة ومكثا فى الطائف عشرة أيام بعد رحلة شاقة على الأقدام وما أن وصل رسول الله إلى الطائف عمد إلى أشراف ثقيف وهم إخوة ثلاثة :

« عبد ياليل بن عمرو بن عمير » و« مسعود بن عمرو » و« حبيب بن عمرو » ، فجلس إليهم رسول الله، ودعاهم إلى دعوته ، وكلمهم بما جاءهم من أجله وهو نصرة الإسلام والزود عنه ممن خالفه من قومه ، فلم يستجيبوا لطلبه ولم يطيبوا له الحديث ، فطلب منهم رسول الله كتمان هذا الأمر عن أهله فى مكة حتى لايشمتوا فيه ويزدادوا له أذى، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ويلقون عليه الحجارة ، وزيد يقيه بنفسه ، فألجأوه إلى حديقة لإبنىْ بيعة عتبة وشيبة ، وكانا واقفين فيها يشاهدان مايتعرض له رسول الله ، ولمأ رجع عنه العبيد والصبيان ممن كانوا يتبعونه ، عمد رسول الله إلى ظل شجرة فجلس تحتها وزيد يجفف عنه دماء قدميه ودماء جرح فى رأسه وإبنا ربيعة ينظران إليه .

وهنا نظر رسول الله إلى السماء يشكو حاله لربه وهو أعلم به، وهو فى عينه ، رفع رسول الله يديه يدعو ربه دعاءً إرتجت له السموات والأرض ، دعاء المؤمن الصابر المحتسب لله ، الخائف أن يكون ما قد حل به قد حل بسبب سخط ربه أو غضبه عليه ، قال رسول الله هذه الكلمات الخالدات التى سجلها التاريخ بأحرف من نور ، وشهدت على عظمة وقوة إيمان رسول الله . دعى محمد ربه بقوله : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى عدو بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى غيرأن عافيتك هى أوسع لى .أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرةمن أن ينزل بىّ غضبك أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

حين رأى إبنا ربيعة ذلك المشهد المؤثر ، رقت قلوبهما على رسول الله برغم ظلمة الكفر فيهما ، فأرسلا إليه غلاماً لهما نصرانياً يقال له : « عداس » بقطف من عنب . فلما أعطاه عداس إياه بدأ رسول الله الأكل منه وهو يقول : « بسم الله » ، فنظر عداس فى وجهه ثم قال : « والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد » ، فقال له الرسول : « ومن أى البلاد أنت ، وما دينك ؟ » قال : « نصرانى وأنا رجل من أهل نينوى » فقال له : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متىّ » فقال له عداس : « وما يدريك مايونس

ابن متي ؟ » فقال رسول الله : « ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي » فاكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه . فلما رجع عداس إلى أسياده تعجبوا من أمره وسألوه عما فعل ، فأخبرهم عن أمره وعن حقيقة نبوته ، ولكن قوله لم يغير موقفهما من محمد ورسالته وظلا على كفرهما وجحودهما .

وعند انصراف رسول الله من الطائف عائدا إلى مكة ، حتى إذا ما كان « بوادي نخلة » قام من جوف الليل يصلى ، فمر به نفر من الجن من أهل « نصيبين » ، وكان عددهم سبعة نفر ، فاستمعوا لما يقرأ من قرآن ، فلما فرغ الرسول من صلاته ولى الجن إلى قومهم منذرين، فآمن القوم ، وقد قص الله تعالى خبرهم فى سورة الجن بقوله تعالى : **﴿ قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ ، ﴿ وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ .**

وأقام الرسول وزيد بنخلة أياماً ثم انتهيا إلى مكة ، وطلب الرسول الحماية من عدد من الأشخاص والدخول فى جوارهم فرفضوا إلا « المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف » ، فقد وافق على جوار رسول الله وقد أرسل له رسول الله رجلا من خزاعة ليخبره وذهب معه اولاده فى السلاح مصطحبين رسول الله إلى مكة حتى إنتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم على راحلته فنادى : « يامعشر قريش إنى قد أجرت محمداً فلا يهيجه منكم أحد » ولم يكن المطعم يومئذ على الإسلام . وانتهى رسول الله إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته والمطعم وأولاده محيطون به بسلاحهم حتى دخل بيته .

* * *

عاد الرسول إلى مكة حزيناً أسفاً لما لاقاه من جحود أهل الطائف وقسوة قلوب أعيانها وقلة بصيرة أهلها ، عاد ليجد الشماتة واضحة فى عيون أهل مكة والاستعداد لمحاربته وإيذائه . لم يسخط ﷺ عليهم ولم يدع الله أن يسلط عليهم بلاءه ونقمته وغذابه ، ولكنه طلب لهم الهداية والرشاد بقوله : « اللهم أهد قومى فإنهم لايعلمون » ، كان محمد عظيماً فى كل مواقفه وكان صادقاً مع نفسه ومع ربه واثقاً من تأييد الله له ونصرة دينه . ووسط سحابة

الحزن التى إجتازت حياة رسول الله فى تلك الأيام أراد الله تعالى أن يروّح عن حبيبه ورسوله وأن يريه من آياته الكبرى الشىء الكثير فكانت رحلة الأسراء والمعراج إلى المسجد الأقصى وإلى السماء حتى الوصول إلى أقصى مكان وصله بشر وهو سدرة المنتهى حيث توجد الجنة وملائكة العرش . وقد حدث الاسراء والمعراج قبل الهجرة بعام على أكثر تحديد فى الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب . وأسرى بجسد رسول الله وروحه ليلاً من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس بفلسطين تصديقاً لقوله تعالى : **﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾** . وهنالك فى المسجد الأقصى وجد الأنبياء جميعهم فى انتظار تشريفه فصلى بهم جميعاً ، ثم صعد به جبريل إلى السماء ، وكان فى كل سماء من السماوات السبع نبى يتنظره ويحتفى بمقدمه حتى وصل إلى سدرة المنتهى وهنالك حدُد فرض الصلاة اليومية المقررة على المسلمين خمسة فى الأصل وخمسين فى الأجر تكريماً من الله لأمة محمد وأعلمه جبريل بمواقيتها . ولقد رأى رسول الله فى رحلة معراجه من آيات الله الكبرى صوراً من الجنة وصوراً من النار مصداقاً لقوله تعالى فى سورة النجم : **﴿ ماكذب الفؤاد مارأى أفتمارونه على مايرى ، ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾** .

ولمّا أخبر رسول الله قريشاً فى صباح ليلة الأسراء والمعراج بما رأى لم يصدقوه وأنكروا عليه فضل ربه ، وكان أبو بكر أول المصدقين لرواية رسول الله فسماه يومئذ « الصديق » ، وصار لقبه الذى لازمه طوال حياته وبعد مماته . وارتد بعض أهل قريش عن إسلامهم حين لم يصدقوا هذه الرواية فنزل فيهم قوله تعالى : **﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيراً ﴾** .

* * *

أخذ رسول الله يعرض نفسه على القبائل البدوية التى كانت تفد إلى مكة وكان يوافى المواسم كل عام يتبع الحاج فى منازلهم وفى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز يعرض عليهم الدخول فى الإسلام ويدعوهم إلى الله ويخبرهم بأنه نبى مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين الله مابعثه به . فأتى « كندة » فى منازلهم فأبوا عليه ، وعرض على بطن من « كلب » فلم يستجيبوا له ، وأتى « بنى حنيفة » فى منازلهم فدعاهم إلى الله فلم يكن أحد أقبح عليه رداً منهم . وعرض نفسه على « بنى عامر » فرفضوا وأبوا . ولم ييأس رسول الله واستمر فى عرض نفسه على كل قادم إلى مكة من العرب له إسم وشرف ، فلم يجبه أحد منه ، وكانوا يتحججون برفضهم لدعواه بقولهم : « إن قومك يعلمون عنك أكثر مما نعلم ومع ذلك لم يتبعوك فكيف نتبعك نحن؟ » . وقد حاولت بعض القبائل أن تساومه على أن تكون السيادة لها على العرب إن هو انتصر بهم ، ولكنه لم يستجب لمساومتهم التى تبحث عن المصلحة المادية فقط فأنصرفوا عنه وانصرف عنهم .

وفى ذلك الوقت تطلعت عينى محمد إلى ملاذ آخر يبعد شمال غربى مكة مائتى ميل ، وكان هذا الملاذ هو مدينة « يثرب » وسأل الله أن يجعل له النصرة ولدينه على يد أهل هذه المدينة .. ويثرب مدينة قديمة ذكرت فى التوراة ، وكانت تسكنها أعداد من اليهود الذين هربوا من فلسطين على أثر اضطهاد الرومان لليهود ، واستعرب هؤلاء اليهود وأخذوا عادات العرب وتكلموا العربية وتسموا بأسماء عربية ، وانقسم يهود يثرب إلى ثلاثة قبائل كبرى هى : « بنوقريظة » و « بنو النضير » و « بنو قينقاع » وعاش هؤلاء اليهود فى يثرب مع قبيلتين عربيتين كبيرتين من أصول يمنية وهما : « الأوس» و« الخزرج » مع عدد من القبائل العربية الصغيرة . وبيثرب أودية قامت فيها الزراعة لوجود مياه العيون والينابيع فى أرضها وقد احترف اليهود الزراعة فيها وتعلمها منهم العرب . وكانت العلاقة سيئة بين قبيلتى الأوس والخزرج العربيتين ، زاد من سوئها التدخل والكيد اليهودى مما أدى إلى وقوع الحرب بينهما ، وكانت أشهر هذه المواقع بينهما موقعة عرفت بيوم بعاث ٦١٧م . وقدتسمت بهذا الاسم لأنها وقعت بين القبيلتين على أرض تعرف ببعاث ، على مسيرة يومين من المدينة ، وقد نجح الأوس بتحالفهم مع اليهود فى هزيمة

الخزرج فى هذه الموقعة ، لكن الخزرج لم يستسلموا للهزيمة وباتوا يعدون العدة للثأر . وكان أهل المدينة من أوس وخزرج يعبدون منات « الهة القدر » ، وكان اليهود يسخرون منهم لذلك ويعدونهم بمقدم رسول منهم تكون نهايتهم على يديه .

وكان أهل يثرب يفدون إلى مكة مع من يفد اليها من التجار والحجيج وبخاصة فى موسم الحج ، فتحدث محمد معهم كما كان يتحدث مع كل وافد إلى مكة ، وفى هذه المرة وجد آذاناً صاغية من أهل هذه المدينة التى قدر الله لها أن تلعب دوراً هاماً فى حياة النبى وحياة الدولة الإسلامية ، وليتغير اسمها فى المستقبل إلى المدينة ، أو مدينة رسول الله ، "وطيبة" لما كان لها من دور عظيم فى الإسلام وقيام دولته . وكانت لمحمد علاقة خاصة بالمدينة فأبيه مات هناك ودفن بين أخواله من بنى النجار ، وهم فرع من الخزرج ، وأمه آمنه أخذته إلى هناك وهو طفل لزيارة أخواله ، وماتت وهى فى طريق عودتها منها إلى مكة بمنطقة تعُرف « بالأبواء » . وكان « سويد بن الصامت » أخو « بنى عمرو بن عوف » ، من الأوس أول من استجاب لدعوة رسول الله من أهل المدينة . وكان قوم سويد يسمونه « بالكامل » لشرفه ونسبه وأدبه وشعره ، وقد قدم مكة فتصدى له رسول الله حين سمع بمقدمه ودعاه إلى الإسلام ، ودارت بين الرجلين محاورة ، فسأل سويد رسول الله قائلاً : « لعل الذى معك مثل الذى هو معى ؟ » ، فقال له محمد : « وما الذى معك ؟ » ، قال سويد : « معى حكمة لقمان » ، فقال له الرسول : « إعرضها علىَّ » ، فعرضها عليه ، فقال له الرسول : « إن هذا الكلام حسن ولكن الذى معى أفضل منه ، معى قرآن أنزله الله تعالى علىَّ هو هدى ونور » ، فتلا عليه رسول الله شيئاً من القرآن ، ولما فرغ من تلاوته طمع فى إسلامه فدعاه إلى الإسلام فوجد استجابة منه بقوله : « إن هذا حقاً لقول حسن» ، ثم إنصرف سويد عن رسول الله وقدم يثرب على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، وقال رجال من قومه : « إنا لنراه قد قُتل وهو مسلم » .

* * *

٧ - إنجاز الوعد

ولما أراد الله عز وجل أن يظهر دينه وأن يعز نبيه وينجز وعده له ، خرج محمد فى الموسم كعادته يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم . فالتقى هذه المرة ، عند مكان يبعد ميلين عن مكة بينها وبين منى يعرف « بالعقبة » بستة نفر من أهل يثرب من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، وهم : « أبى أمامة أسعد بن زرارة » ، و« عوف بن الحارث بن رفاعة » ، و « رافع بن مالك بن زريق » ، و« عقبة بن عامر بن حرام » ، و« قطبة بن عامر » من بنى سلمة » ، و« جابر بن عبد الله بن رئاب السُلمى » . ومن المحدثين من يسقط جابر ويضع مكانه : « عبادة بن الصامت » فكلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الإسلام . فقال بعضهم لبعض : « ياقوم إنكم والله لتعلمون أنه النبى الحق الذى توعدكم به اليهود فلا تضيعوا الفرصة من أيديكم ولا يسبقوكم إليه » ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوا دعوته وقبلوا الدخول فى الإسلام على يديه . وبعد أن نطقوا بالشهادتين وأظهروا إسلامهم قالوا لرسول الله : « يارسول الله .. إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك » ، ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى مدينتهم يضىء قلوبهم نور الإسلام منشرحة صدورهم بعد أن واعدوا خير الأنام . وقبل أن ينصرف هؤلاء الرجال تواعدوا مع رسول الله أن يلتقوا به فى مكة العام المقبل .

ولما عاد هؤلاء النفر المبايعون الأول ، إلى قومهم وجدوهم على خلاف ماذهبوا به ، وجدوا السماحة على وجوههم والبشر فى أعينهم ، فسألوهم عن خبرهم ، فذكروا لهم رسول الله وماكان لهم معه ودعوهم إلى الدين الجديد الذى اعتنقوه، ففشى أمرهم فى يثرب ولم تبق دار من دورها إلا وفيها ذكر محمد .

وفى العام التالى (٦٢١ ميلادية) وافى الموسم فى مكة من أهل المدينة

إثنا عشر رجلاً ، والتقوا برسول الله عند العقبة ، فأسلموا وبايعوا رسول الله بيعة عرفت « ببيعة النساء » لأن النساء بايعن رسول الله عليها ، وعرفت أيضاً فى التاريخ « ببيعة العقبة الأولى » ، وكان من بين هؤلاء المبايعين عشرة رجال من الخزرج وإثنان من الأوس ، وكان بينهم الستة رجال المبايعون الأول عدا جابر السلمى . وكان نص البيعة بينهم وبين رسول الله على ألا يشركوا بالله شيئا ، وألا يسرقوا ، ولا يزنون ، ولا يقتلون أولادهم ، ولا يأتون ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم ، ولايعصون الله فى معروف .

فلما إنصرف المبايعون عن رسول الله بعث إلى مدينتهم أكفأ أتباعه وأكثرهم علماً ليقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين ، بعث إليهم « مصعب بن عمير » واصطحب معه « عمرو بن أم مكتوم الأعمى » ، وقد نزلا فى المدينة على أبى أمامة أسعد بن زرارة ، وقد عُرف مصعب فى المدينة باسم « المقرىء » ، وكان يصلى بالناس ، وقد أسلم على يديه خلق كثير من أهل المدينة، الذين باتوا يعرفون « بالأنصار » ، وهي تسمية جديدة صارت لهم بعد نصرهم للنبى ودخولهم فى الإسلام . ولقد أسلم كبار قوم المدينة وسيدان من سادتها وهما : « سعد بن معاذ » ، و« أسيد بن حضير » ، وأسلم بإسلامهما جميع قومهم من « بنى الأشهل » فى يوم واحد رجالاً ونساء .

وبعد ذلك بعام (٦٢٢ م) رجع مصعب بن عمير إلى مكة ، وخرج عدد ممن أسلموا من أهل المدينة فى الموسم مع حجاج قومهم الذين لم يسلموا حتى قدموا مكة، فواعد المسلمون منهم رسول الله اللقاء عند العقبة أوسط أيام التشريق من شهر ذى الحجة . وتم اللقاء مع رسول الله هناك وكان عدد المجتمعين ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من نسائهم لمبايعة رسول الله، وكانت إحدى الإمرأتين هى « أم عمارة » ، نسيبة بنت كعب من نساء بنى مازن من بنى النجار ، والثانية هى « أم منيع » ، أسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سلمة من بنى النجار . وكان عدد الأوس أحد عشر رجلاً وعدد الخزرج أثنان وستون رجلاً .

وجاء رسول القوم ومعه عمه « العباس بن عبد المطلب » ، وهو يومئذ على

دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر أخيه ويتوثق له ، وتعرف هذه البيعة « ببيعة العقبة الثانية » .

فلما جلس محمد مع وفد المدينة المسلم ، وقف العباس فيهم خطيباً وكان جهوري الصوت ، فقال : « يامعشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه وأنتم على ماتحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده » .

فقالوا له : « قد سمعنا ، فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت » . فتكلم رسول الله وتلا القرآن ودعا إلى الله ورغبهم في الإسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » . فتقدم « البراء بن معرور » ، سيد قومه ، ثم قال : « نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يارسول الله فنحن والله ابناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر » . وقام « الهيثم بن التيهان البراء » فتكلم وقال : « يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا لقاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » ، فتبسم رسول الله ، ثم قال : « لا والله، بل الدم الدم والهدم الهدم ، وأنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . فبسط يده فبايعوه (بيعة الحرب) وكان أسعد بن زرارة أول المبايعين ، ثم البراء بن معرور ، ثم بايع بقية القوم . ثم قال لهم رسول الله : « اخرجوا إليّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم » ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، هم من الخزرج : أسعد بن زرارة ، وعبد الله بن رواحة ، وسعد بن الربيع ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، ومن الأوس : أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمه بن الحارث ، ورفاعة بن عبد المنذر بن زيد ، وقيل أبو الهيثم بن التيهان مكانه .

فقال رسول الله للنقباء : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلا ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى (المسلمين) » .

قالوا : « نعم » فرجع القوم إلى مضاجعهم وناموا حتى الصباح ، وفى الصباح جاء عدد كبير من أهل قريش إلى منازل الأنصار ليتبينوا حقيقة ماوصلهم بصددهم من أخبار إسلامهم واتباعهم لدين محمد .ولمأ تيقنوا من ذلك حاولوا أن يرجعوهم عما بايعوا رسول الله عليه دون جدوى . وسارع الأنصار بالعودة إلى مدينتهم وخرج القرشيون فى طلبهم فنجح معظمهم فى الافلات إلا نقيبان من نقبائهم وهما سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو . فقاتل المنذر القوم حتى غلبهم ونجى بنفسه ، أما سعد فنجحوا فى أسره وربطوا يديه إلى عنقه بحبل راحلته ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويشدونه من شعره ، وكان غزير الشعر . وكان سعد قد أجار « جبير بن المطعم بن عدى » و« الحارث بن حرب بن أمية » حين خرجا فى تجارة إلى المدينة ، فلما وصل مكة هتف باسمهما وذكر مابينه وبينهما فخرجا له وكانا فى المسجد عند الكعبة فقاما بتخليصه من أيدى آسريه واطلقوا سراحه ، ففر هارباًناجياً بنفسه وبدينه ليلحق بقومه المسلمين إلى المدينة .

ولمأ أذن الله لرسوله أن يسمح للمسلمين من أهل مكة بالهجرة إلى المدينة ، أذن لهم رسول الله بالهجرة إليها واللحوق باخوانهم مسلمى المدينة الذين باتوا يعرفون باسم الأنصار . وقد قال رسول الله لمن أراد الهجرة من مسلمى مكة : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها » ، فخرجوا جماعة وراء أخرى مهاجرين إلى المدينة ، وأقام رسول الله بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

وكان عدد أول المهاجرين حوالى سبعون ، كان من بينهم : « أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد » ابن عمة رسول الله ، وكان أول من هاجر إلى المدينة قبل بيعة العقبة بعام، وكان قد قدم من الحبشة ، فلما آذته قريش قرر الهجرة إلى المدينة ولحقت به بعد ذلك زوجه « أم سلمة » ومعها طفلها سلمة تحمله . وهاجر « عامر بن ربيعة » ومعه امرأته « ليلى بنت أبى حثمة بن غانم » . ثم

« عبد الله بن جحش » ومعه أهله وأخوه « عبد بن جحش » ، ومن نسائهم « زينب بنت جحش » و« حمنة بنت جحش » . وتتابعت بعد ذلك أعداد المهاجرين، ثم هاجر « عمر بن الخطاب » مجاهرا بهجرته مع « عياش بن أبى ربيعة المخزومى » ، ولحق بهما « زيد بن الخطاب » ، أخو عمر ، ثم هاجر « طلحة بن عبيد الله » و « صهيب الرومى » ، و« حمزة بن عبد المطلب » ، و « زيد بن حارثة » ، « وعبد الرحمن بن عوف » ، و« والزبير بن العوام » ، و « مصعب بن عمير » ، و« عتبة بن غزوان » ، و« عثمان بن عفان » .

وأقام رسول الله بمكة بعد هجرة أصحابه ينتظر أن يؤذن له بالهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المسلمين إلا من اضطره الحبس إلى البقاء ومن فُتن عن دينه وأجبُر على ذلك رغماً عنه . كذلك تخلف معه كل من إبن عمه على بن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قحافة ، الصديق . وقد استبقى الرسول علياً ليرد للناس ماعنده من أمانات لهم بعد هجرته ، كذلك استبقى أبا بكر ليكون صاحباً له فى الهجرة ، وكان أبو بكر كثيرا مايستأذن رسول الله فى الهجرة ، وكان الرسول يقول له : « لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحباً » فيطمع أبو بكر فى أن يكون الرسول صاحبه فى هجرته . لذلك إبتاع أبى بكر راحلتين بثمنمائه درهم واحتبسهما فى داره يعلفهما إعدادا لسفر الهجرة .

وتملك الغيظ قلوب كفار قريش لازدياد تابعى محمد والداخلين فى الإسلام ، وهجرة المسلمين إلى المدينة التى صارت ملاذاً للمسلمين. فاجتمع كبراؤهم فى دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون فى أمر محمد بعد أن ترسخت أقدام دعوته وصار خطراً عليهم وواقعاً مريراً لهم . وكان من أكابر المجتمعين عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وطعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، والبخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، ونبيه بن الحجاج السهمى ، وأخوه منبه بن الحجاج ، وأميه بن خلف ، ورأس الكفر أبو جهل عمرو بن هشام ، فتشاوروا فيما بينهم فى كيفية الخلاص من محمد ، فأشار بعضهم إلى وضعه فى الحديد وحبسه واعتقاله حتى الموت،

وأشار البعض الآخر إلى نفيه خارج البلاد ، ولم يتقبل المؤتمرون هذه الآراء وارتضوا فى النهاية برأى أشار به أبو جهل ومن ورائه ابليس : بأن تأخذ قريش من كل قبيلة من قبائلها فتى شابا جليداً نسيباً ويعطى كل منهم سيفاً صارماً فيعمدوا إلى منزل الرسول ويضربوه هناك ضربة رجل واحد فيقتلوه فيضيع دمه ويتفرق بين القبائل جميعاً فلا يقدر بنوعبد مناف ساعتها على حرب القبائل كلها ويستسلمون للأمر الواقع، وبذلك يتخلصون من محمد ويقضون على خطره. واستحسن الجميع هذا الرأى ووافقوا عليه وقرروا تنفيذه بأسرع مايمكن.

ولقد إختار المشركون لتنفيذ خطتهم فى الخلاص من محمد الليلة التى اختارها الله تعالى له لتكون ليلة الهجرة إلى المدينة ، فجاءت قريش بشبابها وأعطتهم السيوف لينفذوا ماخططوا له ووقفوا أمام باب الرسول ووقف معهم أبو جهل تأكيداً لتنفيذ المهمة ، وجاء الوحى إلى رسول الله وطلب منه ألا يبات الليلة فى فراشه وأن يحل مكانه على الفراش على بن أبى طالب وأن يتسجى علىٌ ببرده الحضرمى الأخضر . وخرج عليهم رسول الله وهم وقوف أمام الباب فأخذ حفنة من تراب فى يده ونثرها فى وجوههم وهو يتلو من سورة ياسين قوله تعالى : ﴿ **يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ . إلى قوله ﴿ **فأغشيناهم فهم لايبصرون** ﴾ فأخذ الله بأبصارهم فلايرونه ، وجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وقد ناموا وهم وقوف ، ثم انصرف متجهاً إلى منزل أبى بكر . ولما انصرف الرسول أتى المشركين آت لم يكن معهم فأيقظهم وسألهم : « ماتنتظرون ها هنا ؟ » ، قالوا: « محمداً » ، قال : « خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ثم ماترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته ، أفما ترون مابكم ؟ » فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم أخذوا ينظرون من شق الباب فيرون علياً متسجياً ببرد الرسول فى فراشه فيظنونه رسول الله، وظلوا على هذا الحال حتى الصباح ، وحين نهض علىّ من على الفراش تأكدوا من صدق محدثهم وفشل مسعاهم ، ونزل فى ذلك قول الله تعالى: ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو**

يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .
لقد حفظ الله نبيه وأخزى القوم الكافرين وجعل كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وأذن الله تعالى لنبيه بالهجرة رغم أنف المشركين .

وأتى رسول الله بيت أبى بكر بالهاجرة سراً ، فى ساعة كانت لايأتى فيها ، فلما رآه أبو بكر أدرك أن الأمر جد خطير ، فلما أخبره بإذن الله له بالهجرة وأنه سوف يكون صاحبه فيها ، فرح أبو بكر أشد الفرح وبكى من شدة فرحته ، وأخبره بخبر الراحلتين اللتين أعدهما للهجرة ، واستأجرا رجلاً من « بنى بكر » يدعى « عبد الله بن أريقط الليثى » وكان مشركاً يدلهما على الطريق . ولم يعلم بأمر الهجرة سوى أبو بكر وأهله وعلى بن أبى طالب ، وقد طلب الرسول من على أن يلحق به بعد أن يؤدى للناس أماناتها ، ولم يكن عند أحد بمكة شىء يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله لما يعرفونه عنه من صدق وأمانة .

فلما أجمع رسول الله الخروج ، خرج مع صاحبه أبى بكر من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر ثم عمدا إلى غار بجبل ثور ، وهو جبل على مسيرة يوم بجنوبى مكة ، فدخلا فيه يترقبان من داخله رد فعل قريش . وأمر أبو بكر إبنه عبد الله أن يتسمع لهما الأخبار فى نهاره ثم يأتيهما فى المساء بما عنده منها ، وأمر « عامر بن فهيرة » ، مولاه ، أن يرعى غنمه فى نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى فى الغار مع « أسماء بنت أبى بكر » بالطعام والشراب . وطلب أبو بكر من ابن أريقط أن يرعى الناقتين ويأتى بهما إلى الغار بعد ثلاث ليال . وأقام رسول اله وأبو بكر على ذلك الحال فى الغار ثلاثة أيام . وحين علمت قريش بخروج محمد رصدت مائة ناقة لمن يعثر عليه ويستدل على مكانه ويعيده اليهم. ووصلت كوكبة من فرسانهم إلى الغار متتبعين آثر النبى وصحبه ، ولكنهم وجدوا الأثر ينقطع عند مدخل الغار، ووجدوا على مدخل الغار عنكبوتاً مخيماً عليه وحمامة وقد وضعت بيضها مما يقطع بأن الغار لم يدخله أحد منذ وقت بعيد ، وكان العنكبوت والحمامة من جنود الله التى حفظت نبيه وحمته من كيد الكائدين . وقد تملك الخوف أبا بكر لا على نفسه ولكن

على رسول الله وقال له : « لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا » ، فقال له رسول الله مطمئنا : « لا تحزن ان الله معنا » . ولقد سجل الله تعالى هذا الموقف العظيم فى كتابه الكريم حيث قال : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى إثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** ﴾ .

أقام رسول الله وصاحبه فى الغار ثلاثة أيام وعين الله تحرسهما وترعاهما وأبو بكر يحيط النبى بحبه وخوفه عليه من أذى الهوام ومن تنبه الكفار إلى مكانه . وبعد انقضاء الأيام الثلاثة جاءهما ابن أريقط ، حسب اتفاقهما معه، بناقتيهما . كذلك جاءتهما أسماء بزاد يتزودان به فى الطريق فى هذه الرحلة الطويلة التى يقطعونها على الإبل بين مكة والمدينة وهى قرابة الأربعمائة وخمسين كيلو متر فى طريق غير ممهد ولا مألوف . وأرادت أسماء أن تربط سفرة الطعام وسفرة الماء ولم تجد ماتعلقهما به فشقت نطاقها إلى اثنتين فعلقت السفرة بنطاق وانتطقت الآخر وعُرفت لذلك باسم « ذات النطاقين » .

وكان خروج رسول الله من مكة لهلال ربيع الأول ووصوله المدينة يوم الثانى عشرة منه ، وقد قاد ابن أريقط الراحلتين وسار خلفهما عامر بن فهيرة، مولى أبى بكر ، ليخدمهما فى الطريق ، وسلك أبن أريقط طريقاً غير الطريق المعتاد سلوكه من مكة إلى المدينة حتى لاتكتشف قريش خبرهم وتقتفى أثرهم ، فسلك ابن اريقط بهم جنوبياً أسفل مكة ثم مضى بهما فى طريق ملتو حتى وصل ساحل البحر الأحمر حتى عارض الطريق أسفل من « عسفان » ، ثم سلك على أسفل « أمج » ، ثم اجتاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجتاز « قديداً »، ثم سلك بهما « الخرار » ، ثم « ثنية المرة » ، ثم « لقف » ، ثم « مدلجة محاج » ، ثم تبطن بهما مرجح إلى أن قدم « قباء » على بنى « عمرو بن عوف » قبيل ظهر الاثنين الثانى عشرة من ربيع الأول (٢٤ سبتمبر ٦٢٢ م) ، وكانت الشمس قد كادت تعتدل .

ولقد بلغ المسلمين فى المدينة خبر قدوم رسول الله إليهم فخرجوا فى استقباله وجعلوا يغدون كل يوم إلى منطقة « الحرة » ينتظرون مقدمه حتى علموا بنزوله قباء فى بنى عمرو بن عوف فتوافدوا عليه جماعات جماعات واستقبلوه بالحب والترحاب والغناء والأنشاد قائلين :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع   وجب الشكر علينا ما دعى لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع   جئت شرفت المدينة مرحبا ياخير داع

وأقام رسول الله خمسة أيام بقباء وأسس مسجده بها هناك ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام، ثم خرج تاركاً بنى عمرو بن عوف يوم الجمعة فأدركته صلاة الظهر فى بنى سالم بن عوف فى بطن وادى رانوناء فصلى بهم صلاة الجمعة فى بطن الوادى وكانت أول صلاة جمعة صلاها رسول الله بالمدينة .

ووصلت ناقة الرسول وأبى بكر مشارف المدينة فتزاحمت القبائل عليهما تمسك بخطاميهما وتريد كل منها نيل شرف نزول رسول الله عندها ، وحاول كل منهم إجبار الناقتين على الإناخة كلٌ عند داره ، ورسول الله يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » . فأنطلقت ناقة الرسول ومن ورائها ناقة أبى بكر حتى أتت عند دار بنى مالك من بنى النجار ، أخوال الرسول ، فبركت مكان باب مسجده اليوم بالمدينة . وكان هذا المكان مربدا (مكانا يجفف فيه التمر) وكان ملكا لغلامين يتيمين من بنى النجار وهما : سهل وسهيل إبنى عمرو . فاشترى رسول الله المكان منهما ، وأمر أن يبنى مسجده هناك ومسكنه.

وقد نزل رسول الله ضيفاً على قريب له من بنى النجار هو أبى أيوب خالد بن زيد الخزرجى الأنصارى، وسكن فى الطابق الأسفل من داره التى كانت تتكون من طابقين حتى يُبنى مسجده ومسكنه . وقد قام المسلمون يبنون المسجد بهمة وحماس وشاركهم رسول الله فى البناء ليزيد من همتهم وحماسهم وليضرب لهم مثلاً من أمثلة بساطته وتواضعه .

وبعث رسول الله ، وهو فى منزل أبى أيوب الأنصارى، زيداً بن حارثة وأبا رافع خادمه وأعطاهما بعيرين وخمسمائه درهم وطلب منهما أن يذهبا إلى مكة ليحضرا له إبنتيه فاطمة وأم كلثوم وزوجته سودة بنت زمعة وأسامة إبن زيد وأمه وحاضنته أم أيمن . ولقد استغرق بناء المسجد ومسكن رسول الله حوالى العام ، ولما انتقل رسول الله إلى مسكنه ، شرقى المسجد ، تزوج فيه من عائشة إبنة صديقه أبى بكر ، وهو مكان حجرة مدفنه الشريف اليوم ، وجعل لسودة مسكناً آخراً مجاوراً لمسكنه . وجعل فى مؤخرة المسجد موضع مظلل مسقوف يأوى إليه المساكين يسمى « الصُفة » . وكان عليه السلام يدعو أهل الصفة بالليل فيفرقهم على أصحابه ليتناولوا طعام العشاء مما يطعمون ويتعشى هو مع طائفة منهم.

وتلاحق المهاجرون إلى مدينة رسول الله فلم يبق فى مكة إلا المجبر على البقاء فيها واضطرته الظروف إلى ذلك . وصارت يثرب عاصمة الدولة الإسلامية الجديدة التى أقامها رسول الله منذ استقراره فيها . وتحوَّل اسم يثرب من ذلك الوقت وغلب عيها اسم المدينة المنورة التى أنيرت بمقدم رسول الله ، وخرجت من جنباتها مشاعل النور والهدى لتبدد ظلمات الشرك ولتحطم أصنام وأوثان الكفر وتنشر راية لا إله إلا الله محمداً رسول الله عالية خفاقة فى الآفاق .

* * *

٨- الرسول في عدة الحرب

من أول الأعمال الكبيرة التي قام بها رسول الله بعد فراغه من بناء مسجده المؤاخاة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ليُذهب عن المهاجرين وحشة الغربة ويؤنسهم بالأنصار من مفارقة الأهل والعشيرة وليشد أزر بعضهم ببعض مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **إنما المؤمنون أخوة** ﴾ . وتمت المؤاخاة في دار «أنس بن مالك» بين تسعين رجل نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار. آخى بينهم على المساواة وعلى أن يتوارثوا بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى زمن غزوة بدر حيث أنزل الله تعالى قوله: ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ رُد التوارث إلى الأرحام. آخى بين أبي بكر وخارجة بن زهير الخزرجي، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي. وآخى بين عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وبين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك وغيرهم.

كذلك قام رسول الله بموادعة يهود المدينة وكتب معهم في ذلك كتاباً عُرف «بالصحيفة»، عاهد فيه اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم وتعهد لهم بالنصرة والأسوة ما داموا تابعين مخلصين غير معاونين لمشركي قريش. واتفق الرسول في هذا العهد مع اليهود أن يدافعوا عن المدينة مع المؤمنين في حالة الحرب وتهديد العدو لها كل في منطقته. وساوى هذا العهد بين جميع اليهود على اختلاف طوائفهم. ونص كذلك على ألا يخرج أحد من اليهود من المدينة إلا بإذن الرسول. كما نص العهد أيضاً على «أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنه إذا حدث حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى الرسول، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها».

وبمؤاخاة المهاجرين والأنصار، والعقد مع يهود المدينة نجح رسول الله في تنظيم الجبهة الداخلية في المدينة ليستعد لمواجهة أي عدوان تشنه عليه

قريش من مكة، وهو يعلم أن قريشاً لن تتركه يأمن بدينه في يثرب بعد أن نجح في الإفلات من قبضة يدهم بهجرته من مكة. وانتظر رسول الله في المدينة محاربة قريش له كما انتظر الإذن من ربه له في القتال. وانصرم العام الأول من الهجرة دون قتال، وفي العام الثاني فُرض صوم رمضان على المسلمين، كما فُرضت عليهم الزكاة وقُرر لهم مستحقوها. وفي هذا العام زوَّج رسول الله ابنته فاطمة من ابن عمه علي بن أبي طالب، وفيها أيضاً صرف الله عز وجل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة في شهر شعبان بعد عام ونصف من مقدم الرسول إلى المدينة، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾. وفيها فرض الله القتال على المسلمين، بنزول أول آيات القتال، وهي قوله تعالى: ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾. لقد فُرض القتال على المسلمين لتحقيق العدل، وقد كان مُحرماً عليهم قبل الهجرة لظروف ضعفهم آنذاك وغلبتهم على أمرهم لقلة عددهم، ولكنه أُجيز لهم بعد الهجرة للدفاع عن دينهم ولإقرار العدل ودفع الظلم الذي وقع عليهم من قبل مشركي قريش بعد أن صاروا قوة وصارت لهم دولة في المدينة. وتبين هذه الآية طبيعة الحرب في الإسلام ووظيفتها فهي حرب دفاع لا حرب عدوان وقهر وتسلط، دفاع عن العقيدة والدين والعرض والحق.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾، وقوله تعالى: ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** ﴾.

ولقد كان رسول الله قائداً عظيماً في الحرب كما كان قائداً عظيماً في السلم، ولقد عرف عنه أصحابه ومن قاتل معه من المسلمين وقاتله من المشركين الشجاعة والإقدام وحب الجهاد وحسن القيادة ودقة تنظيم الجيوش. فكان عليه السلام يبعث البعوث يأتونه بخبر العدو ويطلع الطلائع ويبث العيون حتى يعرف كل شئ من أمر عدوه. ولم يكن الرسول مستبداً برأيه في الحرب إذ كان كثير المشاورة لأصحابه في أمر الجهاد، وكان دائم التفقد لقواته، وكان أقربهم للعدو.

وكان يحب الخيلاء في الحرب، وينهى عن قتل النساء والأطفال وقطع الشجر وإتلاف الثمار، كما كان ينهى عن التمثيل بقتلى العدو. وقد وقعت لرسول الله بين ثمانية وثلاثين غزوة وسرية. ولم يكن رسول الله يشارك في السرايا بل كان ينيب عنه من يتولى قيادتها، وكانت أشبه بالحملات الاستطلاعية، أما الغزوات فقد قادها عليه السلام جميعها بنفسه. وقد بلغ عدد السرايا التي أرسلها النبي قبل غزوة بدر ثمان سرايا اتجهت إلى جهات متفرقة.

وكان أول السرايا التي أرسلها رسول الله سرية جعل على لوائها عمه «حمزة بن عبدالمطلب» بعثه في ثلاثين رجل من المهاجرين ليعترضوا قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام، وكان في حراستها ثلثمائة رجل تحت رئاسة أبي جهل عمرو بن هشام. وبلغت السرية ناحية تُعرف «بالعيص» عند سيف البحر الأحمر، وهنالك اصطف الفريقان للقتال لكن «مجدي بن عمرو الجهني» حجز بينهما ولم يقتتلوا، وكان مجدي موادعاً للفريقين. وقد علمت قريش بعد هذه السرية أنه أصبح لمحمد قوة وأنه وقواته صاروا خطراً على طريق تجارتهم التي يعتمدون عليها كل الاعتماد في بناء اقتصادهم.

وبعد هذه السرية بعث الرسول سرية أخرى تحت قيادة «عبيدة بن الحارث ابن عبدالمطلب» إلى «بطن رابغ» في ستين من المهاجرين. ولقي عبيدة هنالك جمعاً عظيماً من قريش يقودهم «عكرمة بن أبي جهل». فوقع الرميْ بين الفريقين بالسهام ولكنهم لم يسلوا السيوف، وكان «سعد بن أبي وقاص» أول

من رمى من المسلمين يومئذ بسهم، فكان أول من رمى بسهم في سبيل الله، ولم يقع القتال بين الفريقين وانصرفوا .

ثم بعث الرسول بعد تلك السرية سعداً بن أبي وقاص إلى منطقة «الخرار»، من أرض الحجاز، على رأس سرية من عشرين رجل لتعترض عيراً لقريش وعهد الرسول إلى سعد ألا يجاوز الخرار، ولما وصل سعد بقواته وجد أن العير قد جاوزت الخرار قبل وصولهم بيوم فعادوا دون أن يظفروا بها .

وفي السنة الثانية للهجرة، كانت أول غزوة غزاها رسول الله بنفسه وتعرف بغزوة «ودان» أو غزوة «الأبواء». وقد خرج رسول الله يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر عند الأبواء، واستعمل سعداً بن عبادة على المدينة. ويوجد بالأبواء قبر السيدة آمنة أم رسول الله ﷺ . ولما وصل رسول الله بقواته إلى بني ضمرة عرضوا عليه الموادعة وعدم القتال على ألا يغزوهم ولا يغزوه ولا يعينوا عليه أحداً، فعقد تلك الموادعة مع سيدهم «مخشى بن عمرو الضمري» وعاد دون قتال.

وفي نفس العام خرج رسول الله يريد قريشاً وعيراً لها بقيادة «أمية بن خلف» ومعه مائة من المشركين. واستعمل رسول الله «السائب بن عثمان بن مظعون» على المدينة وسار بقواته حتى بلغ منطقة «بواط» من ناحية جبل رضوى، وهو جبل من جبال جهينة، وانتظر رسول الله هنالك شهري ربيع الآخر وجمادي الأولى دون أن يلقى كيداً فعاد إلى المدينة دون قتال.

وفي الشهر التالي لعودته للمدينة خرج رسول الله في جمادي الآخرة في مائة وخمسين من المهاجرين ليعترض عيراً لقريش ذاهبة للشام، وقد جاءه الخبر بخروجها من مكة وبها أموال قريش. واستعمل الرسول على المدينة « أبا سلمة بن عبد الأسد » وحمل لواءه «حمزة بن عبدالمطلب» وسار حتى وصل «ذا العشيرة»، ببطن ينبع، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهي العير التي خرجوا لها يوم بدر لما جاءت عائدة من الشام.

وبعد أن قدم رسول الله من غزوة العشيرة بعشر ليال، أغار «كرز بن جابر الفهري» على مرعى للمسلمين بالمدينة وساقه أمامه. فخرج رسول الله

في طلبه، واستعمل على المدينة «زيداً بن حارثة»، وبلغ رسول الله وادٍ يقال له «سفوان» من ناحية بدر، ووجد أن كرزاً فلت منه عائداً إلى مكة، فرجع رسول الله دون أن يحارب، وقد عُرفت هذه الغزوة بغزوة «بدر الأولى» تمييزاً لها عن غزوة بدر الكبرى.

وبعث رسول الله بعد عودته من بدر الأولى، في شهر رجب من العام الثاني للهجرة «عبدالله بن جحش الأسدي» في اثنى عشر رجلاً من المهاجرين، كل اثنين على بعير، وليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير مسافة يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به. فلما سار عبدالله يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم». فلما نظر عبدالله في الكتاب قال سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه فحوى كتاب رسول الله فمضوا جميعهم لتنفيذ ما أمرهم به الرسول.

فلما كانوا في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما فتخلفا في طلبه، ونفذ عبدالله بن جحش ومن معه أمر رسول الله ونزلوا بنخلة، فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وبقلاً وتجارة من تجارة قريش، وكان في العير عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبدالله بن المغيرة، والحكم بن كيسان، مولى المغيرة. فتشاور المسلمون في أمرهم، وقالوا: «نحن في آخر يوم من شهر رجب الشهر الحرام فإن قاتلناهم انتهكنا حرمة الشهر الحرام وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم»، ثم أجمعوا على قتالهم فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل، ثم قدموا المدينة بالعير والأسيرين.

فلما قدموا بما غنموا على رسول الله قال لهم: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذهما. فلمَّا قال رسول الله ذلك أُسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا وعنَّفهم إخوانهم المسلمون فيما صنعوا. وقالت قريش «لقد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال». فلما أكثر الناس في ذلك

نزل حكم الله في هذا الأمر في قوله تعالى: **﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾** . فلما فَصَّل القرآن في الأمر قبض الرسول العير والأسيرين، وأطلق سراح الأسيرين بعد أن دفعت عوائلهم ديتهما ألف وستمائة درهم. وأسلم الحكم بن كيسان وحسن إسلامه، أما عثمان بن عبدالله إبن المغيرة فلحق بمكة ومات بها كافراً.

غزوة بدر الكبرى:

ترقب رسول الله عودة قافلة قريش التجارية التي ذهبت إلى الشام عند عودتها وقرر أن يكمن لها وألا تفلت من يديه في عودتها كما فلتت من قبل عند ذهابها إلى الشام. وقصد رسول الله أن يستولي على ما تحويه هذه القافلة ليعوض به المسلمين الذين هاجروا من مكة واستولى القرشيون على كل مالهم هناك، وقد علم رسول الله أن قريشاً وضعت كل مالها في هذه القافلة التي كان يقودها شيخ قبيلة بني عبدشمس «أبو سفيان بن حرب» وساهم جميع القرشيين في رأسمالها. وكان مقرراً لهذه القافلة أن تعود إلى مكة من غزة في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة يحرسها رجال قريش وهم ما بين الثلاثين رجلاً والأربعين وكان من ضمنهم «عمرو بن العاص». وقد قال رسول الله للمسلمين: «هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»، وكانت قيمة البضائع التي حملتها القافلة تقدر بأكثر من خمسين ألف دينار. فتقدم لملاحقة القافلة ثلثمائة مقاتل مسلم منهم حوالي تسعون من المهاجرين والبقية من الأنصار. وكان رسول الله حين أراد الخروج لقريش استشار الناس في أمر الخروج فتكلم أبو بكر مؤيداً رسول الله في الخروج، وتكلم من بعده كل من عمر بن الخطاب والمقداد بن عمرو مؤيدين الخروج. ثم قال رسول الله: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وكان يريد رأي الأنصار، وكان

يريد خروجهم معه لأنهم حين بايعوه في العقبة بايعوه على نصرته من هاجمه بالمدينة من عدوه لا على أن يسير بهم إلى عدو خارج مدينتهم. فلمّا قال رسول الله ذلك، قال له سيد الأوس «سعد بن معاذ»: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟» قال: «أجل»، قال: «فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقي بك عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك بنا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله».

وتمم «المقداد بن الأسود» على قول سعد بقوله لرسول الله: «إنا لا نقول كما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقاتل من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك». فأشرق وجه رسول الله ونشّطه هذا القول، ثم قال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم». ثم ارتحل رسول الله ونزل قريباً من بدر، وأرسل علياً بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر لديهم. فأصابوا هنالك إبلاً لقريش جاءت تحمل لهم الماء فيهما «أسلم» غلام بني الحجاج و«عريض أبو يسار»، غلام بني العاص، فقبضوا عليهما وأتوا بهما إلى رسول الله، فقالا: «نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم الماء»، فسألهم رسول الله عن قريش، فقالا أنهما وراء الكثيب الذي بالعدوة القصوى قرب بدر، وسألهم الرسول عن عددهم: «قالوا كثيراً ولا ندري عددهم»، فسألهم: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: «يوماً تسعاً ويوماً عشراً»، فقال رسول الله: «القوم فيما بين التسعمائة والألف». وكان أبو سفيان حين أحس بخطر المسلمين، بخبرته أو بسبب عيونه، أرسل يستحث قريشاً لتنقذ قافلتها. فخرجت قريش تجيبه إلى ذلك، وخرجوا في حوالي ألف رجل وكل من يستطيع منهم حمل السلاح والقتال بقيادة أشراف قريش من المشركين وهم: عتبة بن ربيعة

وأخوه شيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة إبن الأسود وأبو جهل بن هشام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدود وأمية بن خلف. ونزلت هذه القوات قرب بئر بدر حيث طريق الشام شمالي ساحل البحر الأحمر المتجه إلى الداخل نحو مكة، وهي منطقة يبدأ منها طريق متفرع إلى المدينة. وأقبل رسول الله على الناس، وقال لهم: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

ونجح أبو سفيان في الهرب بالقافلة فتجنب السير في الطريق التجاري المعهود وسار في طريق آخر متجنباً منطقة بدر، وواصل سيره محاذياً للساحل قدر إمكانه. ووصلت القافلة مكة سالمة، وأرسل رسولاً من عنده يخبر الخارجين للقتال بنجاة القافلة، فأتاهم وهم «بالجحفة» فهموا بالرجوع لولا أن أبا جهل رفض الرجوع، وقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجُزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا». وأشار «الأخنس بن شريق» عليهم بالرجوع فلم يفعلوا، فرجع هو وقومه من بني زهرة، وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل فمضوا للحرب.

ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي، ونزل رسول الله مع رجاله قرب أدنى ماء بدر من ناحية المدينة. عندئذ سأل «الحباب بن المنذر إبن الجموح» رسول الله عن سر اختياره للمكان الذي نزلوا فيه قائلاً: «يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟» قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: «يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوِّر ما وراءه من القلب (أي نتلفه) ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون»، فقال رسول الله: «لقد أشرت بالرأي» فنهض رسول الله فنفذ ما أشار به الحباب، ثم بُني لرسول الله عريشاً (خيمة) يستظل فيه ويرقب منه المعركة بناءً على مشورة سعد بن معاذ.

ولـمَّا رأى رسول الله قريش أقبلت قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم نصرك الذي وعدتني، اللهم أهلكهم الغداة»، وقام ورفع يديه واستنصر ربه وبالغ في التضرع، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض بعد».

ولمَّا اطمأنت قريش ووقفت قبالة المسلمين عند بدر والشمس في عيونهم، بعثوا «عميراً بن وهب الجمحي» ليتعرف على عدد أصحاب محمد، فاستجال بفرسه حول عسكر المسلمين، ثم رجع إليهم فقال: «ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون وما وجدت لهم كميناً أو مدداً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش النوق تحمل المنايا إبل يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجُل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم».

فلمَّا سمع «حكيم بن حزام» ذلك مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال له: «يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟»، قال: «وما ذاك يا حكيم؟»، قال: «ترجع بالناس»، فقام عتبة خطيباً في الناس، وقد اقتنع بقول حكيم، وقال: «يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن قتلتم محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون»! فانطلق حكيم إلى أبي جهل وأخبره بقول عتبة، فرفض أبو جهل قوله وقال متحدياً: «كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد»، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، واستعدت قريش للقتال.

وفي يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، خرج الأسود بن عبدالأسد المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق، يريد أن يستولي على حوض ماء

المسلمين حتى تشرب منه قريش، وقد تعرضت العطش بسبب نقص الماء وشدة حرارة الطقس، وقال الأسود: "أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه" فلما خرج ووصل إلى الحوض خرج له حمزة بن عبدالمطلب وتصدى له، ولمًا احتكما إلى السيف، عاجله حمزة بضربة من سيفه فأطار قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على الأرض على ظهره ورجله تشخّب دماً، ثم حبى إلى الحوض حتى اقتحمه يريد أن يبر بقسمه فاتبعه حمزة بضربة أخرى من سيفه حتى قتله في الحوض.

وأثارت دماء الأسود قريشاً، فخرج للنزال كل من عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة، ودعوا المسلمين إلى المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار هم: «عوف بن الحارث» وأخوه «معوذ بن الحارث» و«عبدالله إبن رواحة»، فقالوا: «رهط من الأنصار»، قالوا: «ما لنا بكم حاجة»، ثم نادى مناديهم: «يا محمد اخرج إلينا أكفاءنا من قومنا»، فأمر رسول الله بخروج كل من علي بن أبي طالب وعمه حمزة وعبيدة بن الحارث لهم، فلمًا قاموا ودنوا منهم قالوا: «من أنتم؟؟»، فسمى كل واحد نفسه، فقالوا: «نعم، أكفاء كرام». فبارز عبيدة عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة أخاه شيبة وبارز علي الوليد. فأما حمزة فلم يمهل شيبه فقتله سريعاً، كذلك قتل عليٌ الوليد، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما جرح صاحبه جرحاً بالغاً، فكرٌ حمزة وعليٌ بأسيافهما على عتبة وأجهزا عليه واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه وقد قطعت رجله. وألهبت الدماء المراقة حماس الناس فتزاحف الفريقان ووقع بينهما القتال، وكانت وقعة بدر الكبرى صبيحة يوم الجمعة السابع عشرة من شهر رمضان من العام الثاني للهجرة.

كان عدد المسلمين قليلاً بالنسبة لعدد أعدائهم لكن قوة الإيمان زادتهم عدداً، وأخذ رسول الله يعدل في الصفوف، ورجع إلى العريش لمًا احتدم القتال وحمي وطيسه ومعه أبو بكر، وأخذ رسول الله يناشد ربه ما وعده من النصر، فقال له أبو بكر: "يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك». وأخذت رسول الله سنة خفيفة من النوم، ونزل مطر من السماء، ثم

انتبه وقد تهلل وجهه، فقال: «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذاً بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع (التراب)». ولقد أنزل الله تعالى ملائكته لا ليقاتلوا مع المسلمين ولكن ليثبتوا أقدامهم ولتطمئن بوجودهم قلوبهم ويثقوا في نصر الله الذي وعده لنبيه وللمسلمين. وفي حال النبي هذه وأصحابه نزلت الآيتان الكريمتان: ﴿ **يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ .

وخرج رسول الله من العريش يحرض الناس على القتال، وقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة». وجاءه جبريل بقوله تعالى: ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنةً وينزل عليكم من السماء ماءًليطهركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب** ﴾ . وأخذ رسول الله حفنةً من تراب وألقاها أمامه على وجوه رجال قريش وهو يقول: «شاهت الوجوه»، وقال لأصحابه: «شدوا عليهم سيُهزم الجمع ويولون الدبر».

وكان النصر الذي وعد الله به نبيه والمؤمنين وكانت الهزيمة لأعداء الدين؛ فما كاد النهار ينتصف حتى انجلت المعركة عن هزيمة قريش ومقتل سبعين

رجل من مقاتليها وأسر سبعين آخرين واستشهاد أربعة عشر رجل من المسلمين. وقد قُتل في هذه المعركة أشراف قريش من أمثال عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة بن ربيعة. كما قُتل فيها رأس الكفر أبو جهل عمرو بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص إبن هشام، ونبيه بن الحجاج وأخوه منبه بن الحجاج. وبعد المعركة أمر رسول الله أن يدفن المسلمون حيث استشهدوا بملابسهم ودون الصلاة عليهم، وهذا مكان الشهداء الذين بشر الله تعالى بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون في قوله: **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .**

كذلك تعرَّف رسول الله على قتلى قريش، وأمر رجاله أن يحفروا «قليباً» في مكان المعركة يدفنون فيه. فلمَّا دفنوا في القليب، وقف رسول الله على القليب يناديهم بأسمائهم فرداً فرداً ثم سألهم قائلاً: «يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإنِّي وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر: «يارسول الله ما تكلِّم من أجساد لا أرواح لها؟» فقال: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم أعلم لما أقول منهم». وأرسل رسول الله إلى المدينة «عبدالله بن أبي رواحة»، وزيداً بن حارثة» ليزفا بشرى النصر للمسلمين بها، فوصلاها وقت انصراف المسلمين من دفن «رقية» بنت رسول الله وزوجة عثمان بن عفان.

وعاد رسول الله إلى المدينة ليجمع بين الفرح والحزن، الفرح لانتصار المسلمين والحزن لوفاة ابنته وفلذة كبده، ولكن رسول الله كابد حزنه وأخفاه في قلبه حتى لا يفسد على المسلمين نشوة انتصارهم على أعداء الله في واقعة بدر. وحمل رسول الله معه أسارى المشركين وساق أمامه غنائمهم، وحين وصل إلى منطقة «الصفراء» أمر بقتل «النضر بن الحارث بن أبي كلدة»، وكان قد وقع في الأسر، وكان من أشد الناس إيذاءً للرسول والمسلمين. كذلك أمر عندما وصل إلى «عرق الظبية» بقتل «عقبة بن أبي معيط»، وكان مثل النضر في شدة إيذائه للرسول والمسلمين.

ولمّا وصل خبر الهزيمة إلى مكة جن جنون من بها، وسادهم الحزن وركبهم الهم والغم وأدركوا سوء العاقبة والمصير. وقامت النسوة يندبن وينتحبن ويشققن جيوبهن على من قُتل من رجالهن. وكانت أشد النساء حزناً وانتحاباً «هند بنت عتبة بن أبي ربيعة» زوج أبي سفيان لقتل والدها وعمها وأخيها في بدر. وقد نذرت ألا تستحم ولا تتطيب ولا تعتلي فراش أبي سفيان إن لم تأخذ بثأر من قُتل من أهلها. ووقع خبر الهزيمة كالصاعقة على رأس أبي لهب، عم الرسول، وانقلب كمده إلى حمى شديدة انتابته وأتت عليه فكانت سبب موته بعد هزيمة بدر بسبع ليال، فانقلب إلى النار التي وعده الله بها هو وزوجه حين قال سبحانه فيهما: ﴿ **سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد** ﴾. وكان أبو لهب قد تعلل بالمرض ولم يخرج للقتال مع المقاتلين من رجالات قريش وأرسل من ينوب عنه في القتال فأصابته سهام المعركة وهو في داره. وبعد المعركة أعلن رأس النفاق في المدينة «عبدالله بن أُبَيّ بن أبي سلول» دخوله في الإسلام، ليس حباً فيه وإيماناً منه به، ولكن نفاقاً ومراوغة منه لتحقيق أطماعه في السيادة والرئاسة في ظل حكم الدولة الجديدة.

ولقد بيَّن الله تعالى فضله على المسلمين في نصر بدر وتأييده لهم، وقد كانت أول تجربة عسكرية لهم يخوضونها دون أن تكون لهم التجربة والخبرة القتالية ودون أن يكون لهم من عدد ولا سلاح إلا سلاح الإيمان بالله والثقة في نصره لقوله تعالى: ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾.

وقد نزل في حق هذه المعركة قوله تعالى: ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاث آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ياتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا ويكبتهم فينقلبوا خائبين** ﴾.

ويتضح من هذه الآيات أن موقف المسلمين كان أضعف من موقف أعدائهم من ناحية الاستعداد المادي في العدد والسلاح والخبرة القتالية، لكن النبي طمأنهم بأن الله معهم وأنه سبحانه يدافع عن الذين آمنوا، وأنه سوف يعد سبحانه ثلاث آلاف من ملائكته يكونوا في وضع الاستعداد لمعاونتهم إذا ما مالت كفة الحرب في غير صالحهم. وفي حالة زيادة صبرهم وشدة تقواهم فإن الله سوف يزيد هذا المدد إلى خمسة آلاف ملك من الملائكة. وبهذا يعلم الله تعالى عباده المؤمنين أنه كلما زادت درجة المحارب المؤمن من الصبر والتقوى والإيمان بالله زادت القوة المساندة له من عند الله تعالى. ولقد وقفت الملائكة في وضع الاستعداد يوم بدر للقتال تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتأكيداً لرغبتهم في القتال حتى الموت. ولذلك كان النصر في بدر أولاً وأخيراً لجهود المسلمين وكان التثبيت والنصر من عند الله العزيز الحكيم. لم تقاتل الملائكة مع المسلمين في بدر ولو قاتلوا لأبادوا كل جيش المشركين، ولو قاتلوا أيضاً لما قُتل واحد من جنود المسلمين، لكن الله تعالى ترك المسلمين يقاتلون بأنفسهم حتى يثبت لهم أنهم بقوة الإيمان وبروح التضحية والاستبسال في سبيل الدين تستطيع هذه القلة المؤمنة القليلة أن تنتصر على الكثرة الكبيرة من الأعداء ما داموا مع الله وما دام الله معهم ﴿ **وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله** ﴾ . لم يفعل المسلمون في بدر مثلما فعل بنو إسرائيل مع موسى حين تخاذلوا عن الحرب وظنوا أن الله سوف يحارب لهم وهم جالسون حين قالوا لموسى: ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ ، ولكنهم قاتلوا وجاهدوا واقبلوا على الموت في استبسال وشجاعة، فكان لهم التأييد والنصر من الله الذي قال وقوله الحق: ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ . وعندما علم المسلمون بالمدينة بمقدم القوات المنتصرة خرجوا في استقبالها وانتظروا عند الروحاء، على بعد خمسة وثلاثين ميلاً منها .

وفي المدينة اجتمع رسول الله مع صحابته للنظر في أمر أسرى قريش، وكانت تلك عادته حين يريد أن يحسم في أمر من الأمور، فإذا تأخر عليه

الوحي سأل صحابته واستشارهم ثم أعمل رأيه فيه. ولمّا تأخر الوحي على رسول الله سأل صحابته في أمر الأسرى، وبدأ بالسؤال أبا بكر. فقال له أبو بكر: «يا رسول الله قومك وأهلك واستبقهم لعل الله يتوب عليهم، أرى أن تأخذ الفدية عنهم حتى تكون لنا قوة على الكفار وعسى أن يهديهم الله للإسلام». ولمّا سأل رسول الله عمر بن الخطاب أشار عليه بقتل فرسان قريش حتى يكونوا عبرةً لغيرهم، قال عمر: «يا رسول الله لقد كذبوك وأخرجوك فقدّهم إلى القتل واضرب أعناقهم». ولمّا سأل رسول الله «عبدالله بن رواحة» أشار عليه بإحراقهم جميعهم بالنار. وانتظر الناس ماذا سيفعل رسول الله بالأسرى وقد كان من بينهم عمه العباس بن عبدالمطلب، الذي حضر معه بيعة العقبة، وابن عمه عقيل بن أبي طالب أخو علي، ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عم الرسول، وأبو العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، وعمرو بن أبي سفيان، وأبو عزيز بن عمير، أخو مصعب بن عمير، وسهيل بن عمرو، فمال رسول الله إلى رأي أبي بكر بأخذ الفدية مع الإطلاق. وتم ذلك، وقد تراوحت الفدية بين ألف درهم وأربعة آلاف درهم لكل فرد. وقد مَنّ رسول الله بالعتق على من لم يستطيعوا لفقرهم دفع الفدية، وهم: المطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبا عزة الجمحي، وأبا العاص بن الربيع زوج ابنته زينب على أن يطلقها.

وقد قال رسول الله في ذلك بعد أن اتخذ قراره: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى بن مريم حيث قال: ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ . وإن مثلك يا عمر مثل موسى حيث قال: ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ولا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ . وإن مثلك يا ابن رواحة مثل نوح حيث قال: ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً** ﴾ أنتم عالة فلا يفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق». فأنزل الله تعالى يؤيد رأي عمر ويوافق على ما فعله النبي بقوله تعالى:

﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴾.

وكانت نتائج انتصار معركة بدر هامة بالنسبة للمسلمين، فإضافة للمكاسب المادية التي كسبها المسلمون من المشركين ليتقووا بها، فإن المغنم المعنوي كان أكبر. فهذا هو النصر الأول لقواتهم الذي ثبت أركان دولتهم في كل الحجاز وفي المدينة بالذات وأرهب أعداءهم ممن كانوا يتربصون بهم من اليهود والمنافقين ومن كانوا لا يزالون على ملة الكفر. وكانت معركة بدر، شأنها شأن المعارك الأولى الحاسمة والمصيرية في تاريخ أي دعوة أو حركة، إذ لابد من إحراز النصر فيها لتتثبت الأقدام وترسخ قواعد البنيان. وها هو محمد يعود إلى المدينة يحمل إكليل الغار، فرحاً بنصره واثقاً من نصرة الله لدينه ودعوته، ومن هذا المنطلق انطلق رسول الله ليقضي على كل معارضي دعوته وليقيم دولة الإسلام في كل الجزيرة العربية رغماً عن قريش وعن المشركين. وبعد هذه المعركة زوّج رسول الله ابنته فاطمة من ابن أخيه علي بن أبي طالب، وكان عمر فاطمة آنذاك خمس عشرة سنة وعمر علي إحدى وعشرون سنة. كذلك تزوج رسول الله من السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق.

وغزى رسول الله بعد بدر غزوات صغيرة لم يلق فيها عدو ولم يقاتل، وهذه الغزوات هي: «غزوة بني سليم» بالكدر، وهو اسم المنطقة التي كانت تسكنها القبيلة. وقد وصل رسول الله إلى ديارهم، وقد بلغه تجمعهم لحربه مع بني غطفان، بعد عودته إلى المدينة من بدر في أوائل شوال. وأقام رسول الله بقواته عند مياه بني سليم ثلاث ليال دون أن يخرج أحد لقتاله، فرجع رسول الله إلى المدينة دون أن يلق كيداً.

كذلك غزى رسول الله «غزوة السويق»، وهي تنسب إلى السويق الذي أخذه المسلمون من قريش في أعقاب فرارهم. وكان أبو سفيان لمّا رجع مكة من

بدر، قد أقسم على ألا يمس رأسه ماء من جنابه حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتي رجل من قريش ليبر بيمينه. فوصل برجاله إلى منطقة قرب المدينة يُقال لها «العريض»، فأحرق بعض نخلها، وقتل رجاله اثنين من الأنصار وجدوهما في حرث لهما ثم انصرفوا راجعين إلى مكة. ولحق بهم رسول الله حين علم خبرهم ولكنهم هربوا تاركين سويقاً كثيراً لهم وراءهم، فاغتنم المسلمون هذا السويق وعادوا للمدينة، ولذلك عُرفت هذه الغزوة بغزوة السويق.

ولمّا رجع رسول الله غزى منطقة نجد يريد قبيلة غطفان، التي كانت قد تحالفت مع بني سليم لحربه، فوصل إلى منطقة «أنمار»، وهي ناحية في نجد، ومكث هنالك شهراً دون أن يخرج بنو غطفان لقتاله، فعاد إلى المدينة دون أن يحارب. ثم غزى، بعد ذلك، عليه السلام منطقة «نجران» وأقام بها شهراً، دون أن يلق أحداً من القبائل التي سمع عن تجمعها هنالك واستعدادها لقتاله.

كذلك أرسل رسول الله «زيداً بن حارثة» لقطع الطريق أمام تجارة لقريش ولأبي سفيان فيها «صفوان بن أمية» و«حويطب بن عبدالعزى»، وقد سلكت هذه القافلة التجارية طريقاً غير طريقها المعتاد إلى الشام بعد وقعة بدر، فسلكوا طريق العراق، وكان مع القافلة فضة كثيرة. ولقد التقى زيد بهذه القافلة على ماء يقال له «القردة» وهو من مياه نجد، فأصاب عيرهم وما فيها وهرب الرجال، وقدم زيد بالعير وبما تحمل إلى المدينة، وقد قُدر ثمن البضائع التي استولوا عليها بمائة ألف درهم، وقد قام رسول الله بتوزيع ذلك الفئ على المسلمين. وبعد تلك السرية بشهرين تزوج الرسول من حفصة بنت عمر إبن الخطاب وكانت أرملة في الثامنة عشرة من عمرها لتزداد صداقته بعمر بعد أن تقوت بمصاهرته صديقه أبي بكر بزواجه من عائشة، وفي ذلك الوقت أنجبت فاطمة بنت الرسول ابنها الحسن.

* * *

وتجددت أحزان بدر عند القرشيين بسبب ما حصل عليه المسلمون من غنائم، كذلك تملك الحسد والحقد قلوب يهود المدينة على انتصارات رسول الله، وكانوا يتمنون له الهزيمة رغم موادعته لهم وإعطائهم الأمان. وبدأ تحرش

اليهود برسول الله وقيامهم بنقض تعاهدهم معه عقب غزوة بدر مباشرة لمّا بدر من يهود «بني قينقاع»، حلفاء عبدالله بن أُبَي. وكان بنو قينقاع أضعف يهود المدينة، ولم يكن ضعفهم بسبب قلة عددهم، ولكن بسبب عملهم كحرفيين وبخاصة حدادين. وقد كان في إمكانهم أن يجمعوا حوالي سبعمائة مقاتل منهم في أي مواجهة مع المسلمين، منهم حوالي أربعمائة رجل مسلحين تسليحاً جيداً. وكانت بداية حرب الرسول لبني قينقاع حين نقضوا العهد بينهم وبينه باعتدائهم على امرأة مسلمة في سوقهم وتعرضها للأذى على أيديهم. وكانت امرأة مسلمة قد قدمت إلى سوق بني قينقاع ببضاعة لها فباعتها وجلست إلى صائغ يهودي منهم ليصنع لها حلية. فطلب منها اليهودي أن تكشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ووقع الشر بينهم وبين يهود بني قينقاع. وانسحب يهود بني قينقاع بعد ذلك إلى حصونهم وظن اليهود أن حليفهم ابن أُبّي سوف يتدخل لإنهاء الخلاف بينهم وبين المسلمين وسوف يهب بقية اليهود لنصرتهم إذا ما تعرضوا لأي شر من جانب المسلمين. فسار إليهم رسول الله وخاطبهم من وراء حصونهم قائلاً: «يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم».

فقالوا له: «يا محمد إنك ترى أنا قومك؟ لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس». فحاصرهم رسول الله في حصونهم مدة خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة حتى انهارت مقاومتهم، فاستسلموا. فقام عبدالله بن أبي إلى رسول الله، حين أمكنه الله منهم، وطلب لهم العفو.

فوافق رسول الله على خروجهم من المدينة خلال ثلاثة أيام تاركين أراضيهم للمسلمين، فخرجوا راحلين إلى شمال المدينة حيث يقيم أقرانهم من اليهود في منطقة «أذرعات» وأرسل رسول الله «محمد بن مسلمة» ليقتل كعب

إبن الأشرف أحد زعماء اليهود بالمدينة من بني النضير الذي كان قد قدم إلى مكة يحرض رجالها على الأخذ من المسلمين بثأر بدر ويحثهم على قتال رسول الله، فذهب إليه ابن مسلمة وقتله وهو نائم في فراشه في داره وحصنه.

غزوة أحد:

كان وقع غزوة بدر قاسياً على أهل مكة قابلوه بالحزن والألم الذي سرعان ما تحول إلى حقد وثورة في النفوس ورغبة عارمة في الثأر والانتقام. ولقد أقسم «أبو سفيان بن حرب»، زعيم مكة، ألا يقرب النساء حتى يثأر من المسلمين. ومشى «عبدالله بن أبي ربيعة»، و«عكرمة بن أبي جهل»، و«صفوان إبن أمية» في رجال من قريش ممن قُتل آباؤهم وإخوانهم يوم بدر من أصحاب القليب فكلموا أبا سفيان في حرب محمد وأخذ الثأر منه ووافق ما يعتمل في صدره مع ما جاءوا إليه. فاجتمعت قريش للحرب وأعلن أبو سفيان رصد أرباح القافلة التي نجت للإعداد للحرب، وقدرت بخمسين ألف دينار. وأرسلت قريش إلى حلفائها تطلب عون رجالها في قتال محمد، فأرسلت الطائف مائة من خيرة محاربيها، إضافة إلى انضمام المئات من الأحابيش (خزاعة)، وتكوّن جيش مكة من حوالي ثلاثة آلاف مقاتل بينهم مائتي فارس والباقون من الرجالة. وتزود الجيش بثلاثة آلاف بعير، وخرجت معه عدد من النسوة يغنين ويشجعن المقاتلين على القتال بقيادة «هند بنت عتبة بن ربيعة»، زوجة أبي سفيان، التي خرجت تنتقم لمقتل أبيها وأخيها وعمها الذين قتلوا في بدر، وكانت قد أقسمت ألا تغتسل وألا تضع الطيب أو تنام في فراش زوجها حتى تثأر لقتلاها. وقد استأجرت هند غلاماً حبشياً «لجبير بن مطعم» يُدعى «وحشي»، وهو ماهر في الرمي بالرمح والحراب، ووعدته بالعتق إذا هو قتل حمزة عم النبي. وسار جيش مكة متجهاً إلى المدينة وعلى ميمنته «خالد إبن الوليد»، وعلى ميسرته «عكرمة بن أبي جهل». واستغرقت مسيرة الجيش عشرة أيام حتى وصل المدينة إلى موقع غرب جبل أُحُد. ويقع جبل أحد علي بُعد ثلاثة أميال شمال وسط المدينة، وقد سمي بذلك لتوحده وانقطاعه عن

جبال أخر هناك، وهو يشبه مضيق عريض يقع بين حقلين متسعين من حقول الصخور البركانية. وقد وافق وصول القرشيين أُحُد ليلة الخميس الخامس من شهر شوال للسنة الثالثة من الهجرة.

ولقد علم الرسول في المدينة بأمر الجيش الذي سيَّرته قريش لمقاتلته به، وكان العباس عم الرسول قد كتب كتاباً إلى النبي يخبره بذلك حتى يعد للأمر عدته. فلما تيقن الرسول من أمر قريش جمع المسلمين واستشارهم في أمر محاربة القرشيين وكيفية هذه الحرب، هل يخرجوا إليهم ويلاقوهم خارج المدينة أم يبقوا في المدينة ويتخندقوا فيها ويقاتلون قريشاً من داخلها دفاعاً عنها. وفي صباح يوم الجمعة الباكر عقد الرسول مجلس حرب، وكان رأي الغالبية العظمى من المسلمين هو البقاء في المدينة والدفاع عنها، وكان ذلك أيضاً رأى عبدالله بن أبي بن أبي سلول، وقد وافق ذلك رأي الرسول. إلا أن عدداً من الشباب المتحمس الذي فاته المشاركة في غزوة بدر، أصر على الخروج حتى لا يتهم المسلمون بالجبن والتخاذل، ووافقهم الرسول على ذلك ولبس عدة الحرب.

وخرج رسول الله بقواته بعد صلاة الظهر في اتجاه أُحد على رأس ألف مقاتل، ونزل عند الشعب في عدوة الوادي إلى الجبل على بُعد ميلين من وسط المدينة، فجعل ظهره وعسكره إلى الجبل. وقد ظل يهود المدينة في مواطنهم ولم يتحركوا بسبب دخول ليل يوم السبت عليهم الذي يُحرم فيه القتال عندهم. وفي منتصف الطريق انسحب عبدالله بن أُبي بقواته وعاد إلى المدينة، وكانت تشكل ثلث مجموع القوات الإسلامية التي خرجت للقتال، وذلك بحجة عدم الأخذ برأيه في عدم الخروج والبقاء للدفاع عن المدينة.

وكانت تلك مناورة من رأس النفاق يحقق من ورائها أطماعه في الرئاسة في المدينة في حالة هزيمة جيش المسلمين. وفي الليل عسكر السبعمائة مقاتل الذين تبقوا مع الرسول عند «الحرة» عبر الصخور. وفي صباح يوم السبت عبرت قوات المسلمين الحرة واحتلت قمة جبل أحد حيث لا يستطيع فرسان مكة الصعود إليها واللحاق بهم هناك. ووزع الرسول الرماة على الجبل وأمرهم

بأن يظلوا في مكانهم لا يبرحونه بأي حال من الأحوال، وجعل على الرماة «عبدالله بن جبير» وكان عددهم خمسون رجلاً، وقد قال رسول الله لابن جبير «ادفع الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت في مكانك لا نؤتين من قبلك وإن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أُرسل إليكم».

ودفع الرسول اللواء إلى «مصعب بن عمير»، وأعطى عليه السلام سيفه إلى «أبي دجانة بن سماك بن خرشة»، وكان رجلاً أنصارياً شجاعاً يختال عند الحرب ويعتم بعمامة حمراء ساعة القتال تُعرف «بعصابة الموت».

وبدأت المعركة، وقام أبو سفيان يشجع رجاله، وقامت زوجته هند ومعها النسوة بضرب الدفوف خلف الرجال والغناء يشجعنهن على القتال. فاقتتل الناس وحمى وطيس المعركة، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في القرشيين بسيفه وحصدهم به. وأبلى في القتال كل من علي بن أبي طالب والنضر بن أنس وسعد بن الربيع. وأخذ حمزة بن عبدالمطلب يقتل في الكفار ويهد أعداءه بسيفه وبدى في الميدان كالجمل الأورق. وفي غمرة حصد حمزة لرقاب الأعداء تربص به وحشي ورماه غيلة بحربته فأصابت أسفل بطنه حتى خرجت من بين رجليه فقتلته. وقاتل مصعب بن عمير بكل قوة وشجاعة، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده ووقعت الهزيمة بالمشركين فولوا مدبرين حتى انتهوا إلى مواضع نسائهم.

ولمّا رأى الرماة النصر يتحقق وأيقنوا من انتهاء المعركة لصالحهم، تطلعوا إلى الغنيمة ونسوا تحذير رسول الله لهم. فنصحهم عبدالله بن جبير قائدهم فلم يسمعوا له وتركوا أماكنهم ونزلوا من أعلى الجبل لجمع الغنائم. وهنا لمح القائد المحنك خالد بن الوليد هذا التصرف الخاطئ من رماة المسلمين فاغتنم الفرصة واعتلى الجبل بقواته محتلاً مكان رماة المسلمين بعد أن تخلص من القلة التي ثبتت في مكانها في أعلى الجبل مع عبدالله بن جبير. ومن أعلى الجبل أخذ خالد ورجاله يرمون المسلمين بالنبال، وفوجئ

المسلمون بهذا التغير في الموقف، فارتبكت صفوفهم وأخذوا في الهرب والانصراف من حول رسول الله، فانقلب نصرهم إلى هزيمة. ووقف رسول الله يقاتل بسيفه في شجاعة نادرة غير عابئ بالموت. وقد أُلقي على رسول الله حجر أصاب شفته وكسر إحدى ثنيتيه، وأصيب وجهه الكريم بجرح غائر على أثر ضربة وجهها عبدالله بن قميئه إلى وجهه. وفقد رسول الله توازنه فوقع على صخرة وصاح صائحٌ من المشركين أن محمداً قد قُتل. ولكن الرسول استطاع الوصول إلى أحد منحدرات الجبل بسلام بفضل التفاف أصحابه حوله مدافعين عنه، وقام أبو عبيدة بن الجراح بإخراج حلقتي المغفر من وجنة رسول الله وامتص أبو سعيد الخدري الدم عن وجه الرسول ثم ازدرده. وقد قاتل صحابة رسول الله دون رسول الله حين وقع على الصخرة، وكانوا خمسة من الأنصار منهم «مصعب بن عمير»، و«عمارة بن يزيد بن السكن»، و«أبو دجانة» الذي ترّس نفسه دون رسول الله وهو منحن عليه يقع النبل في ظهره حتى كثُر فيه وهو لا يتحرك، وقاتلت «أم عمارة» نسيبة بنت كعب المازنية دفاعاً عن رسول الله وهي جريحة تنزف دماً على أثر ضربة ضربها لها ابن قميئة. ورمى سعد بن أبي وقاص بالنبل مدافعاً عن رسول الله، وقاتل طلحة بن عبيد الله قتالاً شديداً دفاعاً عن الرسول.

ووقع الخوف في قلوب المسلمين حين سمعوا ابن قميئة ينادي بقتله رسول الله، ولقد قتل ابن قميئة مصعباً بن عمير وظنه رسول الله لشدة التشابه بينهما فصرخ بذلك. لكن المسلمين حين تأكدوا من نجاة الرسول عادوا للحرب، وأعطى الرسول اللواء الذي كان لمصعب لعلي بن أبي طالب. وحاول «أبي بن خلف» أن ينال من رسول الله فأقدم عليه بفرسه وبسيفه الحاد لكن الرسول أخذ حربة من الحارث بن الصمة وصوّبها نحو ابن خلف فأصابه بجرح غائر ووقع عن فرسه وفر هارباً حيث مات في طريقه إلى مكة. وحاول خالد بن الوليد معاودة الهجوم على النبي وأصحابه لكن المسلمين تصدوا لهم فعادوا من حيث أتوا.

ولمّا انقضت الحرب وأراد أبو سفيان الانصراف أشرف على جبل أحد

ونادى بأعلى صوته قاصداً المسلمين بندائه فقال: «أفيكم محمد؟»، فلم يجيبوه، فقال: «أفيكم ابن أبي قحافة؟» فلم يجيبوه فقال: «أفيكم ابن الخطاب؟» فلم يجيبوه. فقال: «أما هؤلاء فقد كفيتموهم». فلم يملك عمر نفسه أن قال: «يا عدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك منهم ما يسوؤك». ثم قال أبو سفيان: «أعل هُبل»، فقال عليه السلام: «ألا تجيبونه؟»، قالوا: «ما نقول؟» قال: «قولوا الله أعلى وأجل». ثم قال: «لنا العزى ولا عزى لكم» قال: «ألا تجيبونه؟» قالوا: «ما نقول؟»، قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم». ثم قال: «يوم بيوم بدر والحرب سجال» فقال عمر: «لا سواء.. قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار». وتأكد أبو سفيان من سلامة رسول الله فقال: «إن موعدكم بدراً للعام القابل» فقال رسول الله لرجل من أصحابه: «قل نعم هو بيننا وبينكم موعد».

وكان على القرشيين أن يتموا انتصارهم بغزو المدينة، لكنهم لم يفعلوا ذلك، وعادوا إلى مكة بعد أن احتفلوا بالنصر في أُحُد. ولعل أهل مكة قد خافوا من أن يتحول نصرهم إلى هزيمة لو هم هاجموا المدينة لما فيها من مسلمين ويهود، فاكتفوا بقولهم أنهم جاءوا فقط للثأر من هزيمة بدر وأنهم سوف يتدبرون أمر غزو المدينة بعد ذلك. وقد ظن المكيون أن هزيمة أُحُد سوف تسقط دولة الرسول في المدينة وأن اليهود وأحلافهم وبقية أهل المدينة سوف يتكفلون بذلك، وبخاصة عبدالله بن أبي بن سلول الذي انسحب بثلث الجيش. كذلك فإن من الأسباب التي جعلت القرشيين يعودون إلى مكة دون الهجوم على المدينة، الإنهاك الذي أصاب قواتهم في المعركة ووجود الكثير من الجرحى بينهم، فضلاً عن خسارتهم لمعظم خيولهم في المعركة ومقتل اثنين وعشرين من رجالهم.

وعلى الجانب الآخر، قضى الرسول الليلة مع أتباعه على جبل أحد، في الوقت الذي انتشر فيه خبر الهزيمة في المدينة وبات الناس في قلق على رسول الله وأصحابه. وفي الصباح تفقد الرسول من استُشهد من رجاله فكانوا سبعين رجلاً، ستون منهم من الأنصار وعشرة من المهاجرين في

مقدمتهم عمه حمزة الذي اغتيل غدراً، وقامت هند ببقر بطنه ولوْك كبده والتمثيل بجثته بجدع أنفه وأذنيه. فحزن رسول الله على ما وقع لعمه، وقال: «والله لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»، فلما رأى المسلمون حزن رسول الله على عمه قالوا: «والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب». فنزل في ذلك قول الله تعالى: **﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيق مما يمكرون ﴾** . فعفى رسول الله وصبر ونهى عن المثلة. وقام عليه السلام بدفن الشهداء مكان مصرعهم بأحد بثيابهم دون أن يُغسلوا أو يُصلى عليهم، ودُفن أكثر من شهيد في قبر واحد ودفن حمزة مكان مصرعه.

ومن أشهر شهداء المهاجرين من بني هاشم بن عبد مناف: «حمزة»، وابن أخته «عبدالله بن جحش»، ومن بني عبد الدار «مصعب بن عمير» ومن بني مخزوم «شماس بن عثمان المخزومي». ومن أشهر شهداء الأنصار من الأوس: «عمرو بن معاذ»، أخو سعد بن معاذ سيد الأوس، و«حنظلة بن أبي عامر» الشهير باسم (غسيل الملائكة). ومن أشهر شهداء الخزرج «سعد بن الربيع»، و«عمرو بن الجموح»، و«عبدالله بن عمرو بن حرام».

ولمَّا انتهى المسلمون من دفن شهدائهم أمر الرسول علياً أن يخرج وراء قوات مكة ويعلم وجهتهم أهي مكة أم المدينة؟ وأقسم عليه السلام لو أنهم أرادوا المدينة ليسير لقتالهم فيها. لكن علياً وجد القوم قد اتخذوا طريق العودة إلى مكة. وخرجت قوات الرسول في إثرهم، وعسكروا عند حمراء الأسد في طريق مكة على مسافة ثمانية أميال من المدينة وأوقدوا النيران ليعلنوا لقريش عن مكان معسكرهم وليوهموا القرشيين بكثرة عددهم فيمنعهم ذلك من التفكير في مهاجمة المدينة. كذلك ليوحي ذلك إلى القبائل المجاورة بأن القوة في المدينة لا زالت للرسول وللمسلمين وأن الهزيمة التي وقعت بهم هي هزيمة عارضة. وقد ظل الرسول على ذلك ثلاثة أيام ثم عاد بعدها يوم الجمعة

إلى المدينة بعد أن تأكد له وصول قوات قريش إلى مكة.

وعند عودة الرسول إلى المدينة، خرج من فيها لاستقباله واستقبال المقاتلين المسلمين والاطمئنان عليهم. وكان من بين من خرج امرأة من «بني دينار» من الأنصار نُعي إليها استشهاد أبيها وأخيها وابنها وزوجها فلم تكترث وسألت عن رسول الله فلما علمت أنه بخير وتأكدت من ذلك برؤيته قالت له: «كل مصيبة بعدك يا رسول الله جللٌ».

ولقد كان يوم أُحُد يوم بلاء وامتحان للمسلمين، اختبرهم الله عز وجل فيه وأظهر به المنافقين وأكرم من أراد كرامته فيه بالشهادة. وقد نزل في تلك الغزوة ستون آية من آيات سورة «آل عمران» فيها تقرير لما وقع وعتاب لمن استحق العتاب ودروس بليغة للمسلمين في الصبر والنظرة للحياة ومعنى الموت. وقد بدأت الآيات بقوله تعالى: ﴿ **هذا بيان للناس وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرحٌ فقد مس القومَ قرحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ وتواصل الآيات في أُحُد بقوله تعالى: ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ ، ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفى عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾ ، ﴿ **ولئن قُتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون. ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون** ﴾ ويبشر الله الشهداء بالجنة بقوله تعالى: ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من**

فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾.

* * *

أصبح موقف الرسول، بعد أُحُد، حرجاً في المدينة، ذلك لأن اليهود والمشركين والمنافقين قالوا أن محمداً لم ينتصر في بدر على قريش بسبب قوة دعوته وتأييد السماء له وإنما انتصر بسبب عدم استعداد خصومه للحرب وإن خصومه حين أعدوا للحرب عدتها انتصروا عليه في أُحُد. وقالوا أن محمداً لو كان نبياً حقاً لما تخلى ربه عنه وأوقع بقواته الهزيمة. وكان أكثر المنادين بذلك وأكثر الشامتين في هزيمة المسلمين عبدالله بن أُبَي بن سلول رأس النفاق. ولقد أشاع ابن أُبَي أن الهزيمة وقعت بقوات محمد لعدم أخذهم برأيه في عدم الخروج من المدينة وانصياع محمد للشباب الجاهل عديم الخبرة بالحرب. وفي اليوم التالي لمعركة أُحُد جاء ابن أُبَي إلى مسجد الرسول، وكان ابنه هنالك يُعالج من جراحه التي وقعت له في المعركة بالكي، وكان من أكبر المخلصين للرسول، فنصحه بعدم القتال ثانية مع محمد، فلم يستمع له ولم يعره اهتماماً.

وفي يوم الجمعة التالي للمعركة أراد ابن أُبَي أن يخطب في الناس في المسجد فأجبره المصلون على الجلوس قائلين له: «اجلس يا عدو الله، إنك لا تستحق أن تتكلم بعد ما فعلته»، وطردوه مهاناً من المسجد فجعله ذلك أكثر ثورة وحقداً على محمد وأتباعه. ولقد زادت تصرفاته المعادية للرسول والمسلمين بعد ذلك، وكان أشد الناس خطراً على الإسلام بسبب شدة نفاقه وزائد كيده.

ولقد عرض ابن أبي أُبَي على رسول الله أن يقتل والده ليستريح المسلمين من شره لكن رسول الله منعه من ذلك.

ولقد قرر أبو سفيان بعد أُحُد، حتى يحقق النصر الساحق على المسلمين ويقضي على قواتهم في المدينة، أن يكوِّن جيشاً أكبر من جيش أُحُد يغزو

مدينتهم به، وكان عليه، لتحقيق ذلك، أن يُقنع رجال القبائل المجاورة بذلك لكي يمدوه بالرجال، فأوفد من قبله رجالاً إلى القبائل المجاورة لتحقيق هدفه ولجمعهم إليه.

وفي الجانب المقابل فعل الرسول نفس الشئ، وأرسل رجاله إلى القبائل كي ينضموا إليه ضد قريش، وكان على القبائل أن تختار من الفريقين الأصلح لمصالحها. وقام الرسول بإرسال أحد رجاله، وهو «عبدالله بن أُنيس» لاغتيال «صفوان بن خالد» زعيم هذيل من قبيلة بني لحيان. فغضب بنو لحيان لمقتل زعيمهم واتفقوا مع قبيلتين من بني مخزوم لمساعدتهم في أخذ الثأر من محمد، فقاموا بمخادعة الرسول وأرسلوا رهطاً من بني خزيمة بن مدركة يعلنون لرسول الله أنهم دخلوا الإسلام وأنهم بحاجة إلى نفر من أصحاب الرسول يفقهونهم في الدين ويقرئونهم القرآن ويعلموهم أصول الإسلام. فرحب الرسول بذلك وبعث معهم سبعة من رجاله، وهم: «مرثد بن أبي مرثد الغنوي»، و«خالد بن البكير الليثي»، و«عبدالله بن طارق الأوسي»، و«عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح»، و«خبيب بن عدي»، وزيد بن الدثنة»، وجعل رسول الله «مرثداً» أميراً عليهم. فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على «الرجيع»، وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز ما بين عسفان ومكة، وجدوا أنفسهم فجأة محاطين بمئات المقاتلين من بني لحيان، وطلبوا منهم التسليم أرادوهم أحياء كي يبيعونهم لقريش. فرفض أربعة منهم الاستسلام وقاتلوا الأعداء حتى قتلوا، واستسلم زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي وعبدالله الأوسي فأسروهم، وخرجوا بهم إلى مكة مكبلين في الأغلال ليبيعونهم هناك، حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبدالله بن طارق الأوسي يده من قيده وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل ودفن بالظهران. أما خبيب وزيد فقدموا بهما مكة فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا في مكة. وابتاع خبيباً «عقبة بن الحارث» فقتله بأبيه، وأما زيد فابتاعه «صفوان بن أمية» ليقتله بأبيه «أمية بن خلف»، وقتلوه عند «التنعيم» خارج مكة. وكان خبيب بن عدي هو الذي قتل «الحارث» والد عقبة، قتله يوم بدر. وقد قيل أنهم لما هموا بقتل خبيب. قالوا له: «أتحب أن محمداً مكانك؟» فقال لهم: «والله ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه». وقد بيعت رأس عاصم بن ثابت لامرأة قرشية فقدت ابنيها في أُحد، وكانت قد

نذرت أن تشرب الخمر في جمجمة عاصم لو وقعت في يدها، ولكن الله تعالى نجى رأس عاصم بإغراق الوادي بسيل جارف فجرفت المياه الجمجمة معها، ولم تنفذ المرأة الكافرة قسمها.

وبعد تلك الحادثة بقليل، بعد أُحُد بأربعة أشهر تقريباً، قُتل أربعون من أصحاب رسول الله غدراً وغيلة على يد المشركين عند «بئر معونة». وكان «أبو البراء عامر بن مالك» شيخ بني عامر بن صعصعة قد وفد في شهر صفر على رسول الله بالمدينة فعرض عليه الرسول الإسلام ودعاه إليه، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام ولكنه طلب من الرسول أن يرسل معه رجالاً من أصحابه إلى أهل نجد ليدعوا قومه إلى الإسلام. فبعث معه رسول الله «المنذر بن عمرو» في أربعين من أصحابه من خيار المسلمين. فساروا مع أبي البراء حتى نزلوا ببئر معونة، وهي أرض بني عامر وحرة بني سليم، وهنالك أحاط بهم رجال من قبائل بني سليم وذكوان وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ما عدا «كعب بن زيد» الذي تركوه بين القتلى وهم يظنون أنه قُتل، لكن كعباً عاش حتى استشهد يوم الخندق.

وكان في مرعى القوم رجلان مسلمان وهما «عمرو بن أمية الضُمري»، ورجل من الأنصار قد شهدا المذبحة التي تعرض لها المسلمون، فقاما بمقاتلة المشركين حميةً لمقتل إخوانهم المسلمين، وقد قاتل الأنصاري فقُتل، أما عمرو فقد أُخذ أسيراً، لكن عامراً بن الطفيل أطلق سراحه. وعندما وصل عمرو بن أمية إلى «القرقرة»، وهي مكان بالقرب من المدينة، أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه في ظل هو فيه، وكان مع هذين الشخصين من بني عامر عهد وعقد مع رسول الله وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية. وكان عمرو قد سأل الرجلين عن قبيلتهما حين نزلا عنده فعرف أنهما من بني عامر، فانتظر حتى ناما فقتلهما هو يرى أنه أصاب بهما ثأراً من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله. فلما قدم عمرو بن أمية إلى رسول الله وأخبره بالخبر، قال له رسول الله: «لقد قتلت قتيلين وجبت علينا ديتهما»، وأخذ رسول الله يتدبر أمر دفع هذه الدية لقتلى بني عامر.

فأرسل رسول الله إلى حلفائه اليهود من بني النضير الذين كانوا يسكنون جنوب شرقي المدينة، يطلب منهم أن يساعدوه في دفع دية القتلى من بني عامر، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فوعد بنو النضير الرسول بالوفاء ولكنهم أضمروا في أنفسهم اغتياله، وقد جاءهم في نفر قليل من أصحابه هم: «أبو بكر»، و«عمر»، و«علي»، و«أسيد بن حضير»، سيد الأنصار، ورسموا أن يلقوا عليه صخرة من فوق منزل جلس تحته رسول الله. فندبوا لذلك أحدهم وهو «عمرو بن جحاش» فأتى رسول الله خبر كيدهم من السماء، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وسط دهشة اليهود. وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم** ﴾. وطلب رسول الله من قومه الاستعداد لحرب بني النضير. وأرسل الرسول إلى بني النضير «محمداً بن مسلمة» يطلب منهم الإجلاء عن ديارهم خلال عشرة أيام على أن يأخذوا معهم ما يستطيعون حمله. ولقد نصح ابن أُبي يهود بني النضير بعدم الاستسلام لقرار محمد والمقاومة ووعدهم بالمساعدة ومساعدة باقي يهود المدينة من بني قريظة لهم وحلفائهم العرب من غطفان. واستمع بنو النضير لرأي ابن أُبي وتحصنوا في قلاعهم وأغلقوها عليهم. وسار الرسول بقواته حتى نزل بهم ديار بني النضير في شهر ربيع الأول، فحاصرهم ست ليال، نزل خلالها تحريم الخمر. ولم يتقدم أحد لمساعدة بني النضير ولم يتحرك يهود بني قريظة لنجدة إخوتهم ولا بنو غطفان ولا حتى ابن أُبي نفسه الذي نصحهم بالصمود والمقاومة والتحدي لقرارات محمد. وأخذ الرسول في قطع نخيل بني النضير، وظل حصاره لهم مدة أسبوعين، وقذف الله في قلوبهم الرعب فاستسلموا، وسألوا رسول الله أن يجليهم عن ديارهم وأن يكف عنهم دماءهم على أن يحملوا معهم، وهم خروج، ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، ففعل وفعلوا وخرجوا إلى «خيبر» ومنها إلى الشام، وكانت خيبر أكبر مركز للتجمع اليهودي في شمال الحجاز. وكان من أشراف بني النضير الذين ساروا إلى خيبر: «سلام بن أبي الحقيق»، و«كنانة إبن الربيع بن أبي الحقيق»، و«حُيي بن أخطب»، فلما نزلوها دان لهم أهلها.

وقد حمل بنو النضير ستمائة بعير بمتاعهم حتى أنهم أخذوا معهم أبواب بيوتهم وأسقفها، وحملت النسوة معهن حليهن وملابسهن. وقام الرسول بتوزيع أرض بني النضير على المهاجرين حتى لا يعيشوا عالة على الأنصار، ولم يعط من الأنصار إلا أبا دجانة وسهيل بن حنيف بسبب شدة فقرهما. وأخذ الرسول الخُمس نصيبه من فئ بني النضير يصرف منه على نفسه وأسرته وعلى حاجة المسلمين. وبعد إجلاء بني النضير بستة أشهر أنجبت «فاطمة» بنت الرسول ابنها الثاني «الحسين» من زوجها علي بن أبي طالب. كذلك تزوج رسول الله من امرأتين قرشيتين كانتا في الثلاثينات من عمرهما، وهما: «أم سلمة»، و«زينب بنت خزيمة»، وكان زوجيهما قد استشهدا في بدر وفي حرب بني أسد، لكن زينباً توفيت بعد عامين فقط من زواج رسول الله منها.

ولقد نزل في بني النضير سورة «الحشر» بأسرها يذكر فيها الله تعالى ما أصابهم الله به من نقمته وما سلط عليهم به رسوله، يقول تعالى: ﴿ **سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين. وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولاركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ قدير ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما أتاكم الرسول**

فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب. للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون ﴾ .

* * *

بعد شهرين من جلاء بني النضير قام رسول الله في أربعمائة من أصحابه بغزو نجد يريد حرب «بني محارب» و«بني ثعلبة» من غطفان لأنه بلغه أنهم جمعوا الجموع لحربه. فنزل الرسول بقواته عند موضع نخل بنجد من أرض غطفان به شجرة تُعرف «بذات الرقاع»، فسميت الغزوة باسمها. وتقابلت قوات الرسول مع جمع كبير من غطفان، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب. وقد خاف الرسول مباغتة العدو لهم أثناء الصلاة فصلى بالناس صلاة الخوف، وبعد ذلك انصرف بالناس حين تأكد من عدم رغبة أعدائه في القتال.

وفي شهر شعبان، بعد عودته من غزوة ذات الرقاع، خرج رسول الله في ألف وخمسمائة مقاتل وعشرة فرسان إلى بدر للوفاء بموعده مع أبي سفيان، وكان أبو سفيان، عقب انتصار أحُد، واعد المسلمين باللقاء في بدر العام المقبل، ونزل الرسول بقواته عند بدر ينتظر مقدم قوات أبي سفيان وأقام هنالك ينتظر ثمان ليال. وكان أبو سفيان قد جهز جيشاً كبيراً قوامه ألفي رجل وخمسين فارس وسار بهم من مكة وتوقف عند «عسفان»، ثم رجع ثانية إلى مكة بعد أن شربوا السويق في عسفان. ولقد اتهمهم المكيون بأنهم لم يخرجوا لحرب محمد وإنما خرجوا لشرب السويق. ولمّا تأكد رسول الله من عودة جيش قريش إلى مكة عاد بجيشه إلى المدينة بعد أن وفّى بوعده وأظهر قوة المسلمين التي أرهبت القبائل المجاورة للمدينة.

وفي العام الخامس للهجرة، في شهر ربيع الأول، خرج رسول الله على رأس قواته إلى «دومة الجندل»، وهي تقع على طريق طويل ناحية الشمال من المدينة جهة الشام، وكان يُعقد بها سوق شهير. وكان الرسول قد علم أن

المشركين يعدون هنالك جيشاً لمحاربته، وعند وصوله لم تتصدى أي قوة له ولم يلق عدواً فعاد بجيشه إلى المدينة.

وفي شهر شعبان من نفس العام قام الرسول بغزوة إلى «بني المصطلق» وهم بطن من خزاعه، وكان قد بلغه أن رئيسهم «الحارث بن أبي ضرار» قد أعد قومه لحرب الرسول. وفوجئ بنو المصطلق بمهاجمة رسول الله لهم عند ماء لهم يقال له «المريسيع»، على شاطئ البحر الأحمر من ناحية «قديد» إلى الساحل (حوالي ٨٠كم). وهزم بنو المصطلق وتفرق جيشهم وقُتل عشرة من رجالهم وهرب الباقون. واستولى المسلمون على غنائم كثيرة منهم من بينها ألفين من الإبل وخمسة آلاف رأس من الماشية، وقاموا بسبي مائتي امرأة هرب رجالهم وتركوهم للأسر، وكان من بين السبايا «جويرية بنت الحارث»، ابنة رئيس بني المصطلق وكانت فائقة الجمال. ووقعت جويرية في سهم «ثابت إبن قيس»، وطلبت منه أن تفتدي نفسها فرفض فشكته لرسول الله الذي عرض على ثابت أن يفديها منه ويتزوجها لنفسه فوافق ثابت. عند ذلك قام المسلمون بإعتاق مائة أهل بيت من بني المصطلق كرامة لها، وقالوا «أصهار رسول الله ﷺ »، فأسلمت جويرية وأسلم أبوها وإخوان لها وأصدق رسول الله جويرية أربعمائة درهم، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركةً منها.

وفي رجوع رسول الله من هذه الغزوة وقع نزاع بين «جهجاه بن مسعود الغفاري»، أجير «عمر بن الخطاب» و«سنان بن وبر الجهني»، حليف بني عوف من الخزرج، فنادى الغفاري: «ياللمهاجرين» ونادى الجهني: «ياللأنصار»، وكاد القتال يقع بين المهاجرين والأنصار. فغضب رسول الله، وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟». وانتهز عبدالله بن أُبي الفرصة ليوقع بين المهاجرين والأنصار فأثار الأنصار على المهاجرين، وقال جملته المشهورة: «سَمِّن كلبك يعقرك، ولكنا حين نعود إلى المدينة ليخرجن الأعزُ منها الأذل». فذهب ابن أُبي وتحادث مع نفر من الأنصار وقال لهم: «انظروا ماذا فعلتم بأنفسكم، لقد أعطيتموهم أرضكم وقاسمتموهم كل ممتلكاتكم، ولو كنتم احتفظتم بها الآن لفارقوكم»، ووصل قوله إلى رسول الله فاستأذن عمر

رسول الله في قتله، فرفض رسول الله. ولمّا علم ابن أُبّي أن رسول الله قد علم بما قال أنكر ذلك وأقسم عليه، وعفى عنه رسول الله. ولقد تحادث رسول الله في شأن ابن أبي مع «أسيد بن حضير»، سيد الأنصار، فقال له أسيد: «إنك يا رسول الله تستطيع أن تطرده من المدينة وسوف لا يمنعك من ذلك أحد إذا أردت فأنت الأعز وهو الأذل، إنك يا رسول الله ترفق في معاملته، ولا تنس أنك حين جئتنا كان الناس هنا يجهزون اللؤلؤ ليضعوه في تاج يتوجونه به عليهم ملكاً، وهو يظن الآن أنك سلبته هذا المُلك». وقد جاء ابن أبي أبي، ويُدعى عبدالله إلى رسول الله يسأله أن يأذن له في قتل والده، وقال للرسول: «إذا أردت رأسه يا رسول الله فأنا آتيك به بالله عليك فإن الخزرج يعلمون أنني أحسن أبنائه وأنني أخاف أنك لو أمرت غيري بقتله فسوف لا أستطيع أن أغمض عيني عن قاتله فأقتله وعندئذ أكون قد قتلت مسلماً بكافر فألقى في النار» فهدأه رسول الله وأذهب عنه غضبه وثورته وطمأنه بسلامة والده. ولقد نزلت في ابن أبي آيات من سورة المنافقين فيها يقول الله تعالى: ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾.

وعند العودة من غزوة بني المصطلق وقع «حادث الإفك» الذي اتهمت فيه السيدة عائشة زوج النبي وبرأها الله من فوق سبع سماوات. وكانت عادة رسول الله إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وجاءت القرعة لعائشة في هذه الغزوة. وفي طريق العودة من الغزوة إلى المدينة نزل القوم في طريقهم ببعض المنازل، وفي إحداها خرجت عائشة لحاجتها ثم رجعت ففقدت عقداً كانت ترتديه فرجعت تلتمسه فجاء الذين يرحلون بهودجها، وهم يظنونها فيه، لخفة وزنها، فرجعت، وقد أصابت العقد، إلى مكانهم فلم تجد أحداً ووجدت القافلة قد رحلت، فقعدت في مكانها إلى أن أدركها «صفوان بن المعطل السلمي» وكان قد تأخر عن الركب، ثم حملها. فلما وصل بها إلى المدينة تكلم الناس في حقها، وكان أكبر المتكلمين عبدالله إبن أبي رأس المنافقين، و«مسطح» مولى أبي بكر، و«حسان بن ثابت»، شاعر الرسول، «وحمنة بنت جحش». وهجر رسول الله زوجه عائشة شهراً حتى

برأها الله من فوق سبع سماوات وأنزل في حقها قرآناً أول سورة النور، بقوله تعالى: ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم لولا إذ سمعتوه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾.

وفي هذه المناسبة نزلت آيات القرآن تطلب من زوجات النبي والمؤمنات التزام الحجاب بقوله تعالى: ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً ﴾. وبعد شهرين من حادث الإفك وقع حادث الخلاف بين «زيد بن حارثة» وزوجته «زينب بنت جحش»، ابنة عمة رسول الله، وكانت جميلة وفي الخامسة والثلاثين من العمر. ونزل القرآن بتطليق زينب من زيد وتزويجها من رسول الله. يقول الله تعالى في ذلك ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سُنّة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله

وكفى بالله حسيباً ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليماً ﴾ . كذلك نزلت الآيات بمنع التبني والأمر بنسبة الأشخاص إلى آبائهم الذين تناسلوا منهم. يقول الله تعالى في ذلك: **﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾** .

* * *

غزوة الخندق (الأحزاب):

في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة وقعت غزوة الخندق، التي تُعرف أيضاً بغزوة الأحزاب، وفيها انتصر المسلمون بعد أن كادت تقع بهم هزيمة محققة. ذلك لأن أعداء المسلمين هاجموا المدينة بثلاثة جيوش بلغ عدد رجالها عشرة آلاف رجل يدعمهم ستمائة من الفرسان وعدد كبير من المحاربين على الإبل تحت قيادة أبي سفيان، بعد أن تحالفت مع اليهود ومع بعض قبائل العرب، وبخاصة قبيلة غطفان للقضاء على دولة محمد بالمدينة. وقد استمالت قريش عدداً من أشراف اليهود هم: «سلام بن أبي الحقيق النضري»، و«حُيي بن أخطب»، و«كنانة بن أبي الحقيق» مع نفر من بني وائل، وخرجوا حتى قدموا مكة فدعتهم قريش إلى حرب رسول الله، وبينوا لهم أنهم سيكونوا معهم حتى يستأصلوا شافة المسلمين. وقد قالت قريش لأعيان اليهود: «يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟» قالوا: «بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه». فنزل فيهم قول الحق تعالى: **﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين**

كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾.

ولـمّا قال اليهود ذلك لقريش فرحوا ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واستعدوا له. ثم خرج هؤلاء النفر من اليهود ودعوا بني غطفان من قيس عيلان إلى حرب المسلمين وأخبروهم باتفاقهم مع قريش على ذلك، ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب من مُرة وبني سليم وبني أشجع وبني أسد وغيرهم. وعلم محمد بالخبر وبإجماع المشركين على حربه وتحزب أحزابهم وكان في إمكانه إعداد ثلاثة آلاف مقاتل لمواجهة العدو، ولم يكن أمامه سوى مواجهة الهجوم ولم يعد له الخيار. وكان على الرسول أن يحصن المدينة ويمنع وجود أي ثغرة في دفاعاتها ينفذ منها العدو. فالمدينة محصنة من ناحية الغرب والجنوب والشرق بجبال الحرة ونقطة ضعفها فقط من ناحية الشمال حيث تتبعثر مساكن سكانها في أرض واسعة مفتوحة، ولتأمين ذلك الجانب أمر الرسول بحفر خندق فيه.

وكان «سلمان الفارسي» قد أشار على رسول الله بحفر هذا الخندق بين الحرتين وهو تكتيك فارسي معروف في حروبهم. فوافقه الرسول على ذلك وعمل الجميع في حفره حتى الأطفال، وضرب محمد بنفسه المثل في القيام بالحفر، حتى يهود بني قريظة شاركوا أيضاً في الحفر. وتم حفر الخندق في ستة أيام، وجعل الرسول معسكره بالقرب من قمة جبل «سلع» والخندق أمامه وجعل النساء والذراري في حصون المدينة من ناحية مساكن بني قريظة.

ولقد اصطفت قوات الرسول ومن أمامها القوات المهاجمة وقد حال بينهما الخندق، وقضوا على ذلك الحال أسبوعين أو أكثر يتبادلون الاتهامات شعراً ونثراً ويتراشقون بالسهام من على البعد، وقد قتل بسبب هذا التراشق ثلاثة من المهاجمين وخمسة من المدافعين. ولم يكن لدى المهاجمين سلالم أو أدوات حصار يستطيعون بواسطتها أن يتخطوا الخندق، وقد حاول بعضهم عبور الخندق بخيولهم ولكنهم فشلوا وكان المسلمون يقومون برد من ينجح منهم في اجتياز الخندق أو يقتلونه.

واتخذت المعركة الطابع الدبلوماسي، فقد حاولت الأحلاف أن تضم إليهم يهود بني قريظة المحالفين للرسول، والذين يحتلون جنوب شرقي المدينة حتى يهاجموا المدينة من ناحيتهم ويفسدوا أمر الخندق بعد أن يقتلوا النساء والأطفال المحتمين بالحصون. وقد شكل هذا الأمر قلقاً بالغاً للرسول وخاف من غدر بني قريظة. وخرج حُيي بن أخطب إلى بني قريظة يحرضهم على نقض عهدهم مع محمد والانضمام إلى الأحزاب. فأتى إلى «كعب بن أسد»، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وأخذ حُيي يغريه وكعب يمتنع إلى أن نجح في النهاية في إقناعه، فنقض كعب عهده وبرئ مما كان بينه وبين الرسول، وشكلوا بذلك خطراً كبيراً على المدينة من جهة مساكنهم.

ولما استطلع الرسول خبر بني قريظة وعلم صحة نقضهم للعهد، اشتد الخوف وانخلعت قلوب المنافقين، وقال له بعض رجال بني حارثة «إن بيوتنا عورة فأذن لنا أن نخرج ونرجع إلى ديارنا». ولـمّا اشتد على الناس البلاء أرسل الرسول إلى رؤساء بني غطفان يطلب الصلح معهم على أن يعطيهم ثلث غلة المدينة على أن يرجعوا بمن معهم عنه وعن أصحابه فوافقوا وطلبوا منه كتاباً بذلك. لكن أصحاب رسول الله، وعلى رأسهم سعد بن معاذ، رفضوا ذلك وصمموا على مواصلة الحرب.

وحاول المشركون اختراق الخندق ثانيةً من مكان ضيق به بقيادة «عكرمة إبن أبي جهل» و«عمرو بن عبدود»، فضربوا خيلهم حتى اقتحمت الجزء الضيق، وحجزهم المقاتلون المسلمون من العبور، ولـمّا نجح عمرو في العبور تصدى له علي بن أبي طالب فقتله وألقاه في الخندق ورُمي «سعد بن معاذ» بسهم فجرحه جرحاً بليغاً في ساقه، وكان هذا الجرح سبب موته بعد الخندق.

وجاء « نعيم بن مسعود » من أشجع من غطفان، وكان داهية، جاء إلى رسول الله وأعلن له إسلامه خفية عن قومه. وعرض نعيم على رسول الله أن يستعمل الخديعة والحيلة للوقيعة بين الأحزاب من المشركين. فوافقه رسول الله على ذلك لأن الحرب خدعة. فذهب نعيم إلى بني قريظة، وكان عشيراً لهم، فدخل عليهم وهم لا يعلمون أمر إسلامه، فقال لهم: «إنكم قد حاربتم محمداً

وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا انشمروا» فقالوا: «وما العمل؟» قال: «لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن» فقالوا: «قد أشرت بالرأي». فمضى نعيم بعد ذلك إلى قريش وقال لهم: «هل تعلمون ودي لكم ونصحي؟» قالوا: «نعم»، قال: «إن بني قريظة قد ندموا على ما كان منهم وإنهم قد أرسلوا إلى محمد أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يمالئون عليكم فإن سألوكم فلا تعطوهم». ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك. فلمّا كانت ليلة السبت بعثوا إلى اليهود قائلين: «إنا لسنا معكم بأرض مقام وقد هلك الكراع فاغدوا بنا إلى محمد حتى نناجزه» فأرسل اليهود إليهم بأنهم لا يخرجون يوم السبت وقالوا: «إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ومع هذا فلا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن». فلما جاءتهم رسلهم قالوا: «قد صدقكم والله نعيم» فبعثوا إليهم بقولهم «إنا والله لا نبعث إليكم أحداً»، فقالت قريظة: «قد صدقكم والله نعيم»، فتخاذل الفريقان.

واستمر الحصار وجاعت الخيل والدواب، كذلك جاع الرجال ولم تأتهم سوى مؤن قليلة من خيبر. وشعر المحاصرون أنهم ابتعدوا زمناً طويلاً عن بلادهم ولم يفعلوا شيئاً فقرروا الانسحاب. ودعا رسول الله على الأحزاب بقوله: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، إهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم». وصدق الله وعده لرسوله وللمؤمنين وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. فبعث الله عليهم الريح العاتية في ليال شاتية باردة شديدة البرودة، فجعلت تكفأ قدورهم وتقوض خيامهم، فظنوا أن قوات المسلمين قد هاجمتهم فولوا هاربين منهزمين راحلين إلى ديارهم خاسرين ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾ وكانت غزوة الخندق آخر غزوة من المشركين للمدينة. وأنزل الله تعالى من القرآن في هذه الغزوة ما نزل بسورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً وإذ يقول المنافقون**

والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ . ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ . ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ . ولم يستشهد من المسلمين يوم الخندق إلا ستة نفر ومات سعد بن معاذ من الجرح الذي أصابه يوم الخندق.

وكان النصر على الأحزاب نصراً عظيماً للمسلمين ولمحمد، وبدى محمد أمام عرب الجزيرة أقوى رجل فيها، وزادت تبعاً لذلك قوة دولته في المدينة. وكانت هذه الغزوة دافعاً لمحمد للخلاص من يهود بني قريظة الذين خانوا العهد معه وكانوا مصدر خطر وقلق دائم لمسلمي المدينة خلال الحصار. وكان من الضروري أن يتخلص الرسول من هذا العنصر الخطر حتى لا يتكرر ما حدث منهم، ولذلك لم يُضع الرسول الوقت فأذّن في الناس أن يصلوا العصر في أرض بني قريظة. ونزل رسول الله برجاله في بني قريظة عند بئر يقال لها بئر «أنا» وتلاحق به الناس. وقد قفل اليهود عليهم حصونهم وأنكروا على الرسول مقاتلته لهم كما أنكروا نقضهم عهدهم له. وطلبت يهود بني قريظة من أحلافهم الأوس أن يأخذوا لهم الأمان من رسول الله وذكّروهم أيام وقوفهم معهم ضد الخزرج فى حرب بُعاث ، لكن الأوس أجابوهم بأن الله قد جبَّ ذلك بالإسلام ولا حلف لهم إلا مع إخوانهم المسلمين . واستمر الحصار مدة خمس وعشرين يوماً ، ولمّا فقد اليهود الأمل هرب بعضهم مع أهله واعتنق البعض الآخر الإسلام . واقترح عليهم زعماؤهم أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم وأن يخرجوا لحرب قوات محمد صفاً واحداً وبذلك يستطيعون النصر على عدوهم بعد أن يتبدد من قلوبهم الخوف على مصير عوائلهم ولكنهم لم يفعلوا . وسأل بنو قريظة الرسول أن يطلق سراحهم على نفس شروط إخوانهم من بنى النضير ، ولكنه رفض لأن موقفهم يختلف عن موقف بنى النضير . ووافق الرسول على أن يقبل فيهم حكم حليف لهم من الأوس وهو « أبو لبابة » ،

فأشار أبو لبابة للرسول بيده على رقبته يعنى القتل . وحاول ابن أُبَى أن يشفع فيهم عند محمد ، لكن الرسول رفض ووافق أخيراً على حكم رجل آخر من حلفائهم من الأوس فاختاروا « سعداً بن معاذ » ، الذى كان يعانى من إصابة يوم الخندق فى خيمة « رفيدة الأنصارية » . وقد إلتف رجال من الأوس حول سعد يطلبون منه أن يشفع لهم عند الرسول فى حلفائهم . فأخذ سعد من اليهود عهداً أن ينفذوا ما يحكم به فأعطوه عهداً بذلك فحكم بأن يُقتل الرجال وتُقسم الأموال وتُسبى الذرارى والنساء . فقال له رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات » . ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله فى المدينة فى دار « بنت الحارث » إمراة من بنى لنجار ، ثم خرج رسول الله إلى سوق المدينة وأمر بأن يحفر خندق بها ، ثم جيئ بهم مقيدين فقُتل الرجال واحداً بعد الآخر ، وألقى بجثثهم فى الخندق . وقيل أن عدد القتلى من رجال بنى قريظة كان ما بين ستمائة وسبعمائة رجل وفيهم من أشرافهم : حييٌ بن أخطب وكعب بن أسد . ولم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحى على « خلاد بن سويد بن الصامت » أثناء حصار الخندق فقتلته فقُتلت به ، وقسّم رسول الله غنيمة بنى قريظة على المقاتلين بواقع ثلاثة أسهم للفارس وسهماً للراجل . وقام خمسة من رجال الخزرج بعد المعركة بقتل سلام بن أبى الحقيق بخيبر . وقل نزل في بنى قريظة قوله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ **وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتاسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شئ قديراً** ﴾ ، وما كادت شمس آخر يوم من أيام السنة الخامسة للهجرة تغرب حتى كان محمد فى وضع القوة الذى جعله يواجه المستقبل بثقة شديدة ، وجعل كيان دولة الإسلام يصبح واقعاً حقيقياً ، وجعل شمس الإسلام تنشر شعاعها فى سماء العالم لتبددغياهب الظلام التى خيمت على العالم لعدة قرون .

* * *

٩ - قيام دولة الإسلام

كان رسول الله يدرك أن بناء الدولة واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول ، وكان يؤمن أيضاً أن بناء الدول من مهام الأنبياء والرسل . والاسلام باعتباره آخر رسالات السماء وخلاصة شرائع الله وصفوتها لا يمكن أن يحقق ذاته إلا بارساء قواعد الدولة التى تحقق أهداف هذا الدين الخاتم وترسم للناس طريق حياتهم ومعاملاتهم فى الدنيا وطريق النجاة لآخرتهم . لذلك لم يغفل الإسلام حاجة المسلمين إلى تكوين دولة تنظم سلوكهم لأن المجتمع البشرى ، بطبيعة تكوينه ، فى حاجة إلى دولة أو دول تنظم سلوكه وحياته .

ولقد ورد فى القرآن الكريم أمر حكم دولة الإسلام ستاً وسبعين مرة ، وقد أشارت الآيات التى نزلت بصددها بوضوح إلى أن للإسلام دولته التى تحكم بما أنزل الله والتى تجعل العمل شرعة لها ومنهاجا . وقد بينت تلك الآيات أن للاسلام دوراً مع دوره فى هداية الناس إلى الدين الحق والعبادة الصادقة ، وهو دور الحكم وقيام حاكم عليهم يسوسهم ويقودهم إلى ما يصلحهم ، ينظم حياتهم بواسطة دولة يجب أن تقوم وتبقى ما بقى فى الدنيا إسلام . ودستور هذه الدولة هو كل ما ورد فى كتاب الله وما تقرر من سنة رسوله وما أجمع عليه أهل الرأى والعلم فيما لم يرد فى كتاب أو سنة .

ولقد وضع الرسول الأسس للدولة الجديدة فى السياسة الاقتصاد والاجتماع بما نزل عليه من قرآن وما اجتهد فيه برأيه وما استشار فيه أصحابه ، وواجه ، وهو القائد الأعلى ، مع جماعته فى الدولة الجديدة كل المشاكل التى تقابل بناة الدول على أساس من المحبة والمساواة والإخاء والحرية والعدل . ولم يقتصر الرسول على اقامة الدولة الاسلامية فى جزيرة العرب بل أننا سنرى أنه يرسل الى ملوك العالم وحكامها يدعوهم إلى الدخول فى دولة الاسلام ، وهو قد أراد بذلك أن يقيم دولة عالمية تؤمن بالله وتوحده وتمتثل لاحكامه وأحكام نبيه الذى أرسل للناس كافة وعامة . وحين وقف حكام هذه الدول حائلا بين شعوبهم والاسلام أعلن الحرب وقرر الجهاد لازالة هذا

الحائل ووضع هذه الشعوب أمام الدين الجديد ليختاروا بينه والنور الذى يحمله وبين ضلال العبادة التى عاشوا فى ظلماتها قرونا طويلة يتخبطون ويعمهون.

وفى المدينة وجد الرسول نفسه فى وضع قوى يسمح له بإقامة دولة الاسلام بعد أن إرتضت عناصرها التى كانت تتصارع على السيادة فيها بسيادته عليهم جميعاً . وفى المدينة ، أصبح محمد قائد جماعة المسلمين ، وقد نمت هذه الجماعة بالتدريج دينياً وسياسياً وصار لها جيش مستقل وموارد مالية . وبعد الهجرة بخمس سنوات فقط صارت هذه الجماعة دولة معترف بها من كل جيرانها بعد أن أيد الله نبيه بالنصر من عنده ، وصار محمد رئيس هذه الأمة وهاديها وقائدها وراعيها وصاحب الكلمة العليا فيها . ولم ينفرد الرسول برأيه فى حكم هذه الدولة بل إتخذ له مستشارين من صحابته فى ادارتها فيما لم يُنزل فيه قرآن ، وكان يأخذ برأيهم ولايقض فى أمر دون أن يطلعهم عليه . وكان كل من أبى بكر وعمر وعلىّ هم أقرب هؤلاء المستشارين إليه . وكان الرسول ، بحكم رئاسته للدولة الجديدة ، هو الذى يقرر الحرب والسلم ، وهو الذى يختار القواد للمعارك أو يكون هو القائد للحملات بنفسه . وقد عرفنا رسول الله قائداً حربياً ماهراً كما عرفناه سياسياً قديراً ، فضلاً عن دوره هادياً ومبشراً ونذيراً . وكان الرسول يولى على المدينة من ينوب عنه فى حالة غيابه ، وخاصةً عند خروجه للقتال ، وكان يختار هؤلاء الولاة من خيرة ممن شُهد لهم بالحزم والعزم والفهم فى الدين والسداد فى الرأى والقوْد . ولم يكن فى عهد الرسول بيت مال عام لبساطة موارد الدولة آنذاك ولأن الرسول كان يوزع مايحصل عليه من فئ وغنيمة وزكاة وخراج على مستحقيها فى حينه ولم يكن هنالك فائض يوجد بيت مال من أجل أن يوضع فيه . وكان على كل فرد فى هذه الدولة الناشئة أن يتكسب عيشه كيف يشاء متحرياً فى ذلك الحلال ومتجنباً ما نهى الله عنه من حرام . وقد أباح الله لعناصر هذه الدولة التمتع بما أفاء الله به عليهم من خير فلم يمنع الغنى أو جمع الثروات عن طريق الحلال . وفى نفس الوقت طالب أفراد هذه الدولة فى التكافل فيما بينهم ، بأن يساعد الغنى الفقير ، وأن يعطى ذو

السعة المحتاج ، وقد فرض الله على المسلمين الزكاة ، وحببهم فى الصدقة ووعدهم بخير الجزاء لمن ينفق من ماله فى أوجه الخير ويتصدق ويمسح دموع اليتامى والفقراء . وفُرضت على أهل الكتاب الجزية ، جزاءً لبقائهم على ملتهم ، وجزاءً لما تقدمه لهم دولة الاسلام من خدمات ، فهم يتساوون فى ذلك مع المسلمين فى تقديم جزء من دخلهم للدولة التى ترعاهم ، فهم يدفعون الجزية والمسلمون يدفعون الزكاة . وقد قدُرت الجزية أربعة دنانير فى العام على الذمى الغنى ، وديناران على المتوسط الحال ، ودينار واحد على الفقير منهم وطلب الشارع أخذها بالرفق منهم واعفاء الفقراء منها والرهبان والعجائز والنساء . وفُرض الخراج على الأرض التى فتُحت بالحرب وقاتل أهلها المسلمين ، وهم على كفرهم . كما أخذ رسول الله الخراج من أرض اليهود على أن يدفعوا نصف ما تغله أرضهم قلّ أم كثر ، وترك النصف الآخر لهم يستفيدون من غلته مقابل اشتغالهم فى هذه الأرض . كذلك كان « الفئ » من موارد دولة الاسلام ، وهو ما أفاء وأنعم الله به على المسلمين بدون قتال ، وهو يخُمس أخماس ويُقسم خمسة أسهم متساوية ، توزع كما أمر الله فى سورة الحشر : سهم للرسول ينفق منه على نفسه وأزواجه وفى صالح المسلمين ، وسهم لقربى الرسول ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل قال تعالى : **﴿ ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾** .

كذلك كانت « الغنيمة » من موارد دخل دولة الاسلام ، ويدخل فيها كل ما يغنمه المسلمون من أعدائهم فى الحرب بالقتال ويأخذونه عنوة من الأعداء ، وهو على أربعة أقسام : أسرى من الرجال وسبايا من النساء والأطفال ، وأراض ، وأموال . وكان حكم الأسرى متروكاً للنبى والحاكم المسلم من بعده ، إما أن يقتلهم أو يقبل الفدية عنهم ، أو تتم مبادلتهم بأسارى المسلمين ، أو يمن عليهم بالحرية والاطلاق . وقد أخذ رسول الله الفداء عن الأسرى ، كما سبق أن أشرنا فى غزوة بدر . وأما الأرض فيُفرض عليها الخراج ولايسقط الخراج عنها حتى ولو أسلم أهلها وصارت فى يد مسلمين . وأما الأموال

فكانت توزع فى حينها ، أربعة أخماسها للمقاتلين والخمس الباقى يوزع على مستحقى الفئ وقد جاء هذا التوزيع حسب ما ورد فى قوله تعالى فى سورة الأنفال : **﴿واعلموا أن ما غنمتم من شئ فإن لله خُمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾** . أما السبى من النساء والأطفال الذين يقعون أسرى بسبب شركهم وشرك من يتبعونهم من محاربى الكفار فلا يجوز قتلهم وإنما كانوا يقسمون فى جملة الغنائم ويجوز قبول الفدية عنهم ، كما يجوز تبادلهم بسبايا المسلمين الذين يقعون أسارى فى يد الكفار . ولايجوز أن يُفرق بين والدة وولدها عند التوزيع . وللرجل المسلم أن يتزوج من السبايا بأي عدد ولا يتقيد فى ذلك تقيده فى الزواج من الحرائر الذى حُدد بأربع نسوة . وكان حكم شرع الاسلام عظيماً بصدد هؤلاء السبايا فأباح للرجل المسلم أن يتزوج منهن بأي عدد حتى يجدن من يعولهن ويصرف عليهن ويمنعهن من الانحراف سعياً وراء لقمة العيش .

كذلك أعطى الاسلام الحق للمرأة السبى أن تتحرر وتصبح « أم ولد » إذا ما حملت ، وأن تأخذ حريتها كاملة إذا ما أعتقها زوجها أو إذا أنجبت منه ومات بعد إنجابها . كذلك كفل الاسلام أن يولد المولود منها حراً سواء أكان ذكراً أم أنثى .

ولقد خص الله تعالى نبيه بشئ يصطفيه ويختاره لنفسه من كل غنيمة غنمها المسلمون فاصطفى يوم بدر سيفاً ، وهو سيف عاصم بن منبه ، كما اصطفى يوم خيبر جاريه من سبايا اليهود هى السيدة صفية بنت حييُ بن أخطب اليهودية .. وقد تزوجها رسول الله بعد أن أسلمت وصلح اسلامها وصارت أماً من أمهات المؤمنين .

ولقد أُخذت أرض بنى النضير عنوةً منهم واعتبرت أرض غنيمة ، وقام رسول الله بتقسيمها على المهاجرين دون الأنصار ، وقد أراد بذلك أن يستقل المهاجرون بأنفسهم وألا يعيشوا عالة على الأنصار . كذلك ترك الرسول يهود خيبر وفدك على أرضهم على أن يدفعوا الخراج عنها حتى لا تحُرم الأرض من خبرة أصحابها اليهود فى زراعتها .

كذلك وضع محمد لهذه الدولة تشريعها وقانونها وفق ما نزل عليه فى الكتاب وما ارتآه واجتهد فيه واستشار فيه صحابته فيما لم ينزل فيه قرآن ، لحماية الأفراد والحكم بين الناس بالعدل ورفع الظلم عن العباد . فوضع العقوبات التى تقابل الجريمة ونظم الحياة الأسرية فيما يتصل بالزواج والطلاق وحقوق الزوجية ، وحفظ للمرأة حقها وأمن الإرث وحدد كيفية معاملة الرقيق . كذلك وضع القوانين التى تنظم المعاملات المالية وتحرم الربا والاحتكار والسمسرة وغير ذلك من الأمور التى تؤدى إلى الاستغلال ، كذلك وضع القوانين التى تحرم الخمر والميسر وارتكاب الموبقات أياً كان نوعها وغير ذلك من القوانين التى تنظم للانسان المسلم حياته وتضمن له النجاة من النار فى الآخرة .

على هذا الأساس القويم قامت دولة الاسلام وارتفع بنيانها وازداد ارتكازاً مع مرور الأيام ، بعد أن كفلت حرية الفرد ورعت حماية الجماعة المسلمة وضمنت لها الأمن والأمان . ولم تكن هذه التشريعات التى وضعت فى أول دولة الاسلام إلا النواة للتشريعات الكبرى التى أفرزتها جماعة الاسلام بعد أن كبرت دولتها واتسعت وأصبحت امبراطورية كبرى تمتد من حدود الصين شرقاً الى حدود الاطلنطى غرباً وصارت فى القرن الثانى الهجرى مركز اشعاع لحضارة زاهرة أشرق نورها على العالم كله .

* * *

كان على رسول الله أن يعمل على تأمين الدولة التى أقامها . وأن يعمل على ملاحقة المتحفزين للقضاء عليها والضرب على أيديهم بيد من حديد ومباغتتهم قبل أن يباغتوه حتى تتثبت أقدام الدولة الوليدة .

ومن الأعداء الدين كانوا يتربصون بالدولة الجديدة قبيلة « بنى بكر بن كلاب » الذين كانوا يسكنون شمال شرقى المدينة ، وكانوا لا يزالون على شركهم ، وقد نمى الى علم الرسول أنهم يعدون العدة لغزو المدينة والقضاء على دولة الاسلام فيها فباغتهم رسول الله ، إذ أرسل اليهم مع مطلع العام السادس للهجرة قائده الشاب الجرىء « محمد بن مسلمة » على رأس ثلاثين

فارسا ، قبل أن ينتهوا من حشد جموعهم . ونجح ابن مسلمة فى هزيمتهم وترويعهم وظنهم أن محمداً أرسل لهم جيشاً كبيراً فهربوا تتخطفهم الطير وتركوا وراءهم غنائم كثيرة إستولى عليها ابن مسلمة ورجاله وعادوا بها منتصرين إلى المدينة . وبذلك أعطى رسول الله درساً قاسياً لبنى بكر ولن تسول له نفسه محاربته من القبائل الأخرى المتحفزة لمقاتلة المسلمين .

وبعد عودة هذه الحملة المظفرة تزوج رسول الله من ابنة عمته « زينب بنت جحش » ، التى جاءه أمر الزواج منها بواسطة الوحى وحتى يقرر بواسطة هذا الزواج تشريعا . كذلك فُرض فى ذلك الوقت الحج على المسلمين مرة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلا .

ولم ينس رسول الله قتلي أهل الرجيع ، وصمم على أن يأخذ بثأرهم من قبيلة بنى لحيان الذين قتلوهم غدراً ، وكان على رأس القتلى إثنان من أحب صحابته ، وهما : « خبيب بن عدى » و« عاصم بن ثابت » . وقد خرج رسول الله بنفسه لغزو بنى لحيان يقود حملته عليهم فى جمادى الأولى من العام السادس للهجرة على رأس مائتي فارس . وحتى يوقع بالقوم على غرة ويباغتهم أظهر أنه يريد الشام ، فسلك طريق الشام ، ثم عدل شمالا حتى نزل منازل بنى لحيان عند « عسفان » . وقد وصل رسول الله إلى ماء عندهم يعُرف بماء « الرجيع » ، فوجد القوم قد هربوا وامتنعوا برؤوس الجبال ، فعاد رسول الله بقواته دون قتال بعد أن أدخل الهلع والرعب فى قلوب بنى لحيان وبعد أن أظهر لهم قوة المسلمين .

وبعد ليال قليلة من عودة الرسول الى المدينة من غزوة بنى لحيان ، هاجمت خيل من قبيلة « غطفان » يبلغ عددها حوالى العشرين ، إبلاً للمسلمين كانت ترعى بمنطقة « الغابة » ، وهو ماء على طريق المدينة . وكان مع الإبل رجل من بنى غفار من اليمن وزوجته ، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة .

فلما علم المسلمون بذلك تسابقوا بخيولهم ليلحقوا بالمهاجمين ، وتراص الفرسان أمام رسول الله فأمّر عليهم « سعداً بن زيد » وطلب منهم اللحاق بالأعداء ، فخرجوا فى طلبهم . ولحق رسول الله بالفرسان فى رجاله حتى

نزل بالجبل من « ذى قرد » ، وتلاحق الناس واستطاعوا قتل من لحقوا به وهرب الباقون الى غطفان ، وبعد ذلك أمر الرسول قواته بالعودة إلى المدينة بعد أن استردوا أموالهم وأرهبوا عدوهم .

وفى نفس الشهر (جمادى الأولى) من نفس العام بعث رسول الله « زيداً بن حارثه » إلى منطقة « العيص » ، فى طريق المدينة القادم من الشام ، ومعه سبعون فارساً ، لما بلغه أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام ، فتعرض زيد مع رجاله لها وأخذوا مافيها من فضه كثيرة كانت فى القافلة لصفوان بن أمية ، وأسروا رجال هذه القافلة وكان من بينهم « أبو العاص بن الربيع » زوج « زينب » بنت رسول الله وابن أخت السيدة خديجة لأمها وأبيها . وقدم زيد بالأسرى والغنيمة الى المدينة ، فقسّم الرسول ما أتي به المقاتلون غنيمة بينهم بعد استخلاص الخمس منه لمستحقى الفئ . ولما أتى أبو العاص المدينة طلب من زوجته أن تسأل أباها أن يرد اليه ماله وما كان أمانة عنده من أموال الناس . فدعا رسول الله رجال السرية وأخبرهم بالأمر وخيّرهم بين أن يعيدوا للعاص حاجته أو يحتفظوا بها ، فآثروا إرجاع الحاجة لأهلها كرامة لأبى العاص ، صهر رسول الله . فخرج أبو العاص من المدينة حى أتى مكة وأدى للناس بضائعهم ، وعاد الى المدينة ثانية ليعلن إسلامه ويشهره على يد رسول الله . وكانت زينب قد هاجرت إلى المدينة وتركت زوجها على شركه ، فلما أسلم ردها النبى إليه بنكاح جديد .

صلح الحديبية

...... وهو فى المدينة ، لم ينس محمد مسقط رأسه مكة ، فقد كان قلبه دائماً متجهاً إليها وروحه معلقة بها . وكيف لا يتعلق بمكة وبها المسجد الحرام والكعبة قبلة المسلمين جميعا ؟ وفيها أيضاً ذكريات الصبا وذكريات أيام التحدى والصراع وهى موطن الأهل ومهبط الوحى . لم تغب عن فكره لحظة واحدة وهو وإن عاش فى المدينة بجسده فإن كل جارحه فيه كانت فى شوق لأم القرى وعروس المدن . وبعد الخندق ازداد شوقه للذهاب لمكة واستوحش

البيت الحرام وكل شبر وطأته قدمه فيها ، ولذلك قرر فى غرة ذى القعدة من العام السادس للهجرة أن يخرج إليها معتمراً وأن يحمل الهدى معه وأن يترك الدعوة مفتوحة لمن يريد من أتباعه أن يصحبه فى هذه الرحلة التى قدر خطرها على ألا يحملوا معهم غير السيوف فى أغمادها . وقرر محمد أن تكون المسيرة الى مكة سلمية حتى لا تعده قريش غزواً لمدينتها وتحدياً لزعامتها فيها . ولقد أراد الرسول بذهابه إلى مكة أن يظهر قوته لقريش بعد تأييد الله ونصره له ، كذلك يُظهر هذه القوة لكل الجزيرة العربية حتى يحسب الجميع حسابه لهذه الدولة الجديدة التى أقامها محمد فى المدينة . وفى نفس الوقت أراد الرسول أن يجرد قريش من أهم حججها فى محاربته ومحاربة دعوته بزعمها أن محمداً لا يعظم البيت الحرام ولايدعو الناس للذهاب والحج إليه . وكان الرسول يدرك ، فى قرارة نفسه ، أن قريشاً لن تسمح له بدخول مكة لأداء العمرة ، ولذلك رمى من وراء خطوته هذه أن يحقق هدفين فى وقت واحد : الأول هو أن يُظهر قريش بمظهر المانع للناس من زيارة البيت وهى التي تدّعى أنها حاميةٌ للبيت ، والثانى أن الاسلام قد حفظ للبيت الحرام قداسته وحرمته فى ظل العقيدة الجديدة على خلاف ما كانت تدعيه قريش عن هذا الدين الجديد وعن أصحابه أمام القبائل . وكان الرسول يدرك حرج موقف قريش فهى لا تستطيع منعه من دخول البيت وتفقد بذلك سمعتها أمام القبائل ، كما أنها لا تستطيع منعه بالقوة عن ذلك بسبب ضعفها وفقدان قوتها وسمعتها العسكرية بعد معركة الأحزاب .

خرج رسول الله ، متجها الى مكة ، على رأس ما يقرب من ألف وأربعمائة من المسلمين وليس معهم إلا السيوف فى أغمادها ، خرجوا يريدون العمرة محرمين زائرين للبيت وله معظمين . وعبر الرسول ومن معه الصحراء صوب مكة إلى أن وصلوا مكان يعرف بالحديبية ، على بعد عشرة أميال شمال غربى مكة حيث توجد هناك واحة بها الكثير من النخيل وبئر ماء يسمى المكان بها .

ولما علمت قريش بقرب مقدم محمد ورجاله الى مكة إستعدت للحرب

وأعلنت حالة الطوارئ بين رجالها . ولكى تتيقن من الأمر أرسلت مائتين من فرسانها فى إتجاه الحديبية لاستطلاع أمر محمد وقواته ولمقاتلته هناك إذا ما قرروا ذلك . وانقسم القرشيون أنذاك فى الرأى على أنفسهم قسمين ، وكان زعيمهم أبو سفيان بن حرب مسافراً فى تجارة خارج مكة : قسم مال إلى الحرب وقسم أخر مال إلى التصالح مع محمد ، وكان الفريق المائل الى التصالح هو الفريق الأكثر عدداً ، فارسل هذا الفريق رجالاً من خزاعة على رأسهم « بديل بن ورقاء الخزاعى » يسأل محمداً عن قصده من المجئ إلى مكة . فلما وصل هذا الوفد إلى الحديبية وتقابل مع رسول الله أخبرهم الرسول بأنه ما جاء يريد حرباً مع أهل مكة ولكنه جاء للبيت زائراً ومعظماً . فتيقنوا من ذلك حين رأوا أن رجال محمد لا يحملون سوى السيوف فى أغمادها وأنهم أطلقوا الفدى فى المرعى لينحروه عند بيت الله الحرام . فرجعوا الى مكة وأخبروا قريشاً بغاية الرسول وأتباعه وصدق قوله لأنهم ما عرفوه إلا صادقاً وأميناً . واطمأنت قلوب معظم القرشيين إلى ذلك ، لكن المنادين بالحرب والمشعلين لنار الفتن ثاروا فى وجه الخزاعيين قائلين : « وإن كان لايريد قتالا .. فوالله لايدخلها علينا عنوةً أبدا ولاتحدث بذلك عنا العرب » . لكن ابن ورقاء الخزاعى حذرهم بما شاهد عليه محمداً ورجاله من سيطرة وانضباط وقوة ورهبة وحب من جانب هؤلاء الرجال لمحمد وتفانيهم فى تنفيذ أوامره وعدم ترددهم فى طاعته ولوقادهم ذلك إلى الموت .

وبعثت قريش إلى رسول الله ، بعد ذلك « الحليس بن علقمة » ، سيد الأحابيش ، فلما تأكد من عزم رسول الله ورجاله على الزيارة وتصميمهم على ذلك عاد لقريش وأخبرهم بصدق نوايا الرسول ، فأرسلوا له « عروة بن مسعود الثقفى » يطلب منه العودة والرجوع عن مكة وإصرار قريش على حربه إذا ماهو دخل مدينتهم عنوةً . لكن عروة عاد إليهم مؤكداً لهم إصرار محمد ورجاله على دخول مكة لأداء العمرة . ولكى تظهر قريش قوتها العسكرية أمام محمد ورجاله واستعدادها لمقاتلتهم بعثت بنحو خمسين من فرسانها ليطوفوا بعسكر الرسول استعراضاً لقوتهم وتخويفاً لهم ، فكان مصير هؤلاء الخمسين الأسر على يد قوات المسلمين . وحتى يؤكد رسول الله لمكة أنه ماجاء محارباً

أمر باخلاء سبيل الأسرى واطلاق سراحهم .

وبعث رسول الله برسالة أخيرة الى قريش وأشرافها يخبرهم بقصده مع « عثمان بن عفان » ، وكان يعلم أن أهل عثمان من بنى أمية فى مكة سيمنعوه ويجيروه . ولما دخل عثمان مكة لقية قريبه « أبان بن سعيد بن العاص » فأجاره وقام بحمايته ومكنه من تبليغ أشراف قريش رسالة رسول الله ، لكن قريشاً احتبست عثمان عندها لعدة أيام ، ووصل إلى سمع الرسول والمسلمين أن قريشاً قتلت عثمان بعد أن احتبسته عندها فغضب رسول الله والمسلمون لهذا الخبر ، وقال عليه السلام : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ، فدعا الناس إلى البيعة للحرب . فكانت « بيعة الرضوان » تحت الشجرة ، بايعة جميع من كانوا معه بيعة الموت . بايعوه على نصرته والثبات معه وعدم الفرار ، ونزل فى هذه البيعة قوله تعالى : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ .

ولما تمت البيعة ، عاد عثمان وبان كذب الاشاعة التى ترددت عن مقتله ، وبعثت قريش « سهيلاً بن عمرو » ، وقالوا له : « إئت محمداً فصالحه وليكن فى صلحه أن يرجع عنا عامه هذا ، حتى لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوةً » . فجاء سهيل ودار بينه وبين رسول الله الحوار التالى ، بعد أن دعى رسول الله علياً بن أبى طالب ليكتب الصلح . قال محمد لعلى : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : « لا أعرف هذا ، ولكن إكتب باسمك اللهم » . فقال رسول الله لعلىّ : « اكتب كما قال » ، فكتبها . فقال رسول الله لعلى بعدها : « اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيلاً بن عمرو » . فقال سهيل : « لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك مجردين » . فقال رسول الله لعلى : « اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيلاً بن عمرو » ، فكتب ، واصطلحا فى الكتاب على « وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهم الناس ويكف بعضهم عن

بعض ، على أن من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو الشام يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله . ومن أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

فتواثبت « خزاعة » فقالت : « نحن فى عقد محمد وعهده » فحالفت الرسول ، وتواثبت « بنو بكر بن وائل » فقالوا : « نحن عقد قريش وعهدهم » . وواصل سهيل إملاء شروط قريش وواصل علىّ الكتابة بموافقه رسول الله ، فقال سهيل : « وأنت ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب : السيوف فى القرب لاتدخلها بغيرها » فكتب علىّ ، وكان ذلك آخر ما أملى سهيل بن عمرو من شروط صلح مكة مع رسول الله . ولماً إنتهى سهيل من الإملاء وانتهى علىٌ من الكتابه بموافقه رسول الله ، طلب سهيل أن يشهد على هذا الصلح رجال من الطرفين ، فأُشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين ، وكان من شهود المسلمين : أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة ومكرز بن حفص ، وعلى بن أبى طالب ، كاتب الصحيفة وعبد الله بن سهيل بن عمرو المندوب عن المشركين فى الصلح .

فلما فرغ الرسول من الصلح قدّم هديه فنحره ثم جلس فحلق رأسه فقام الناس ينحرون ويحلقون أو يقصرون . ولماً التأم الأمر ، لم تعجب شروط الصلح عمراً بن الخطاب فوثب غاضباً وأتى أبا بكر وقال : « يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ » قال : أبو بكر « بلى » ، قال : « أو لسنا المسلمين ؟ » قال : « بلى » ، قال : « أو ليسوا بالمشركين ؟ » ، قال : « بلى » ، قال : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » قال ؟ « يا عمر الزم أمره فإنى أشهد أنه رسول الله » قال عمر : « وأنا أشهد أنه رسول الله » . ثم أتى عمر رسول

الله . فقال : « يارسول الله ألست برسول الله ؟ » ، قال : « بلى » ، قال : « أولسنا بالمسلمين ؟ » قال : « بلى » ، قال : « أو ليسوا بالمشركين ؟ » قال : « بلى » قال : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » قال : « أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

ثم انصرف رسول الله وأتباعه قافلين إلى المدينة ، حتى إذا كانوا فى منتصف الطريق نزل عليه الوحى بآيات من سورة الفتح بقوله تعالى : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما وينصرك الله نصراً عزيزاً** ﴾ .

وقد جعل الله صلح الحديبية فتحاً قريباً . وقد كانت هذه أول مرة تعترف فيها قريش بمحمد على أنه زعيم دولة ، وإن اقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت لهو اعتراف منها بأن الاسلام دين واقع معترف به كسائر أديان شبه الجزيرة . وقد جاءت نتائج هذا الصلح سريعة لصالح المسلمين ، فلما كانت الهدنة آمن الناس بعضهم بعضا والتقوا وتحادثوا وأخذ نتيجة لهذا التلاقى يزداد عدد الداخلين فى الاسلام عن اقتناع . وقد دخل فى الاسلام خلال السنتين ما بين صلح الحديبية وفتح مكة أكثر ممن دخلوا فى الاسلام قبل ذلك ، ودليل ذلك أن رسول الله خرج فى صلح الحديبية وعدد المسلمين المقاتلين ألف وأربعمائه ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف مقاتل .

وقد التزم رسول الله بشروط الصلح مع قريش ، فرد من هاجر إليه من الرجال بعد الصلح ، ولكنه لم يرد من هاجر إليه من النساء استجابةً فى ذلك لأمر الله ، فقد نزل عليه بصدد ذلك فى سورة (الممتحنة) قوله تعالى ﴿ **يايها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن** ﴾ . وكانت قد هاجرت إلى رسول الله « أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط » فراراً بدينها ، بعد الصلح ،

وأعلنت إسلامها على يد رسول الله ، فخرج أخواها « عمارة بن الوليد » و « عقبة بن الوليد » حتى قدما إلى رسول الله يسألانه أن يردها عليهما تنفيذاً لبنود صلح الحديبية ، فأبى رسول الله والتزم بأمر الله فى ذلك . وعاد عمارة وعقبة إلى مكة دون أختهما ، فشجع ذلك النساء المسلمات على الهجرة إلى رسول الله .

* * *

وتنفيذاً لخطة إقامة دولة الإسلام العالمية ونشر دين الإسلام على أرض المعمورة كلها ، كما أمره ربه بذلك ، قرر رسول الله ، بعد صلح الحديبية ، مكاتبة ملوك وحكام العالم المعاصرين وله وتبليغهم رسالة الإسلام التى أرسلها الله للناس كافة وعامة وجعله خاتم المبلغين لها إلى يوم تقوم الساعة ، فأرسل بكتبه إلى هؤلاء الحاكم مع رسل من أصحابه كلُ يعرف لغة البلد المتوجه إليه. فبعث « دحية بن خليفة الكلبى » إلى « قيصر » ملك الروم ، و « عبد الله بن حذافة السهمى » إلى « كسرى » ملك الفرس ، و « عمرو بن أمية الضمرى » إلى « النجاشى » ملك الحبشة ، و « حاطب بن بلتعة » إلى « المقوقس » (قيرش) وإلى مصر من قبل ملك الروم ، و « عمرو بن العاص » إلى أبناء الجلندى حكام عُمان . و « سليط بن عمرو » إلى حكام اليمامة ، و « العلاء بن الحضرمى » إلى ملك البحرين و « شجاع بن وهب الأسدى » إلى « الحارث بن أبى شمر » أمير الغساسنة بالشام ، و « المهاجر بن أبى أمية المخزومى » إلى ملك اليمن الحميرى . وقد قيل لرسول الله إن هؤلاء الملوك والحكام لا يقبلون كتاباً غير مختوم ، فأمر الرسول بصياغة ختم له ، فصيغ ختم له من فضة ونقشت عليه عبارة « محمد رسول الله » . وقد ظل هذا الخاتم يختم به حتى وفاته ، وختم به من بعده الخلفاء الراشدون حتى عهد عثمان بن عفان . ولقد سقط هذا الخاتم من عثمان فى بئر (أريس) فصيغ له خاتم غيره .

وقد جاء نص كتاب الرسول إلى هرقل ملك الروم كالآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . فإني أدعوك بدعاية الاسلام

أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ .

أما كتابه عليه السلام إلى « كسرى إبرويز » ملك الفرس ، فقد جاء نصه كالآتي : « .... بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام علي من إتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا ، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس » .

وقد جاء كتابه إلى « النجاشي » ملك الحبشة ، كالآتي :

« ..... بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة ، سلام على من إتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفحه كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتي ، والسلام على من أتبع الهدى » .

وجاء كتابه عليه السلام إلى « المقوقس » عظيم القبط على الصورة التالية :

« .... بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ، ﴿ **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ .
التوقيع : محمد رسول الله .

ومن هؤلاء الملوك والرؤساء من استقبل الرسل والكتب استقبالا طيباً مثل هرقل والمقوقس والنجاشي وردوا عليها رداً طيباً ، ومنهم من أساء استقبال الرسل ومزّق الكتب وعاب في ذات الرسول مثل كسرى فارس ، ووقف بذلك عقبة وحائلا بين شعبه والتعرف على الدين الجديد والوقوف على تعاليمه .

وقد كان رد « المقوقس » من أرق الردود التي وردت على رسول الله ، وقد جاء نص رد كتاب المقوقس إلى النبي كالتالي :

« باسمك اللهم ...

من المقوقس إلى محمد

أما بعد ، فقد بلغني كتابك وقرأته وفهمت مافيه ، أنت تقول أن الله تعالى أرسلك رسولاً وفضلك تفضيلا وأنزل عليك قرآناً مبيناً ، فكشفنا يا محمد في علمنا عن خبرك فوجدناك أقرب داع إلى الله وأصدق من تكلم بالصدق . ولولا أني ملكت ملكاً عظيماً لكنت أول من سار إليك لعلمي أنك خاتم الأنبياء وسيد المرسلين والمتقين .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدين » .

وبعد أن بلغ محمد الرسالة وأدى الأمانة على مستوى العالم وأوضح لهم أنه البشير والنذير وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولما لم يستجب حكام شعوب العالم لهذه الدعوة كان عليه هو ومن تولى قيادة دولة الاسلام من بعده أن يعمل على إزالة هؤلاء الحكام عن طريق شعوبهم حتى يضعوا هذه الشعوب أمام حقيقة هذه الدعوة الأخيرة المنزلة إلى أهل الأرض من السماء .

* * *

ولقد تقوّت جماعة الاسلام ، بعد صلح الحديبية ، باسلام اثنين من كبار رجالات قريش وهما : « خالد بن الوليد » و« عمرو بن العاص » . كذلك شهدت تلك الأيام اسلام « عثمان بن طلحة » ، حارس الكعبة ، واسلام قبيلة « خزاعة » جميعها . وفي عام الحديبية أيضا كان تحريم الخمر النهائي بنزول قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر**

والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله فهل أنتم منتهون ﴾ . وكان شرب الخمر لم يحرم نهائياً حتى ذلك الوقت ، وكان محرماً فقط وقت الصلاة ، عملاً بقوله تعالى فى سورة النساء : **﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾** . وقد جاء ذلك نتيجة لسكر بعض المسلمين واضطراب صلاتهم . وقد جاء هذا التحريم النهائى للخمر والميسر حفاظا على المسلمين من أن يوقع الشيطان بهم بواسطتها فى العداوة والبغضاء وأن يحملهم على الصد عن ذكر الله والسير فى طريق الغواية والفساد . فأريقت الخمور فى شوارع المدينة وحطمت آنيتها وقدورها وتبددت رائحتها الى الأبد عن هذه المدينة الطاهرة المطهرة .

فتح خيبر

وبعد عودة الرسول من الحديبية إلى المدينة بشهر ، قاد ألفاً وستمائة من رجاله لفتح خيبر . وكانت خيبر قرية زراعية غنية ، تقع شمال المدينة على مسيرة ثلاثة أيام منها ، وكانت بها زراعات واسعة وأجود أنواع النخيل التى تنتج أجود أنواع التمر فى شبه الجزيرة على الاطلاق . وكانت أرض خيبر قد تملكها اليهود الذ ين استقروا فيها بعد أن جاءوها بعد طرد الروم لهم من أرض فلسطين على أيام الامبراطور « تيتوس » سنة ٧٠ للميلاد . وكان اليهود على علم كبير بشئون الزراعة فعرفوا كيف يستثمرون هذه الأرض ويزرعون بها أجود المحاصيل . ولقد ابتنى اليهود لهم حصونا متفرقه بين مزارع خيبر لتحميهم من أى هجوم قد يتعرضون له ، وقد بلغ عدد هذه الحصون ثمانية حصون ، خمسة منها عند مدخل خيبر وثلاثة فى مؤخرتها . وتمثل الحصون الخمسة المتقدمة خط المواجهة ، وعرف ثلاثة منها باسم « النطاة » ، بينما عرف الاثنان المتبقيان باسم « الشق » .

ولقد كان يهود خيبر فى حلف مع قريش وقبائل غطفان وفزارة ، وقد أدى صلح الحديبية إلى الغاء هذا التحالف بين يهود خيبر وقريش وغطفان وفزارة ، مما جعلهم فى عزلة وقت مهاجمة محمد لحصونهم . ولم يكتم الرسول أمر خروجه فى هذه الغزوة كما كان يفعل في غزواته السابقة . وقد أرسل عبد الله بن أبى إلى يهود خيبر يخبرهم بغزو رسول الله لهم ويحذرهم ويطلب منهم التصدى لهذا الغزو بعد أن هوّن لهم من أمر رسول الله وقواته . وحاول يهود خيبر الاستعانة بعرب غطفان حلفائهم على أن يؤدوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين . لكن غطفان لم تقبل عرضهم خوفاً على أنفسهم من خطر القوة الإسلامية بعد أن تأكدوا فى الحديبية من قوة محمد .

وحاصر الرسول اليهود فى خيبر شهراً ثم أخذ فى فتح حصونها حصناً حصناً فكان أول حصونهم التى سقطت فى يديه حصن « ناعم » من ناحية الشمال ثم حصن « القموص » ، وحصن « بني أبى الحقيق » ، وأصاب رسول الله منهم سبايا منهن « صفية بنت حييّ بن أخطب » ، وكانت عند « كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق » وبنتىْ عم لها ، فاصطفى رسول الله صفية لنفسه وأعتقها وأسلمت وتزوجها وصارت من أمهات المؤمنين . وكانت آخر الحصون اليهودية التى قاومت حصن « الوطيح » و « السلالم » وقد هاجمتها قوات المسلمين بقيادة على بن أبى طالب .

ولمّا أدرك يهود خيبر وقوع الهزيمة بهم طلبوا الصلح من رسول الله على أن يحقن دماءهم وأن يعاملهم فى الأموال على النصف وأن يسمح لهم بالبقاء فى خيبر إن أرادوا ، فوافقهم رسول الله على ذلك وكتب بينه وبينهم عهداً يقر لهم هذه الأمور .

ولقد أخذت المستعمرات اليهودية الأخرى الدرس من خيبر ، وهذه المستعمرات هى : « فدك » ، و « وادى القرى » ، و « تيماء » ، فطلبوا من الرسول الصلح على نفس شروط يهود خيبر فوافقهم الرسول على ذلك ، وكتب معهم كتباً أقرت لهم مثلماً أقر العهد مع يهود خيبر . وقد قدم على رسول الله يوم فتح خيبر ابن عمه « جعفر بن أبى طالب » والمهاجرين معه من

الحبشة ، ففرح به رسول الله والتزمه وقال : « ما أدرى بأيهما أن أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ » . وكان رسول الله قد أرسل « عمرواً بن أمية الضمرى » إلى النجاشى يطلب منه إعادة المسلمين المقيمين عنده إلى بلادهم . فحملهم النجاشى فى سفينتين وودعهم مكرمين وكانوا ستة عشر رجلاً يقودهم جعفر . وقد كان مع جعفر زوجته « أسماء بنت عميس الخثعمية » وابنهما عبد الله الذى وُلد بأرض الحبشة . وكان ممن جاء من مهاجرى الحبشة : « خالد بن سعيد بن العاص » ، وإمرأته « أمينة بنت خلف » ، وأخوه « عمرو بن سعيد » ، وإمرأته « فاطمة بنت صفوان » وغيرهم ».

ولمَّا رجع محمد من خيبر إلى المدينة أقام بها سبعة أشهر ، ثم خرج فى ذى القعدة من العام السابع للهجرة معتمراً « عمرة القضاء » مكان عمرته التى صدته قريش عنها العام الفائت . وخرج مع الرسول ألفان من المسلمين لأداء العمرة يحملون السيوف فى قربها ، حسب اتفاق صلح الحديبية ، واصطحبوا معهم ، على سبيل الاحتياط ، مائتى فرس . وساق رسول الله وأصحابه الهدىْ أمامهم متوجهين إلى مكة . ولمَّا وصل المسلمون إلى مكة وجدوا أهلها وقد أخلوها وصعدوا الجبال المحيطة بها كى يعاينوا أتباع محمد من المسلمين . وكانت هذه هى المرة المرة الأولى التى يدخل فيها محمد مسقط رأسه بعد غيبة سبع سنوات عنها ، قضاها وفى كل يوم يمر منها كان يحترق شوقاً لرؤياها ويزداد حنيناً لترابها وهوائها . عاد محمد إلى بلده مرفوع الرأس محاطاً برجال أشداء ينتظرون منه الإشارة ، بعد أن خرج منها هارباً مختبئاً وليس معه إلا صديقه أبو بكر وعين الله ترعاهما . لم يصدق المكيون أعينهم وهم يرون محمداً ، هذا الذى كان ضعيفاً محتقراً مهاناً منهم ، يعود إليهم وهو من فوق بعيره وحوله الرجال والأتباع رافعين هاماتهم كالأسود متحفزين للموت متحدين قريش بكل ما تملك من قوة وبكل مالها من أعوان وأتباع . وقف القرشيون على تلال مكة وهم لا يصدقون أعينهم لما يرونه من قوة محمد ورجاله وكيف عادوا أقوياء أشداء بعد ذل عاشوه وهوان فى مكة لأكثر من عشر سنوات . سمعوهم وهم يكبرون فى صوت واحد : « الله أكبر..

الله أكبر » ، سمعوهم يرددون كلاماً جديداً على آذانهم غير ذلك الذى عرفوه وهم يطوفون حول الكعبة ، سمعوهم يقولون : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان النعمة لك والملك لا شريك لك » . شاهدوا بلالاً وهو يعتلى أحد جدران الكعبة وينادى للصلاة بقوله : « أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ، رغماً عنهم وعن أصنامهم الصماء التى ظلت جاثمة دون حس أو حراك . إنه الإسلام ، إنها إرادة الله التى أرادت التغيير ، إنها شمس الهدى التى أشرقت على عالم الجهالة والظلمة ، إنه الحق الذى جاء ليُزهق الباطل ولو كره الكافرون .

وقد نزل فى هذه العمرة قوله تعالى : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ .

وقد تزوج رسول الله فى هذه العمرة ، وهو محرم ، من « ميمونة بنت الحارث » ، وهى إحدى بنات إحدى زوجات عمه « العباس بن عبد المطلب » ، زوّجها له العباس وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم . وكانت ميمونة آخر زوجات رسول الله ، وآخر من مات منهن .

وفى جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة بعث رسول الله لقتال الروم ، عدة من رجاله عددهم ثلاثة آلاف ، أرسلهم إلى بلدة « مؤتة » ، بمنطقة البلقاء من نواحى الشام (منطقة الأردن الحالية) . وقد جعل رسول الله قيادة هذه الغزوة لثلاثة من كبار قواده يتولى أحدهم القيادة بعد الآخر على التوالى ، وهم : « زيد بن حارثة » ، و « جعفر بن أبى طالب » ، و « عبد الله بن رواحة » . وقد كانت هذه الحملة أول توجه عسكرى نحو دولة الروم ونحو حلفائهم من العرب الغساسنة . وكان هرقل ملك الروم ، حين علم بأمر هذه الحملة الإسلامية ، قد بعث بمائة ألف مقاتل من رجاله يقودهم أخوه « تيودور » لمساعدة الغساسنة فى مواجهة هذا الغزو الإسلامى . ويبدو من قلة عدد المحاربين المسلمين بالنسبة لعدد القوات الرومانية عدم تكافؤ

المعركة ، لذا كان بالضرورة أن تنتهى لغير صالح المسلمين ، خاصة وأن المسلمين يقاتلون فى غير أرضهم وأن الرحلة من الحجاز إلى بلاد الشام قد استنفذت جهداً كبيراً منهم . ورغم نتيجة هذه المعركة الغير موافقة لإرادة المسلمين إلا أنها كانت إنذاراً خطيراً وُجه لدولة الروم وإشعاراً لهم بالخطر الداهم القادم إليهم من عبر صحراء جزيرة العرب .

وقد أستُشهد فى هذه المعركة القواد الثلاثة الذين عينهم رسول الله لقيادة الحملة ، فاصطلح الناس بعدهم على أن يتولى القيادة عليهم « خالد بن الوليد» . ولقد كانت هذه المعركة فرصة سانحة لبروز نجم خالد فى قيادة الجيوش الإسلامية ، بعد أن نجح فى تنظيم صفوف قواته القليلة العدد ، وإيهام العدو بأن أمداداً تجيئ إليه من الحجاز ، وإنسحابه إنسحاباً مشرفاً دون وقوع هزيمة ساحقة مؤكدة . ولما عاد خالد بقواته سالماً إلى المدينة جعل الناس يحثون عليه وعلى جنوده التراب ويدعونهم « بالفُرار » ، أى الفارين من القتال فى سبيل الله . لكن رسول الله نفى عنهم هذا الإتهام وحيا مجهودهم وقال عنهم : « إنهم ليسوا بالفُرار ولكنهم الكُرار إن شاء الله تعالى » .

١٠ - من الفتح حتى الوفاة

قرر رسول الله فتح مكة بعد أن نقضت قريش عهدها معه وأخلت بشروط صلح الحديبية . وقد وقع ذلك النقض حين تظاهر بهم حلفاؤهم من « بنى بكر » على « خزاعة » ، حلفاء المسلمين وأصابوا منهم ما أصابوا . وكانت بين بنى بكر وبين خزاعة حروب قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام وصلح الحديبية دخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله وعقده . وأثناء هدنة الصلح أراد بنو بكر أن يصيبوا ثأرهم من خزاعة ، فخرج « نوفل بن معاوية » فى نفر من بنى بكر وكمن لجماعة من خزاعة عند ماء بأسفل مكة يقال له « الوتير » فأصابوا منهم رجالاً واقتتلوا . وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح وقاتل معهم بعض القرشيين مستخفين حتى جازوا خزاعة إلى الحرم . فخرج « عمرو بن سالم الخزاعى » فى أربعين راكباً حتى وصلوا إلى رسول الله وأخبروه بما وقع واستصرخوه ، فكان ذلك سبب فتح مكة . ولقد أدرك « أبو سفيان » الخطأ الذى وقعت فيه قريش فخاف من بطش رسول الله ، فسارع إلى المدينة ليفاوض رسول الله ويؤكد صلح الحديبية . ويطلب زيادة مدة الهدنة ، لكن رسول الله رفض ذلك . وأمر أصحابه بالجهاز والإستعداد لفتح مكة . ولقد إتخذ الرسول خطة سرية لفتح مكة وتظاهر بأنه متجهاً فى حملة إلى شمال المدينة فى عشرة آلاف رجل ، لكن « حاطب بن بلتعة » أرسل كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله من الأمر فى السير اليهم . سار الرسول بجيشه فى العاشر من شهر رمضان للسنة الثامنة من الهجرة ، وواصل المسير لمدة يومين والقوم صائمون ، وأفطروا « بالكديد » . وخرج « العباس بن عبد المطلب » ، عم الرسول ، آنذاك من مكة مهاجراً مسلماً والتقى بالرسول عند « الجحفة » ، بالقرب من « رابغ » ، وأرسل عياله إلى المدينة ، وعاد مع الرسول مشاركاً معه فتح مكة . وقدم أبو سفيان على رسول الله ثانية عند « نيق العقاب » ، بين مكة والمدينة ، وأعلن دخوله فى الاسلام . وقد أمره رسول الله أن يسبقه إلى مكة ويعلن فيها أن من دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو

آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . وكان ذلك إكراماً لأبى سفيان ومراعاة من رسول الله لمكانته فى مكة . فخرج أبو سفيان إلى قريش حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته قائلاً : « يامعشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لاقبل لكم به ، فمن دخل دارى فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » ، فتفرق الناس بين دورهم والمسجد . فدخل رسول الله مكة دون قتال يُذكر ، ولم يقع إلا قتال بسيط عند مدخل مكة بين القوات التى كان على قيادتها « خالد بن الوليد » وقوات قريش التى كان على قيادتها كل من « عكرمة بن أبى جهل » ، و « صفوان بن أمية » ، وقد أزاحهم ابن الوليد عن طريقه بسهولة .

دخل محمد مكة ، فى موكب رائع مهيب ، دخلها وهو راكب ناقته « القصواء » ، ممسكاً بعصا طويلة فى يده ، يحف به جيشه من كل مكان وتحيط به جموع أتباعه راكبين الهجن والخيول ، وياله من مشهد عظيم لم تر مكة فى حياتها مثله من قبل ، ولم ير سكان مكة ، الذين اعتلوا أسطح منازلهم فتحاً قبله لمدينتهم . الشئ الوحيد الذى تعيه ذاكرتهم هو مشهد غزو جيش « أبرهة الأشرم » ومجيئه لهدم الكعبة والنهاية التعسة التى كانت لهذا الجيش على يد الطير الأبابيل الذى أرسله الله عليه ليبيده بحجارة من سجيل وشتان بين الجيشين .. جيش جاء ليهدم بيت الله وجيش جاء ليُعلى كلمة الله وليعظم البيت يقوده خير خلق الله .

ولمس رسول الله ، عند وصوله إلى الكعبة ، الحجر الأسود بعصاه ، وصاح بأعلى صوته مهللاً مكبراً قائلاً « الله اكبر » ، وردد النداء وراءه عشرة الاف مسلم ارتجت لتكبيرهم جنبات مكة واهتزت جبالها ، ثم طاف عليه السلام بالبيت ، وهو على ناقته ، سبع أشواط ، وهو يردد قوله : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » . وحطم رسول الله بنفسه ما قابله من أصنام حول الكعبة ، وأمر أن تحطم جميع الأصنام التى حول الكعبة ، وكان عليها وحولها يومئذ ثلثمائة وستين صنما . ودعا رسول الله « عثمان بن طلحة » أن يفتح له باب الكعبة ، ففتحها له ، فدخل وأزال ما بداخلها من

تماثيل وصور . ثم أعطى مفتاح الكعبة لعمه العباس على أن تكون سدانة البيت له ، ولكنه أعطاه بعد ذلك لطلحة حين نزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن الله يحب أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ ، وكانت سدانة البيت فى يد بيت عثمان من بنى عبد الدار منذ وفاة جدهم الأكبر قصى بن كلاب سنة ٤٨٠ للميلاد .

وبعد أن طاف رسول الله حول البيت وكبّر وحطم الأصنام خطب فى القرشيين قائلاً : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، يامعشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب » ، ثم تلى قوله تعـالى : ﴿ **يأيها النس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ ، وأضاف عليه السلام قائلا سائلاً قريشا : « يامعشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » ، فقالوا فى صوت واحد : « أخ كريم وابن أخ كريم » ، قال : « فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، إذهبوا فأنتم الطلقاء » . ما أعظمك يارسول الله وما أعظم عفوك وما أكرمك ! إنك الآن تقف أمام قومك الذين حاربوك بالأمس وآذوك وسبوك وشتموك وسفهوا دعوتك وألبوا عليك القبائل وطردوك من موطنك يوم كنت ضعيفاً إلا من قوة الايمان ويوم كنت وحيداً إلا من صحبة الرحمن . إنك فى استطاعتك اليوم أن تقتل كل كافر منهم ومشرك بعد أن غزوت بلدهم ودانت لك بالفتح ، ولكنك عفوت عنهم ، وقد كنت بالأمس أيضا تستطيع إبادتهم لو استجبت لملك الجبال حين جاءك ينتظر الأمر منك ليطبق عليهم الأخشبين ولكنك رفضت واستغفرت لهم وأملت أن يخرج من ظهورهم من يعبد الله . ما أعظم هذه اللحظة العظيمة التى يسجل فيها التاريخ عفو محمد عن قومه وعظمة خلقه وقوة حلمه . ليقرأ أولئك الذين وصفوا محمداً بالقسوة والغلظة وبحب السيادة والسلطان ليقرأوا تاريخ محمد وكفاهم أن يقفوا على هذه اللفتة الطيبة الوحيدة ليحكموا بأنفسهم عن عنصر ومعدن هذا النبى العظيم.

وأنفض أهل مكة من حول رسول الله ، وذهب كل إلى داره يراجع نفسه ويراجع حساباته مع محمد ونظرته لهذا النبى العظيم والبشير النذير . وذهب رسول الله إلى دار إبنة عمه « أم هانئ بنت أبى طالب » فأغتسل وصلى صلاة الفتح ، وكانت ثمان ركعات . وثانى يوم الفتح ، قام رسول الله خطيباً فى الناس عند البيت ، وأعلن لهم حرمة مكة وحرمة القتال فيها ، وقد قال فى ذلك : « إن الله حرمها ولم يحرمها الناس ، لايحل لإمرئ يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يسفك بها دما ولايعضل بها شجراً ، فإن أحدٌ ترخص بقتال رسول الله فقولوا له إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب » .

وجاءت رسول الله أعداد كبيرة من أهل مكة للدخول فى الاسلام والمبايعة له ، فجلس لهم على باب « الصفا » يبايعهم على السمع والطاعة وما استطاعوا . ودخل فى الاسلام مع الداخلين رءوس القوم من أهل مكة آنذاك . ولما فرغ رسول الله من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء ، اللائى تجمعن لمبايعته ، وجلس رسول الله على « الصفا » ، وأجلس « عمر بن الخطاب » أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه .

وأقام رسول الله بمكة أسبوعين بعد فتحها ، ثم ارتحل الى المدينة ، بعد أن أزال عن مكة كل آثار وأدران الوثنية ، ولم يستبق فى الاسلام من مناصب البيت الحرام التى كانت فى الجاهلية إلا سدانة الكعبة ، فقد أقرها فى عثمان بن طلحة وأبنائه من بعده ، وهى فى يدهم حتى اليوم . وأرسل رسول الله رجاله فى البلاد يحطمون الأصنام والأوثان حيث كانت ، ونادى مناديه ، قبل أن يفارق مكة ، أن من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره . وأرسل رسول الله « خالداً بن الوليد » فى عدد من رجاله ، وأمره أن يسير إلى أسفل « تهامه » لهدم هيكل « العزى » ، وقد كان أكبر صنم لقريش ببطن « نخله » . ولم يأمر رسول الله خالداً بالقتال ، لكن خالداً حين وصل الي أرض « بنى جذيمة » قتل منهم رجالاً وأصاب آخرين . فلما علم رسول الله بذلك غضب عضباً شديداً وتبرأ مما فعل خالد ، وأرسل لبنى جذيمة « علياً بن أبى طالب » يحمل معه فدية قتلاهم وأعطاهم حتى رضوا .

وقد قام ابن الوليد فى غزوته هذه بهدم هيكل العُزى ، وهدم البيت الذى كانت فيه وهو البيت الذى كان فيه بناءً مربعاً يرمز للعُزى وكانت تعظمه قبائل قريش وكنانة ومُضر .

وأرسل رسول الله « عمرواً بن العاص » لهدم صنم « سواع » ، وقد كان أعظم صنم لقبيلة « هذيل » ، وكان منصوباً على بعد ثلاثة أميال خارج مكة . كذلك بعث رسول الله « سعداً بن زيد الأشهلى » لهدم « منات » ، وهى صنم قبيلتى « كلب » و « خزاعة » ، وكانت علي جبل مشرف على ساحل البحر الأحمر ، شمالى « جدة » بنحو مائة وسبعين كيلو متر .

* * *

غزوة حنين

كان على رسول الله أن يواجه عداء قبيلة « هوازن » له ، وتحالفها مع قبيلة « ثقيف » ، التي تسكن الطائف ضده . وكانت هوازن على عداء قديم ومرير مع قريش فى الجاهلية على السيادة على عرب الحجاز . وقد رأت هوازن فى خضوع قريش لمحمد أن فرصتها قد جاءت لتحقيق هذه السيادة بعد أن خرجت منافستها من مضمار الصراع وحلبته . كذلك رأت ثقيف أيضا أن محمداً القرشى يريد أن يقيم مملكة لقريش فى الحجاز تكون السيادة فيها لمكة فعزموا على القضاء على هذه الدولة القرشية قبل أن تقوم قائمتها .

ولمّا فتح الرسول مكة إجتمع أشراف هوازن وثقيف ، جمعهم « مالك بن عوف النضرى ، وقال لهم : « إن محمداً قد قاتله قوم لم يحسنوا القتال ولم يكن لهم علم بالحرب فغلب عليهم ، وإنه لا محالة قاصدنا فسيروا إليه قبل أن يظهر ذلك منه » وخرج المقاتلون من هوازن وثقيف ونزلوا عند « أوطاس » ، وهو واد قرب « ذى المجاز » بين مكة والطائف ، وكان عدد الخارجين أربعة آلاف مقاتل اصطحبوا معهم نساءهم وذراريهم وكان خروجهم فى العام الثامن للهجرة .

ولمّا علم رسول الله بأمرهم خرج إليهم فى السادس من شهر شوال من

نفس العام في إثني عشر ألف مقاتل ، وعندما شاهد رسول الله كثرة من معه من جنود قال : « لن نُغلب اليوم من قلة » ، والتقت قوات المسلمين مع قوات أعدائهم يوم العاشر من شهر شوال عند وادى حنين ، وهو من أودية تهامة ، وكانت هوازن قد عملت هنالك كمائن لجيوش المسلمين في الوادى وباغتوهم رمياً بالسهام . ووقع الذعر في صفوف المسلمين وهرب كثير منهم لايلوون على شئ ، وثبت رسول الله في ميدان المعركة ، وثبت من حوله فقط عشرة رجال من المسلمين ، كان من بينهم أبو بكر وعمر وعليّ والعباس وأبو سفيان وأسامة بن زيد والفضل بن العباس وأيمن بن عبيد . فلماً انهزم الناس أمر رسول الله عمه العباس ، وكان جهورى الصوت ، أن ينادى فى الناس أن يثبتوا ، فناداهم ، فاجتمعوا وعادوا لرشدهم وعاودوا القتال مستبسلين فيه حتى حولوا الهزيمة الى نصر وأعملوا القتل فى الأعداء . فلماً انهزمت هوازن توقفت عن القتال وأعلنت استسلامها ، لكن ثقيفا استمرت تقاتل وقُتل سبعون من رجالها ، ولماً أدرك الأعداء أن الهزيمة لا محالة واقعة بهم هرب من نجى من رجالهم من القتل تاركين وراءهم نسائهم وذراريهم وأموالهم غنيمة للمسلمين . وهكذا استطاع رسول الله بشجاعته وحسن قيادته وضربه المثل فى التضحية والفداء أن يحول هزيمة جيشه الى نصر محقق وأن يحصل من الأعداء على الكثير من الغنائم والأسلاب . ولقد أحُصيت الغنائم يومئذ فبلغت إثنين وعشرين ألفاً من رءوس الإبل وأربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، أما عدد الأسرى الذين وقعوا في يد المسلمين من رجال هوازن ورجال ثقيف فقد كان عدداً كبيراً جاوز الستة الاف أسير ، وتعقبت قوات المسلمين فلول هوازن حتى بلغوا أوطاس ، وهنالك هزموهم شر هزيمة وسبوا من احتملوا من نساء وغنموا ما استطاعوا من أموال وعادوا بها إلى رسول الله ، وقد أنزل الله تعالى فى غزوة حنين قوله من سورة التوبة : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ .

وبعد انتصار رسول الله فى حنين سار لفتح « الطائف » ، وتقدم إليها بقواته وهو يشعر بقوة الإيمان ويزهو بنصر الله وفضله عليه ، وقد تذكر وهو فى طريقه إليها ، يوم طُرد منها وخرج مهاناً مغلوبا ، يوم أن جاء أهلها يدعوهم إلى دين الله وكان قد توسم فيهم خيراً بعد أن رأى الشر كل الشر من قومه فى مكة . تراءت هذه الصور وتتابعت فى ذهن رسول الله فحمد الله وشكره لصدقه وعده له واعزازه بعزة الاسلام . ها هى الطائف اليوم تقف خائفة رغم حصونها وقومها يرتجفون ويرتجف معهم من هرب إليهم من هوازن . لم يستطيعوا الخروج لمواجهة رسول الله وقد عرفوا أن الموت مصير كل من يجرؤ على المواجهة ويتحدى باللقاء . هاهم جند الله يحملون الموت على أسنة رماحهم وحد سيوفهم لكل كافر يتحدى إرادة الله . لقد ظل أهل الطائف مختبئين وراء أسوار مدينتهم وحصونها التى حاصرتها الجيوش الاسلامية مدة سبع عشرة ليلة لم يجرأوا خلالها على المواجهة وبخاصة حين رمتهم قوات المسلمين « بالمنجنيق » فنزلت عليهم حمم النيران من كل مكان . وبعد أن أدرك رسول الله عدم جدوى الحصار ، أمر برفعه عن الطائف والعودة إلى المدينة . وترك رسول الله الطائف خلفه وهو يدعو لأهلها بالهداية وهو يفارقهم بقوله عليه السلام : « اللهم أهد ثقيف وآت بهم » .

وعاد الرسول مع قواته الى منطقة « الجعرانة » حيث كان قد ترك بها أسرى وأسلاب هوازن التى غنموها يوم حنين ، وقام بتوزيع هذه الغنيمة على المقاتلين . وقد جعل رسول الله للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً من هذه الغنيمة ، وكان قبلاً قد جعل فى « بدر » للفارس سهمين وللراجل سهماً واحدا ، ولعل هذه الزيادة فى القسمة قد جاءت بسبب كثرة غنيمة حنين . وقبل أن يغادر الرسول « الجعرانة » جاءت رسل هوازن رسول الله تطلب منه أن يرد اليهم أسلابهم ونساءهم مقابل دخولهم فى طاعته وأن يدينوا له بالولاء . ولكن رسول الله خيّرهم بين الأسلاب والنساء فاختاروا نساءهم فسلمهن لهم بعد أن أخذ منهم عهداً بالولاء والطاعة لحكومة المسلمين .

وكان « زهير بن صرد الجشمى » ، خطيب هوازن ، قد قال لرسول الله قبل أن يمن عليهم « يارسول الله إن ما فى الحظائر من النساء خالاتك

وعماتك وحواضنك اللاتى تكفلنك ، ولو أننا مالحنا ابن أبى شُمر أو النعمان إبن المنذر ثم أصابنا مثل الذى أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما » .
ولقد قصد زهير بالممالحة هنا إرضاع النبى فى بنى سعد من هوازن حين أخذته « حليمة السعدية » لترضعه فيهم وهو طفل صغير . كذلك قصد « بابن أبى شمر » الحارث الغسانى أمير الغساسنة وبالنعمان بن المنذر أشهر ملوك الحيرة . وقد أنشد زهير أبياتاً فى مدح رسول الله آنذاك يستعطفه بها ويبرز قدره منها قوله :

أمانن علينا رسول الله فى كـــرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظـــــرُ
أمنن على بيضة قد عاقها قـــدرٌ ... مفرق شملها فى دارها نميـــرُ
أمنن على نسوة قد كنت ترضعهـا ... إذ فوك يملؤه من محضها الـــدررُ
إذ أنت طفلٌ صغيرٌ كنت ترضعهـا ... وإذ يريبك ما تأتى وماتـــذرُ
ياخير من مرحت كمتُ الجياد بـه ... عند الهياج إذا ما استوقد الشررُ
فألبس العفو من كنت ترضعـــه ... من أمهاتك إن العفو مشتهــرُ
إنا نؤمل عفواً منك تلْبسـه ... هذى البرية إذ تعفو وتنتصــرُ
عفواً عفا اللهُ عما أنت راهـــبه ... يوم القيامة إذ يُهدى لك الظفــرُ

فلما سمع رسول الله هذا الشعر من زهير ، رق لهوازن وهاجت مشاعره وبدى حلمه وعطفه فقال مخاطباً هوازن : « ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » . فقالت قريش عندئذ : « ماكان لنا فهو لله ولرسوله » ، وقالت الأنصار مثل قول قريش ، فأطلقهم رسول الله جميعاً . هذه هى صفات النبى العربى : العفو عند المقدرة والعرفان بالجميل ، وصلة الأرحام ، تجلت يوم حنين وضرب الرسول بها أروع الأمثال .

ورجع رسول الله من الجعرانة إلى مكة ، وقام بأداء عمرة ثانية فيها ، ثم ودعها مغادراً إلى المدينة ليستقر بها حتى يوافيه الأجل المحتوم . وقد فرح الأنصار بعودة رسول الله الى مدينتهم وكانوا يتخوفون أن يتركهم بعد أن فتح الله عليه مدينته المحببة ومسقط رأسه مكة ، لكن رسول الله وفى للأنصار بعهده لهم فى أن يبقى بينهم حتى الموت . وترك رسول الله « عتاب بن أسيّد » والياً علي مكة من قبله ، وجعل له مقابل ذلك راتباً مقررا قدره درهم واحد كل

يوم ، كذلك أبقى معه « معاذ بن جبل » ليعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين .

وفى يوم السابع والعشرين من شهر ذى القعدة مر رسول الله بالحديبية ومكث قليلا تحت الشجرة التى تم تحتها « بيعة الرضوان » منذ ثمانية أعوام خلت ، وتذكر تلك الأيام وما جرى فيها وصلى هنالك صلاة الشكر حمداً وشكراً لله على ماكان عليه فى ذلك الوقت وما أصبح عليه الان . وكان رسول الله يقابل فضل الله عليه بالمزيد من العبادة ويقول : « أفلا أكون عبداً شكوراً » . ثم عاد رسول الله إلى المدينة ، واطمأنت بعودته قلوب الأنصار الذين التفوا حوله بقلوبهم قبل أجسادهم . وكان صاحب الرسالة وهو فى مجلسه الروحى معهم يوجه ويُربى ويخلق الجيل الذى سينشئ حضارة أرقى وأنقى ويُلقى بنور الانسانية الجديدة التي ستنقذ العالم من جبروت حكام الروم والفرس . كان عليه السلام فرداً يجلس كما يجلس العبد ، ويأكل كما يأكل العبد ، ولكن الأشعة المنبثقة من أركانه كانت تجعل الأبصار تنحسر عنه وتجعل الأباطره والقياصرة يجثون عند قدميه . وإن حسبت أقدار الناس وفق جهادهم لإحقاق الحق وازهاق الباطل فمحمد أصدقهم قيلا وأهداهم سبيلا وأقواهم حجة وأشدهم إيمانا وتصديقاً بدعوته وأقدرهم بالخلق الجميل والقلب الكبير والصبر الطويل على ابراز الحقيقة وحمايتها وتفتيح الجفون المغلقة علي سناها والقلوب المظلمة على ضياها .

وما أن وصل رسول الله المدينة حتى قدم عليه من الطائف الشاعر « كعب ابن زهير بن أبى سلمى » ، وقد كان كعب وأبوه من فحول شعراء العرب . جاء ليعلن اسلامه وتوبته عن هجوه رسول الله والمسلمين ، وكان كعب قد هجى الرسول والمسلمين كثيرا فى قصائده . ولقد رحب رسول الله بمقدم كعب وقبل اسلامه وتوبته . وفرح كعب بعفو رسول الله عنه فأنشده قصيدته « اللامية » المشهورة يمتدحه فيها ، وهى قصيدة طويلة كلها فى مدح رسول الله بدأ أول أبياتها بقوله :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكـــــبولُ

واختتمها بقوله :

إن الرسول لنورٌ يُستضاء بـــه ... مهندٌ من سيوف الله مسلــــولُ

وقد كافأ رسول الله كعباً على قصيدته ، على عادة كرماء العرب للشعراء ، ببردة كانت عليه ففرح بها كعب وظل يرتديها حتى وفاته وقد توارثها أبناؤه من بعده وحرصوا علي مداومة ارتدائها إلى أن طمع فيها معاوية بن أبى سفيان » أيام خلافته فاشتراها منهم بأربعين الف درهم ، وصار معاويه يرتديها ، وتوارثها من بعده خلفاء الامويين ، ثم خلفاء العباسيين ، وصار ارتداء بردة الرسول شاره من شارات الخلافة .

* * *

لقد أطلق المسلمون على غزو مكة اسم « الفتح » ، وصارت كلمة الفتح تُطلق بعد ذلك ، على كل غزو للمسلمين . ولقد كان فتح مكة ، حقيقة ، تتويجاً لكل جهاد رسول الله وصبره ونجاحاً لسياسته وحكمته ، وتأييداً له من ربه الذى أرسله بالهدى ودين الحق . فلقد زكاه الله واصطفاه من دون عباده واختاره لهذه الرسالة الخالدة وأيده بنصره مُظهراً أن دعوته الحق إلى يوم تقوم الساعة . ولقد صار ألد أعداء محمد ، بعد هذا الفتح ، وعلى رأسهم أبو سفيان من أخلص أتباعه بعد أن دخلوا الإسلام واعترفوا بأنه رسول الله حقاً وصدقاً ، وتبينوا أنهم كانوا على العمى وكانوا يسيرون فى طريق الضلالة حين أنكروا رسالته وتصدوا بحربهم لدعوته . وقد أحرز هؤلاء الزعماء المكانة والنفوذ السياسى في ظل دولة الإسلام وحققوا الفوائد المادية التى لم يتحقق مثلها لهم من قبل ، وصاروا فى مقدمة رجال دولة الرسول التى اتسعت آنذاك وصارت تمتد من حدود دولة الروم إلى مدينة الطائف وقد غطى نفوذها تقريباً كل شبه جزيرة العرب .

فى ذلك الوقت ، لو نظرنا إلى العالم الخارجى ودولة الرسول الوليدة ، نجد الصراع لازال محتدماً بين أكبر دولتين آنذاك وهما دولتى الفرس والروم . وكان الفرس قبل هجرة الرسول ، قد تقدموا بقواتهم حتى حاصروا القسطنطينية عاصمة دولة الروم ، محرزين نصراً كبيراً على أعدائهم الروم ، لكن الفرس لم يواصلوا تهديدهم لعاصمة الروم بسبب ظروف داخلية منعتهم من التقدم ومواصلة الحرب . وفى العام الأول للهجرة (٦٢٢ م) قام

الامبراطور الرومانى « هرقل » على رأس جيشه بالتوجه من القسطنطينية إلى مكان مرابطة قوات الفرس فى آسيا الصغرى ، وقام بمحاربتهم ومطاردتهم ، ونجح فى ايقاع الهزيمة بالقائد الفارسى الشهير « شهربرز » . لكن الفرس نجحوا ، بعد أن تحالفوا مع السلاف والآفار ، فى هزيمة قوات هرقل وتحويل انتصاره إلى هزيمة . وللمرة الثانية تقدمت قوات الفرس نحو عاصمة الروم وقاموا بحصارها وتهديدها ، وكان ذلك فى العام السابع الميلادى (٦٢٦ م) . وتقدمت قوات القائد الفارسى شهر برز إلى داخل الأراضى الرومية مكتسحة قواته قوات الروم ، حتى وصل بجيشه المعزز بقوات من جيوش حلفائه السلاف والآفار إلى مدينة « خلقدونيا » ، على الشاطى المقابل للبسفور ، وعسكر الجيش الآفارى تحت أسوارها ، لكن الروم قاوموا هذا الغزو . وفى شهر ديسمبر من عام ٦٢٧م ، وهو تاريخ موافق لتاريخ هزيمة قريش فى غزوة الخندق ، انتصر هرقل على الفرس عند مدينة « نينوى » . وفى شهر فبراير عام ٦٢٨ م ، تقدم هرقل بقواته إلى طيسفون « المدائن » عاصمة الفرس ، وفى ذلك الوقت قام نبلاء فارس باقصاء مليكهم كسرى عن الحكم ونصبوا مكانه إبنه « كاوس شيرويه » . وقد قام شيرويه بقتل والده وطلب الصلح مع هرقل، وقد وافقه هرقل على طلب الصلح ووقعه معه تقريباً فى نفس وقت توقيع الرسول لصلح الحديبية مع قريش . قد وقعت ثورات داخلية ضد شيرويه ملك فارس ، ونجح قائده شهر برز فى اعتلاء عرش فارس ، ولقد انسحب شهر برز سريعاً عن سوريا وفلسطين ومصر وقبادوقيا ليثبّت حكمه فى داخل فارس . وفى اغسطس عام ٦٢٩ م . نجح هرقل فى استعادة بيت المقدس والحج إليها وإعادة « صليب الصلبوت » لها ، وكان ذلك يزامن عودة الرسول إلى المدينة بعد فتحة مكة . ولقد تأكد أنذاك انتصار المسيحية على يد هرقل وتردد صدى هذا النصر فى كل العالم وأرسل له حاكم الهند بأطيب تمنياته ، وقام ملك الفرنجة « داجوبرت » بعقد الصلح معه ، وبصدد ذلك نزلت سورة « الروم » التى تبشر بنصر أهل الكتاب على المشركين .

ولقد تركت هزيمة الفرس على يد الروم الميدان مفتوحا فى جزيرة العرب لانتشار الإسلام ونجاح المسلمين فى فرض سيطرتهم هناك وهو أمر لم يكن

يدور فى خلد كل من الفرس والروم ولم يضعوه فى حساباتهم . وقد كان للفرس نفوذ كبير فى شرق جزيرة العرب وكانوا يدعمون اليهود هناك . وقد قلص الفرس نفوذ الأحباش المسيحيين هناك ، وصار جنوب الجزيرة ينقسم إلى « أقيال » صغيرة مستقلة ، ولقد قام الرسول بإرسال غزوات صغيرة إلى تلك البلاد ليحولها إلى الإسلام ونجح فى ذلك ، ودخل بعضهم الإسلام عن إيمان واعتقاد بينما أظهر بعضهم الآخر الإسلام وأبطن الكفر . وتعهدت قبائل هذه البلاد بأن تدين بالولاء لدولة الرسول وأن تحطم أصنامها وأن تتعهد بدفع الزكاة ، على أن يحتفظ حكامها باستقلالهم الذاتى .

وسمح رسول الله لنصارى « نجران » بأن يظلوا على دينهم على أن يدفعوا الجزية ، كذلك من سكن هذه البلاد من بقايا اليهود، وكان رسول الله قد بعث « خالداً بن الوليد » الى بنى الحارث ، أهل نجران ، فكتب له خالد ، بعد أن إستقر بينهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

لمحمد النبى رسول الله من خالد بن الوليد ..

السلام عليك يارسول الله فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام وأدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنى قدمت إليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركباناً : يا بنى الحارث اسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمر الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى ﷺ حتى يكتب إلىّ رسول الله – والسلام عليك يارسول الله » .

وقد رد رسول الله على كتاب خالد بما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد ...

سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبرنى أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى مادعوتهم من الإسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن قد هداهم الله بهداه فبشرهم ، وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وقد كتب رسول الله مع نصارى نجران معاهدة جاء فيها كالآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ..

هذا ماكتب محمد النبى رسول الله ﷺ لأهل نجران إذ كان عليهم حكمه فى كل ثمرة وفى كل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل ذلك عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفىْ حلة من حلل الأواقى فى كل رجب الف حلة وفى كل صفر ألف حلة كل حلة أوقية من الفضة فما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقى فبالحساب وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب ، وعلى نجران مؤنة رسلى ومتعتهم مابين عشرين يوما فما دون ذلك ولاتحبس رسلى فوق شهر وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيرا إذا كان كيد باليمن ومعرة وماهلك مما أعاروا رسلى مع درع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلى حق يؤدوه إليهم .

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير لايغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس ربية ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولايطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين .

ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر وعلى مافى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله حتى يأتى الله بأمره مانصحوا وأصلحوا ماعليهم غير مثقلين بظلم » .

شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بنى النضر والأقرع بن حابس الحنظلى والمغيرة بن شعبه، وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله ابن أبى بكر » .

وبعد عام من رفع رسول الله الحصار عن ثقيف جاءه وفدها يبايعونه ويعلنون له دخولهم فى الإسلام بعد أن تأكدوا أن لاطاقة لهم بحرب دولة رسول الله ، وكان الرسول بعد أن جلى عن الطائف قد شجع أحلافه من هوازن على مهاجمتها وقطع تجارتها مع مكة التى كانت تشكل عماد إقتصادها ، ولذلك استسلم الثقفيون ، وكتبوا كتاباً مع رسول الله يعلنون فيه الولاء والتبعية . ولقد أمرً عليهم رسول الله « عثمان بن أبى العاص » ، كما أرسل « أبا سفيان » و « المغيرة بن شعبة » إلى الطائف لتحطيم « اللات » صنم ثقيف ، فقام المغيرة بتحطيمها .

أما عن المنطقة الشاسعة الوسطى من جزيرة العرب المعروفة باسم « اليمامة » ، وكانت فى يد بنى حنيفة ، فقد كان أهلها حلفاء للفرس ، وكانوا يقومون بالاتجار بين فارس وجنوب شبه الجزيرة . وكان معظم بنى حنيفة على المسيحية ، ولقد أتخذ رؤساؤهم ألقاب الملوك لأنفسهم ، واتصل بعض رؤساء هذه القبيلة بالرسول ، وأعلنوا دخولهم فى الإسلام على أن يبقيهم الرسول فى مناصبهم فى قبيلتهم ، وقد وافقهم الرسول على ذلك ، إلا أنه ظهر بين بنى حنيفةرجل أدعى النبوة هو « مسيلمة » الذى عرف باسم « مسيلمة الكذاب » ، وقد إدعى أن الوحى ينزل عليه وأنه ينظم قرآنا مثل الذى يتنزل على محمد . وقد وضع مسيلمة لأتباعه صلاة خاصة وطقوساً لعبادة إلهه الذى دعى إليه وادعى أن اسمه « الرحمن » . وكان مسيلمة متأثرا فى أفكاره بتعاليم المسيحية وبعض التعاليم الالحادية . وحاول مسيلمة الاتصال بمحمد على أن يعقد أتفاقا معه على أن يتقاسما النبوة فيما بينهما ، ولكن رسول الله رفض عرضه وأعلن كفره ووجوب حربه . ولقد باءت محاولات مسيلمة بالفشل فى دعواه فى عهد الرسول ، ولكنه بعد وفاة الرسول حاول التحالف مع « سجاح التميمية » ، والتى ادعت النبوة ، ولعبت نفس الدور مع قبيلتها من « بنى تميم » الذين كانوا يسكنون شرق بنى حنيفة ويدينون بتعاليم المسيحية النسطورية . لكن محاولات هؤلاء المتنبئين وغيرهم من المرتدين ومانعى الزكاة ، بعد وفاة الرسول ، قد قضى عليها فى بداية عهد خلافة أبى بكر ، أول الخلفاء الراشدين .

وإلى الشمال الشرقى لامبراطورية فارس عاشت فى شبه الجزيرة قبيلتان عربيتان كبيرتان هما « بكر بن وائل » و « تغلب » وكانتا كليهما على المسيحية على المذهب اليعقوبى « المونوفيزيتى » ، وكانتا على علاقة طيبة على الدوام مع امبراطورية فارس أيام قوتها ، ولكن حين ضعفت دولة فارس وساءت العلاقة بينها وبين هاتين القبيلتين ، نجحت قبيلة بكر بايقاع الهزيمة بقوة فارسية فى معركة عُرفت باسم « ذى قار » ، وحين ظهرت دعوى الإسلام توثقت علاقة هاتين القبيلتين مع الرسول دون أن يشترط عليهما الرسول ضرورة تحول جميع أفرادها إلى الإسلام .

لكن هذه القبائل دخلت فى الإسلام طوعاً ونجحت ، بعد وفاة الرسول ، فى أن تكون أول من هاجم دولة فارس باسم الإسلام ، وأول من أرسى قواعده بين شعبها من الفرس أيام الفتوح .

غزوة تبوك :

لم يتطلع الرسول إلى فتح هذه البلاد بقدر تطلعه إلى فتح المناطق الواقعة إلى شمال المدينة عند حدود دولة الروم ، عند الركن الشمالى الغربى من الجزيرة العربية. ولقد أبدى رسول الله نشاطاً زائداً نحو فتح هذ الأرجاء وتوصيل رسالته إلى أهلها وتبليغهم إياها إنطلاقاً من سياسته عليه السلام فى تبليغ رسالته لكل العالم.

وبعد فتح مكة ، بحوالى عشرة شهور ، جهز حملة كبيرة إلى تلك الجهة إنتقاماً لما حدث للمسلمين فى معركة « مؤتة » . وكانت وجهة تلك الحملة إلي تبوك ، التى تقع على بعد مائتين وخمسين ميلاً من المدينة ، على حدود دولة الروم . وكانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ، فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة . ولقد أمر رسول الله الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، وأعلن لأول مرة عن وجهته التى يريدها ولم تكن عادته كذلك . ولعله قصد من هذا الاعلان أن يبين لأتباعه أهمية هذه الغزوة وكثرة مشاقها وطول طريقها وخطر العدو الذى سوف يقابلونه فيعدون للأمر عدته . ولقد كان الوقت صيفاً شديد

الحرارة وأصاب البلاد سنتها جدب ، ولذلك عُرف هذا الجيش باسم « جيش العسرة » ، وبلغ عدد المشاركين فيه حوالى ثلاثين الف مقاتل ، وقد أمر رسول الله أهل الغنى أن يجهزوا من لا طاقة له بالجهاز . وأنفق « عثمان بن عفان » فى ذلك نفقة عظيمة وجهز ثلثمائة بعير بعدتها وقدَّم ألف دينار عيناً للمساعدة فى نفقة هذا الجيش .

وجاء سبعة أنفار إلى الرسول ، وهم من الأنصار ، ممن لا ركوب لهم وتخلفوا بسبب ذلك وهم يبكون ، وتخلف عن الغزو بعض المنافقين متعللين بالحر . وقد نزل فيهم قوله تعالى آيات من سورة التوبة ﴿ **فرح المخلفون بمقاعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لاتنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ، فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾ . ﴿ **ولا على الذين إذا ماأتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون** ﴾ .

وأقام رسول الله عشرة ليال فى تبوك لم يفارقها ، وفى الروايات أقام عشرين ليلة ، دون أن يظهر الروم له ، ثم قفل راجعاً إلى المدينة ، بعد أن حققت الغزوة الأهداف التى خرج من أجلها . وقد كان ظهور رسول الله بجيشه يقوده بنفسه متحدياً قوة الروم رمزاً حقيقياً لقوة دولة الإسلام فى المدينة . وقد أدرك أمراء تلك الأنحاء حقيقة هذه القوة فلم يتصدوا لمحاربة رسول الله وجنحوا للصلح معه . فجاءه « يوحنا » ، صاحب « إلات » (مدينة

إيلات الحالية) وعقد معه إتفاقاً على أن يدفع وأهل إمارته من النصارى الجزية ، وقد قدرت بحوالى ثلثمائة دينار سنوياً . كذلك جاء أهل « جرباء » بالأردن، وأهل « أذرح » (قرية صيد بالبحر الأحمر) .واتفقوا معه على دفع الجزية ، وكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك .

وأثناء مقامه بتبوك ، أرسل الرسول « خالداً بن الوليد » على رأس قوة قوامها أربعمائة وعشرين فارساً إلى « دومة الجندل » ، وهى حصن بين الشام والمدينة قرب جبل طىء ، وأجبر خالد مليكها المسيحى على أن يذهب إلى تبوك وأن يعقد مع الرسول معاهدة يدفع بمقتضاها الجزية.

وبعد هذا النجاح الذى حققته حملة رسول الله إلى تبوك عاد إلى المدينة ، بعد أن أظهر قوته للروم دون الدخول معهم فى معركة فاصلة ، ولكنه بحملته هذه أوحى لمن سيحكم دولة الإسلام من بعده أن يتعهد بحرب الروم وغزو بلادهم ، وهذا ماتم فى عهد الراشدين والأمويين . وحين قامت قوات الإسلام بفتح بلاد الروم وتحويل أهلها إلى الإسلام إدعى بعض كتاب الغرب والمستشرقون المتعصبون بإن الإسلام انتشر فى هذه البلاد بحد السيف فى وقت ضعفت فيه دولة الروم المسيحية ولم تستطع أن تحمى شعوبها من هذا التحول إلى الدين الجديد ، وأن هذه التحول قد فرض عليهم والسيف على رقابهم .

وهذا القول قول مردود على أصحابه ودعواه باطلة لأن كتب التاريخ جميعها التى تعرضت للفتح الإسلامى سواء كتبها مسلمون أو غير مسلمين لم تشر ولو إشارة واحدة إلى أن المسلمين الفاتحين أجبروا شعباً من الشعوب التى فتحوا بلادها على اعتناق الإسلام وترك ماهم عليه من ملة . والمسلمون والرسول من قبلهم ، أسقطوا حكومات هذه الشعوب الغاشمة التى حالت بين شعوبها والإسلام ووقفت حجر عثرة فى سبيلهم للتعرف على هذا الدين الجديد ، ولما سقطت هذه السدود المنيعة التى وضعها هؤلاء الحكام وقفت شعوب هذه البلاد على الإسلام، وكان عليها إما أن تختاره وإما أن تظل على ديانتها . والرسول بكسره لهذا الحاجز إنما ينفذ أمر ربه بابلاغ وإيصال هذا

الدين إلى العالم كله لأنه أرسل للناس كافة وعامة . وقد قام رسول الله بالفعل ، قبل الغزو المسلح كما رأينا ، بانفاذ رسله وكتبه إلى ملوك وحكام العالم آنذاك يدعوهم إلى الإسلام ، ويبلغهم ويرشدهم وينذرهم ويشهد يوم القيامة أمام الله عليهم لأن الله أرسله للناس كافة وعامة ﴿ **شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾ . وحين رفض معظم الحكام آنذاك نداء رسول الله إلى الإسلام وإلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، أمر رسول الله بكسر هذا الحاجز الذى أقامه الحكام بين شعوبهم والإسلام ، وقد ضرب بنفسه المثل فى ذلك فى إنفاذه جيش « مؤته » وقيادته بنفسه جيش غزوة تبوك ، وتجهيز جيش آخر ، بعد ذلك ، لمحاربة الروم بقيادة « زيد بن حارثة » ، ثم قيادة إبنه « أسامة بن زيد » .

وكان رسول الله إمام المجاهدين للكفر فى كل العالم لا فى الجزيرة العربية وحدها ، وقد حمل راية الجهاد من بعده قواد المسلمين المجاهدين أيام الراشدين والأمويين ، وكانت الفتوحات الكبرى التى كونت دولة الإسلام العظيمة التى إمتدت من المحيط الأطلنطى غرباً إلى حدود الصين شرقاً .

ولو قرأنا تفاصيل أحداث مجريات الفتوحات الإسلامية وجهاد المسلمين فى هذه الفتوح التى بدأ بها رسول الله ، لانجد فيها أى إكراه أو إجبار لمسيحى أو يهودى أو حتى مجوسى على ترك ملته والدخول فى الإسلام ، فلقد كان السيف فقط على رأس المحارب الكافر الملحد والمشرك الذى تصدى للقوات الفاتحة، أما أهل الكتاب فلقد كفل لهم الإسلام حرية العبادة على أن يدفعوا الجزية ،كما يدفع المسلم الزكاة ، وصاروا أمانة فى رقاب المسلمين وعرفوا « بالذميين » أو « أهل الذمة » . وبعد أن عرف هؤلاء الأميون سماحة الدين الجديد وقوة حجته وصدق منطقه وأمانة مبلغه وعدالة شرعته وتبين لهم بطلان معتقداتهم وظلم حكامهم الذين استعبدوهم باسم الديانات التى أقاموها لهم والتماثيل لأنفسهم وأجبروهم على الركوع لها وعبادتها ، أقبلوا بعد هذا كله ، على الإسلام ودخلوا فيه بأعداد كبيرة فى وقت قصير .

وقد شق على غلاة المسيحية وقادتهم أن يتحول أهالى بلاد كانت قلبا

للمسحية ومعقلاًلها ، مثل بلاد الشام ومصر ، إلى الإسلام ، وأن تصبح هذه البلاد فى يوم وليلة مراكز كبرى للإسلام ومنارات عالية له ، فقالوا كذباً وحقداً وحسدا أن الإسلام انتشر بحد السيف . والدارس لتاريخ الإسلام يعرف جيداً كيف حفظت دولة الإسلام ، على مر العصور ، للنصارى واليهود ، الذين ظلوا على ديانتهم ، حقوقهم وامتيازاتهم ، وكيف ظللتهم راية التسامح فى ظل الإسلام وكفلت لهم حريات وحقوق لم يكونوا يحلمون بها من قبل . وكتب التاريخ مليئة بالمعاهدات التى عقدها الرسول وحكام المسلمين من بعده تشهد على هذا التسامح وتدحض ادعاءات وافتراءات أولئك الحاقدين .

* * *

وعند عودة رسول الله من تبوك إلى المدينة ، نزل « بذى أوان » ، وهى بلدة بينها وبين المدينة المنورة مسيرة يوم ، جاءه خبر مسجد « الضرار » على لسان جبريل ، وقصة هذا المسجد تتلخص فى أن بنى « عمرو بن عوف » وهم رهط من الأنصار ، حين ابتنوا مسجد « قباء » أول مسجد بنى فى الإسلام ، بعثوا إلى رسول الله أن يأتيهم ليصلى بهم فيه فأتاهم وصلى بهم فيه . فحسدتهم إخوتهم من « بنى غنم »وكانوا من منافقى الأنصار ، فقرروا بناء مسجد لهم، ولما فرغوا من بناء المسجد ، جاءوا رسول الله وهو يستعدللذهاب إلى تبوك ، وطلبوا منه أن يأتى ليصلى بهم فيه ويدعو لهم بالبركة . فقال لهم رسول الله : « إنا على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله فصلينا بكم فيه» فلماً رجع رسول الله من تبوك ونزل بذى أوان ، جاءه المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار وطلبوا منه أن ينفذوعده معهم ، لكن جبريل أخبر رسول الله بنفاقهم وتواطؤ زعيمهم « أبى عامر » فى الأتفاق مع الروم والاستعانة بقواتهم فى اسقاط دولة محمد بالمدينة . فدعا رسول الله « مالك بن الدخشم » و« معن بن عدى »و« عامر بن السكن » ، وطلب منهم أن يذهبوا لمسجد الضرارفيهدموه ويحرقوه ، وقد فعلوا ما أمرهم به رسول الله رغما عن أنف بنى غنم، وقد نزل فى هذا الأمر آيات من سورة التوبة قوله تعالى :

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين

وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لاتقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين ﴾ .

وما أن وصل رسول الله إلى المدينة حتى دخل مسجده فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس فجاءه « المخلَّفُون » ، الذين تخلفوا عن السير معه فى غزوة تبوك ، يعتذرون ويتعللون بحجج واهية ويحلفون له ، وكانوا حوالى ثمانين رجلاً ، فقبل رسول الله أعذارهم ووكل سرائرهم إلى الله . وكان هنالك ثلاثة قد تخلفوا عن عمد ولم يكن هنالك عذر لهم فى التخلف ، وهم : « كعب بن مالك » و« مرارة بن الربيع » و« هلال بن أمية » ، وقد أمر رسول الله الناس أن يعتزلوهم وألا يكلموهم أو يخالطوهم جزاءً لما قدمت أيديهم . وقد كان « كعب بن مالك » من الرجال الذين شهدوا العقبة مع رسول الله . وقد لبث هؤلاء على هذا الحال خمسين يوماً والناس يقاطعونهم مقاطعةتامة حتى أنهم تمنوا الموت أو تُسوى الأرض بهم ، حتى تاب الله عليهم ، بعد ذلك الاذلال الذى وقع عليهم . وقد أبلغهم رسول الله بعفو الله عنهم وما نزل بصددهم من قرآن فى قوله تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ .

وبعد تبوك بقليل ، توفيت « أم كلثوم » إبنة رسول الله وزوجة « عثمان بن عفان » ، وقد توفيت عند عثمان من قبلها أختها « رقية » إبنة رسول الله . فلماَّ حزن عثمان لوفاتها ، قال له رسول الله :« لو كانت عندى ثالثة لزوجتكها يا عثمان » ، ومن المعلوم أن إبنة رسول الله الثالثة الصغرى « فاطمة » كانت متزوجة من ابن عمها « على بن أبى طالب » . وقد جلس رسول الله عند قبرها ، يشهد دفنها وعيناه تدمعان حزناً على فراقها .

وبعد وفاة « أم كلثوم » بأيام ، تُوفى رأس النفاق ، عبد الله بن أُبى بن أبى سلول ، فصلى عليه رسول الله ، رغم عدم رضاء الصحابة عن ذلك وبخاصة عمر بن الخطاب ، وهم يعلمون حقيقة معدنه ، فنزلت آيتان من سورة « براءة » تأمر الرسول بألا يصلى على الأموات من المنافقين ، قال تعالـــى : ﴿ **ولا تُصل على أحد منهم مات أبداً . ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

* * *

وبعد أن افتتح رسول الله مكة ودانت له قريش ، وبعد أن عاد من غزوة تبوك وقد أظهر لبوادى العرب وتوابع الروم قوة دولة الإسلام ، وبعد أن أسلمت « ثقيف » وبايعت وفُتحت الطائف للإسلام ، عرفت قبائل العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ، وأدركت ضرورة الولاء لدولة الإسلام ، لذلك ضربت إلى رسول الله وفود قبائل العرب من كل مكان فى العام التاسع للهجرة ، حتى سُمى هذا العام « بعام الوفود » .

وقد جاءت وفود العرب من كل حدب وصوب تعلن ولاءها للإسلام ودخولها فيه ، فنزل ذلك فى قوله تعالى فى سورة « الفتح » : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾ .

وكانت أول الوفود التى قدمت على رسول الله من المدينة لمبايعته فى هذا العام ، وفد « بنى عامر » ، وهم بنو عامر بن صعصعة ، وفيهم رئيسهم « عامر بن الطفيل » . وعرض ابن الطفيل على رسول الله شروطاً لإسلامه وإسلام قبيلته ، وهى إما أن يكون خليفة لرسول الله من بعده ، أو يكون الرسول رئيساً على المدن ويكون هو رئيساً على البادية . فرفض رسول الله عرضه ، وهدد ابن الطفيل بحرب رسول الله وغزو المدينة برجال غطفان بن بنى عامر ، وخرج غاضباً من عند رسول الله ولم يبايع ، ومات وهو فى طريق عودته إلى قومه بمرض الطاعون .

وقدم وفد بنى « عبد القيس » على رسول الله ، وهم بطن من بطون قبيلة « ربيعة » ، وبايعوا رسول الله وأسلموا . كذلك قدم على رسول الله وفد « بنى حنيفة » من اليمامة ، وفيهم « مسيلمة الكذاب » ، فأسلموا ، وأسلم معهم مسيلمة ، لكنه حين رجع إلى اليمامة إدعى النبوة فى قومه وكذب عليهم واتبعه بعض رجالهم ، وكانت نهاية دعواه فى خلافة « الصديق أبى بكر » . وقد راسل مسيلمة رسول الله يطلب منه المشاركة فى النبوة على أن يكون نصف الأمر لقريش والنصف الآخر لقومه من بنى حنيفة فرفض رسول الله طلبه ووسمه بالكذب ، فصار يُعرف « بالكذاب » . وقد وضع الكذاب لأتباعه صلاة خاصة وأحل لهم الخمر والزنا حتى يغريهم على الاستمرار فى طريق الغواية والفساد .

وقدم على رسول الله وفد قبيلة « طئ » وفيهم سيدهم « زيد الخيل » فأسلموا ، وقد سمّى رسول الله سيدهم بدلاً من زيد الخيل « بزيد الخير » . كذلك قدم وفد « كندة » وفيهم رئيسهَم « الأشعث بن قيس » وأسلموا وبايعوا . كما قدم وفد « زبيد » باليمن على رسول الله يرأسهم « معدى كرب » فأسلموا وبايعوا . وقدم بعدهم « الأشعريون » من أهل اليمن فأسلموا وبايعوا . وقدم على النبى وفد من « الأزد » بقيادة « صرد بن عبد الله الأزدى » من منطقة « حضرموت » فأسلموا وحسن إسلامهم ، وأمّر رسول لله « صرداً » على من أسلم من قومه وأمره أن يجاهد بهم أهل الشرك من قبائل اليمن . وقدم وفد « بنى الحارث بن كعب » من « نجران » يعلنون إسلامهم بعد استجابتهم لدعوى رسول الله حين أرسل إليهم « خالد بن لوليد » يدعوهم إلى الإسلام . وجاء وفد « همدان » وأعلن إسلامه ، وكذلك وفد « بنى سعد » من « قضاعة » من اليمن ووفد « بنى فزارة » فأسلموا . وجاءت وفود : « بنى أسد » ، و« بنى عذرة » ، و« بلى » ، و« ذى مرة » ، و« خولان » ، و« عبس » ، وقد أسلم جميعهم . وأسلم « المنذر بن ساوى » ، حاكم البحرين ، حين أرسل إليه رسول الله « العلاء الحضرمى » يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل وفداً من عنده إلى رسول الله ليؤكد له إسلامه وإسلام قومه من أهل البحرين .

وقد بعث رسول الله عماله إلى أرجاء أركان دولته ليتولوا أمرهم نيابةً عنه وليأموهم فى الصلاة ويجمعوا منهم الصدقات ويعلموهم الإسلام . فبعث « المهاجر بن أبى أمية بن المغيرة » إلى « صنعاء » باليمن ، كما بعث « زياداً إبن لبيد » إلى حضرموت ، و « عدياً بن حاتم » إلى طئ ، وبنى أسد ، و « مالك بن نويرة » إلى بن حنظلة ، و « العلاء بن الحضرمى » إلى البحرين ، و « عليٍّ بن أبى طالب » إلى أهل نجران .

وفى شهر ربيع الأول من هذا العام (التاسع للهجرة) توفى « إبراهيم » ابن رسول الله من زوجته « ماريا القِبطية » ، التى كان قد أهداها «المقوقس» حاكم مصر هى وأختها « سيرين » هدية له . فتزوج رسول الله من ماريا وأنجب منها إبراهيم ، وتزوج من سيرين « حسان بن ثابت » . توُفى إبراهيم وهو ابن عام ونصف عام ، ودفنه رسول الله « بالبقيع » . وقد حزن رسول الله على فراق فلذة كبده ودمعت عيناه وهو يواريه التراب ويقول : « القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول إلا ما يُرضى الرب وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون » . هذا هو محمد الإنسان ، يعيش الأفراح والأحزان ، وهذه هى إرادة الله فى ألا يبق لرسول الله من بعده من ولد ، وقد تكون إرادته قد شاءت ذلك حتى لا يورثه المسلمون الحكم والإمامة من بعده ، وحتى لا تكون دولة الإسلام دولة يتوارث فيها الحكم كدولتى الفرس والروم وإنما تكون القيادة فيها لأصلح العناصر التى يختارها إجماع المسلمين ، وهذا ما كان فى اختيار الخلفاء الراشدين . وحين تحولت دولة الإسلام إلى الملك الوراثى دخل إليها الوهن والضعف وعرفت الفرقة والانقسام وحملت فى عز قوتها عوامل ضعفها وأسباب إنهيارها وتدهورها ، وذلك حين حُرمت من حكم أصلح عناصرها واستسلمت لحكم رجال ورثوا الحكم على طبق من ذهب دون أن تتوافر لهم عناصر القيادة الحقة ومقومات الرئاسة الضرورية .

وقد كُسفت الشمس يوم موت إبراهيم ، ابن رسول الله ، فقال الناس أن هذه كرامة له ، وأن الشمس كسفت حزناً على موت إبراهيم وأسفا لبكاء رسول الله على فلذة كبده . فنهاهم رسول الله عن مثل هذا القول . ليضع

بذلك حداً لهذه الإفتراءات الباطلة قائلاً لهم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

* * *

أقام رسول الله بعد رجوعه من تبوك ، بقية رمضان وشوال وذى القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس حجهم ، وأهل الشرك على دينهم ومنازلهم من حجهم . فخرج أبو بكر من المدينة على رأس ثلثمائة رجل وبعث معه رسول الله بعشرين بدنة لينحروها . ثم نزلت سورة « براءة » فى نقض ما بين الرسول وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه ، فأرسل بها « علياً بن أبى طالب » ليقرأها على الناس ويلغى بها كل عهد سابق ويعلمهم أن البيت قد أصبح فى حكم دولة التوحيد وأن الأمر فيه قد أصبح للرسول ، وأنه لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، وذلك إمتثالاً لحكم الله حيث يقول : **﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾** .

ولقد أعلن علىٌ سورة براءة على الناس يوم النحر فقال : « يا أيها الناس ، لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته » .

ولما دخل شهر ذو القعدة من العام التالى ، العاشر للهجرة ، تجهز رسول الله للحج وأمر الناس بالجهاز له فخرج معه زهاء تسعين ألفاً ، ساقوا معه الهدى ، وأرى الناس مناسكهم وعلمهم سنن حجهم وهو يقول لهم ويكرر عليهم قوله : « أيها الناس خذوا عنى مناسككم فلعلكم لا تلقونى بعد عامكم هذا » ، وقد سميت هذه الحجة « بحجة الوداع » ، لأن رسول الله لم يحج بعدها ، فلقد توفى بعدها بثلاثة أشهر وانتقل إلى الرفيق الأعلى .

وخطب رسول الله فى الناس خطبته المعروفة « بخطبة الوداع » ، خطبها يوم عرفة من فوق « جبل الرحمة » ، وقد أنزل الله الوحى على رسوله وقتها مبشراً بإتمام الدين وكماله بقوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ .
وقد قال رسول الله فى خطبته :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خير ، أما بعد أيها الناس إسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا .

ألا هل بلغت اللهم فاشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أن لا ربا . وإن أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قوْد وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أما بعد أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه ولكنه رضى أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . إنما النسئ زيادة فى الكفر يُضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض وإن

عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مُضر الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أما بعد أيها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن إنتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً . ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أيها الناس ، إنما المؤمنون أخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت اللهم فاشهد . فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده . كتاب الله وسنة نبيه . ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أيها الناس ، إن ربكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب وإن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

فقال الناس جميعاً : « اللهم نعم » فقال لهم رسول الله : « فليبلغ الشاهد الغائب ، أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية ولا يجوز وصية فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر . من أدعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يُقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم » .

وبعد أن أدى الرسول مناسك الحج وأقام بمكة فى حجته هذه عشرة أيام قفل راجعاً إلى المدينة بعد أن أدى الحجة الوحيدة الكاملة فى حياته . وقد أقام الرسول بالمدينة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر وضرب على الناس بعثاً إلى الشام وأمرَّ عليهم أسامة بن زيد بن حارثة ، وكان فى الثامنة عشرة من

عمره وأمره بالسير بالجيش إلى أرض فلسطين لمحاربة الروم . فتجهز الناس ، وقد كانت هذه السرية آخر السرايا التى جهزها رسول الله ولقد توفاه الله دون أن تتم ، وكانت أول شئ جهزه أبو بكر حين أصبح خليفة للمسلمين.

وبعد حجة الوداع بشهرين ، بقية ذى الحجة والمحرم وصفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة مرض رسول الله مرض الموت ، وقد أصابته حمى فى رأسه لمدة ثلاثة عشر يوماً ، نتيجة لضربة شمس . ولما اشتد به الوجع إستأذن الرسول نساءه أن يمرَّض فى بيت عائشة فأذنَّ له . واضطر الرسول ليخرج أكثر من مرة ليخطب فى الناس وهو مريض ، حين كثر الإرجاف عن حملة أسامة وطعنهم فى تأميره على الجيش من دون كبار الصحابة . وقال عليه السلام فى إحدى خطبه : « بلغنى أنكم قلتم فى أسامة وإنه أحب الناس إلىَّ وإن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه ، وأيم الله إنه كان خليقاً لإمارته وإنه كان لمن أحب الناس إلىَّ وإن هذا لمن أحب الناس إلىَّ بعده » . فخرج أسامة فى جيشه حتى نزل « الجرف » ، خارج المدينة ، وتوافد إليه المقاتلون . فلما إزداد المرض على رسول الله أقام أسامة ومعه الناس لينظروا ما الله قاض فى رسوله . ولما استمر ألم الحمى مع رسول الله ولم يقدر على الخروج للصلاة بالناس أمر « أبا بكر » أن يصلى بالناس .

ولما كان يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول ، والناس فى صلاة الفجر وأبو بكر يصلى بهم ، شعر الرسول بالتحسن وفوجئ الناس به وهو يكشف حجرة عائشة وينظر إليهم ، وهم صفوف فى الصلاة ، ثم تبسم يضحك . وظن أبو بكر أن رسول الله سيخرج ليأُم الناس فى الصلاة فتراجع إلى الصف الأول ليخلى مكانه لرسول الله ، لكن الرسول أشار إليه بيده أن يتموا صلاتهم ، ثم دخل رسول الله الحجرة وأرخى الستر .

وتباشر الناس بشفاء رسول الله فانصرفوا إلى أعمالهم وهم يرون أن رسول الله قد برئ من مرضه . وخرج أبو بكر إلى زوجة له « بالسنح » (العالية) ، خارج المدينة ، وكان قد تغيب عنها مدة بعد أن إطمأن على

صحة رسول الله . واستعد أسامة للخروج بجيشه وترقب الاذن له بالتحرك بالجيش بين حين وآخر . لكن رسول الله ساءت حالته الصحية حين عاد للفراش ، وقُبضت روحه بعد أن بقى فى مرضة ثلاثة عشر يوماً ورأسه فى حجر عائشة ، وآخر ما لفظ به قوله وهو رافع وجهه إلى السماء « اللهم الرفيق الأعلى » . توفى رسول الله فى ضحى ذلك اليوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول للسنة الحادية عشرة من الهجرة (٨ يونيو حزيران /٦٣٢ م) ، توفى رسول الله ولم يترك بعده فى الدنيا ديناراً له ولا درهماً ولا عبداً ولا أمةً ، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة . تُوفى رسول الله وهو فى الثالثة والستين من العمر ، وكان قد نزل عليه الوحى وبعثه الله رسولاً وهو فى سن الأربعين ، وأقام بمكة ثلاثة عشرة سنة قبل الهجرة ، وأقام بالمدينة عشر سنين حتى مات بها ودفن فيها ﷺ .

ولما توفى رسول الله لم يصدق الناس الخبر وعلى الخصوص عمر بن الخطاب ، الذى قام ثائراً وقال فى الناس الذين تجمعوا حول بيت رسول الله : « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى ، وإن رسول الله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات ».

وأقبل أبو بكر ، حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شئ حتى دخل على رسول الله فى بيت ابنته عائشة ، ورسول الله مسجى فى ناحية البيت عليه بُرد ، وعائشة وزوجات الرسول يبكين وينتحبن ، فاقبل حتى كشف عن وجهه الشريف فقبَّله ثم قال : « ما أطيبك حياً وميتاً يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً » . ثم رد أبو بكر البُرد على رسول الله ، وخرج وعمر يكلم الناس وهو فى ثورته ، فقال له « على رسلك يا عمر أنصت » فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر على هذا الحال ، نادى فى الناس فأقبلوا عليه

وتركوا عمراً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ولقد قال عز وجل ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ وقال كذلك ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ » . فأخذ الناس ، وفى مقدمتهم عمر هذه الآية عن أبى بكر وظلوا يرددونها بأفواههم وعينهم تفيض بالدمع حزناً على مفارقة رسول الله لهم ، وقد تأكد حينئذ المسلمون أن رسول الله قد إنتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلّغ الرسالة وأدى الأمانة .

وبعد وفاة رسول الله ، اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار خليفة لرسول الله فى حكم دولة المسلمين ، وإنتهى الأمر بينهم بحضور أبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح من المهاجرين ، بإنتخاب أبى بكر خليفة لرسول الله . وبعد أن بويع أبو بكر بالخلافة ، أقبل الناس على تجهيز رسول الله للدفن وليحتضن الثرى أشرف من عرفه الورى ، وذلك يوم الثلاثاء ووضعوه فى كفنه عن سريره وصلى الناس عليه أفواجاً أفواجاً لم يؤم الناس عليه أحد . وقال أبو بكر وعمر وهما فى الصف الأول للفوج الأول من المصلين حيال رسول الله : « اللهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه ونصح لأمته وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه وتمت كلماته فآمن به وحده لا شريك له فاجعلنا إلهنا ممن يتبع القول الذى أنُزل معه وأجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا ونعرفه فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً لا نبتغى بالإيمان بدلاً ولا نشترى به ثمناً أبداً » ، فيقول الناس : « آمين .. آمين » ، ثم يخرجون ويدخل آخرون حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان . فلما فرغوا من الصلاة تكلموا فى موضع قبره ، فتشاور أصحابه فى مكان دفنه ، فقال أبو بكر : « ادفنوه حيث قبضه الله ، سمعت رسول الله يقول : ما مات نبى إلا دُفن حيث يقبض » . فحفر له ودفن تحته فى حجرة عائشة وسط ليلة الأربعاء الرابع عشر من الشهر نفسه ، وتولى دفنه بنو عبد المطلب : كل من « على بن

أبى طالب » و« الفضل » و« قثم » ، « إبنىْ « العباس بن عبد المطلب » ، و « شقران » مولى رسول الله وخادمه ، ووارى التراب أحب الأحباب واحتوى باطن الأرض أعظم من قام ومشى على سطحها محمد النبى المصطفى أكرم خلق الله وسيد ولد آدم دعوة إبراهيم وبشارة عيسى .

ولقد رثى الكثيرون رسول الله ومازالوا يرثونه حتى تقوم الساعة وبكاه المسلمون ومازالوا يبكونه إلى يوم القيامة وحتى يسعد بلقياه وشفاعته ومعيته فى الفردوس من سار على دربه وعمل بكتاب ربه وبسنته ودافع عن دينه وتفانى فى دفاعه عنه . وما أجمل ما رثاه به « حسان بن ثابت » حين قال ينعيه إلى الدنيا :

يبكون من تبكى السماوات يومـــه   ومن قد بكته الأرض فالناس أكمدُ

وما فقدَ الماضون مثلَ محمـــــدٍ   ولا مثلهُ حـتى القيامـــة يفقــدُ

صلى الله وسلم عليك يا خير الخلق أجمعين وأشرف الأنبياء والمرسلين ، وصدق الله تعالى حين أنزل فيك قوله : **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾** وجزاك الله عنا خير الجزاء على ما هديتنا إليه من إيمان وما أنرت لنا طريقنا به من نور تصديقاً لقولك العزيز : **﴿ كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾** .

* * *

١١ - شمائل المصطفى

إن الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة ، وهى المسماة بمكارم الأخلاق وطيب الشمائل فجميعها كانت خلق المصطفى عليه الصلاة والسلام ، على الانتهاء فى كمالها والاعتدال فى غايتها ، حتى أثنى عليه خالق الخلق الذى اصطفاه وطهره وفضله على سائر خلقه وأفرده بهذا القول : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ ، إنها شهادة من الخالق المصور المبُدع الذى خلق الانسان فى أحسن تقويم وخلق محمداً فى أحسن أحسن التقاويم . سئلت السيدة عائشة عن خلق رسول الله فقالت : « كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه » . لقد تميز محمد بالخلق الرفيع ، فكان أحسن الناس خلقاً ، ولقد بعثه الله ليكون المثل والقدوة لعباده وليتمم بينهم مكارم الأخلاق . لقد كان له عليه السلام ذلك التأدب الربانى السامى العالى ، كما كانت لإخوانه من الأنبياء ؛ جِبلةً خُلِقوا عليها تغذيها وتنميها نفحات الله النورانية وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله لهم ، درجة النبوة التى هى أسمى درجة يصل إليها البشر .

ومن الآداب التى أدب بها رب العالمين نبيه محمد : الحلم والاحتمال والعفو مع المقدرة والصبر على ما يكره مع شدة الإيمان ، وقد تضافرت الأخبار وتواترت على إتصافه عليه السلام بنهاية هذه الأوصاف . وما خُير محمدٌ فى أمرين قط إلا إختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، وما انتقم لنفسه إلا فى أمر تنُتهك فيه حرُمة الله فينتقم لا لنفسه ولكن لله . كان محمد دائم الحب للخير حتى لأعدائه ، ولقد كان عليه السلام دائم الصفح والتسامح مع أعدائه دائم الدعاء بالخير لهم وطلب الهداية لمن آذوه ، ودائم القول فى حقهم : « اللهم أهدِ قومى فإنهم لايعلمون » . لقد عفى عن قومه يوم فتح مكة ، أولئك القوم الذين آذوه وطردوه وفعلوا فيه ما فعلوا ، وقد توقعوا العفو منه لما عرفوه عنه من حبه للعفو ، وصدقوا فيما توقعوه منه حين سألهم « ما ظنكم أنى فاعل بكم ؟ » فقالوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » ، فقال لهم : « إذهبوا

فأنتم الطلقاء » . لقد روى الرواة عن نبى الله أنه ما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يُجاهد فى سبيل الله ، وماضرب خادماً ولا إمرأة ولاجارية ولا حتى دابة . وكان رسول الله أجود الناس بالخير وأجود ما كان فى شهر رمضان . وكان كذلك أشجع الناس ، حضر المواقف الصعبة ونازل نزال الأبطال وتحدى قريشاً وهو لا يملك من قوة إلا إيمانه بالله وبصدق دعوته . كان شريفاً فى قتاله ولم يكن غداراً ولاخوان ، وكان فى قتاله أقرب الناس للعدو لا خواف ولا هياب رغم استهداف العدو له . ظهر بأسه يوم أحُد ويوم الخندق ويوم حنين ، وواجه الموت بثبات وقاد الجيوش ووضع الخطط وأحرز أروع الانتصارات . وكان محمد أشد الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إغضاءً ، ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخّاباً فى الأسواق . وكان أوسع الناس صدراً وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . كان أشد الناس تواضعاً ، رغم ما أوتى من جلال القدر وعظم المكانة والشرف ، ولقد روُى أنه أتى إليه رجل فارتعد مهابةً منه فقال له : « هون عليك يا أخا العرب ، فإنى لست بملك ؛ إنما أنا ابن إمرأة من قريش كانت تأكل القديد » وكان دائم القول : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وكان يقول للناس : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » ولما فتحت مكة على رسول الله ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على راحلته رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعاً لله . كان عليه السلام دائم التفقد لأصحابه دائم السؤال عنهم إذا ما غاب عنه أحد منهم ، وكان يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم ، وكان يعطى كل جلسائه نصيبه حتى أن جليسه لا يحسب أن أحداً أكرم عليه منه . من جالسه أو قاربه لحاجة أصطبر عليه حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه حتى صار أباً لهم وصاروا هم أبناءه . كان عليه السلام دائم البشر ، هاشاً باشاً ، سهل الخلق ، لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ وقد نفى الله عنه ذلك بقوله : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

وكان محمد يجيب من دعاه ويقبل الهدية ممن هاداه ، وكان يمازح أصحابه بغير خروج ويلاعب صبيانهم ويحنو عليهم ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المريض ، مهما بعُد مكانه ، ويقبل عذر المعتذر وأسف المسئ . كان يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ بالمصافحة ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، يُكرم من يدخل عليه ويُقبل عليه بكل نفسه ، يحترم الكبير والصغير ويُكنى أصحابه ويدعوهم بأحب الأسماء إليهم تكرمةً لهم . يعطى أذنه لمن يحدثه ولا يُظهر إلانصراف عنه أو الضجر منه ولايقطع على أحد حديثه ، وكان عليه السلام أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً . كان عليه السلام مرهف الأحساس زائد الحنان ، كان يتألم لبكاء الصغير ولمعاناة الحيوان ويرق لضعف الكبير والعاجز والمعوق .

كان محمد أوقر الناس فى مجلسه ، وكان كثير السكوت ، فصل الكلام ، لايقول إلا صدقاً ولاينطق إلا حقاً . كان زاهداً فى الدنيا متقللاً من متاعها مفارقاً لزينتها ورفاهيتها . كان دائم الخوف من الله والمراقبة لربه ، وكان كثير السهر فى العبادة والتهجد بالليل ، وكان يصلى حتى تتورم قدماه ، فقيل له : « لم كل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ » فيقول : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

هذه هى شمائل محمد ، وما أعظمها من شمائل وما أكملها من صفات تتجمع فى شخص واحد هو نبينا رسول الله . وكيف لا تتجمع مثل هذه الشمائل فيمن خلقه الله على عينه وأدبه فأحسن تأديبه واصطفاه له رسولاً وخليلاً من سائر البشر أجمعين ، وقرن إسمه تعالى باسمة فى شهادة الدخول فى دينه الحنيف !

ولقد تحدثت كتب السيرة وأفاضت فى هذه الشمائل ، كما تحدثت عن معجزات النبى المادية وبالغت فيها . وبرغم إيماننا بصدق هذه المعجزات وبالاعتراف أنها أمر هين بالنسبة لقدرة الله تعالى ، إلا أننا لا نحب أن نضخم أمر هذه المعجزات لأن معجزة الرسول الكبرى هى القرآن الكريم ، وحياة الرسول ومسيرة حياته وتفرد شخصيته وعظمتها وطيب شمائله وصدقه

فى دعوته وإخلاصه فى رسالته وشدة إيمانه بالله ، كل هذه أمور فتحت له القلوب المغلقة وألانت له الأفئدة المتحجرة وأحنت له رؤوس الجبابرة وحطمت أصنام الشرك والوثنية دون الحاجة لهذه المعجزات .

وهنالك فى كتب السيرة أيضاً قضايا لايحق التساهل فيها لخطورتها وردت فى هذه الكتب سواءً عن قصد أو عن طيب نية أو دُست عليها لا يجب السكوت عليها لأنها فتحت باباً نفذ منه أعداء الدين فى الماضى والحاضر لينالوا من سيرة الرسول الطاهرة ، وليتخذوا منها حججاً لكيدهم ودسهم وأباطيلهم ليضربوا بها الاسلام ونبى الاسلام فى الصميم . وقد جاء رفضى لهذه القضايا بعد إطالة النظر فى كتب السنة والنهل من كنوزها الثمينة من تراث النبوة ، والهداية بالفطرة فى تجنب الضعيف من الروايات وقبول الصحيح منها ، فطرة صقلتها التلاوة الدائمة لكتاب الله وكتب الصحاح من السنُة وتتبع المنهج التاريخى العلمى الصحيح وإعمال النقد فى الروايات ، والحب والغيرة على شخص رسول الله والخوف من أن يُنسب الى سيرته العطرة شئ قد يسئ فهمه المتشككون والمتربصون لدين الاسلام ولنبى الاسلام ، وما أكثرهم فى هذا الزمان وفى كل زمان .

ومن هذه القضايا ، قضية سحر النبى على يد يهودى ، وأن هذا السحر قد أعجزه عن مباشرة نسائه مدة قدرها « ابن حجر » بستة شهور . ولقد روى هذه الرواية ابن سعد فى كتاب « طبقاته الكبرى » ، عن حديث منسوب للسيدة عائشة رضوان الله عليها ، وهى أن رسول الله « قد سحُر له حتى كان يخُيل إليه أنه يصنع الشئ ولم يصنعه » ، ورُوى « أن ابن لهيعة روى عن عمر مولى غفره : أن لبيداً بن الأعصم اليهودى سحر النبى حتى التبس بصره وعاده أصحابه وأُخذ عن النساء والطعام والشراب ، ثم إن جبريل وميكائيل أخبراه بذلك فأخذ النبى لبيداً فاعترف فاستخرج السحر من الجُب من تحت البئر ثم نزعه فحله ، فكُشف عن رسول الله وعفا عنه ، وأن ذلك كان بعد الحديبية بتدبير من يهود المدينة مع لبيد بن الأعصم اليهودى الساحر » .

أكذلك تُنال القمم ؟ من صدُقَ هذه الرواية قال أن ذلك وقع برسول الله

كما يستطيع سفيه أن يقذفه بحجر أو كما يستطيع مجرم أن يصيبه بجرح . ويرد الشيخ محمد الغزالى على من يتعلل بذلك بقوله : « وهذا اعتذار مرفوض فإن السحر تسلط على الارادة والفكر وهذا مستحيل بالنسبة لرسول الله لاسيما والوسيلة هى تسليط أرواح شريرة أو بعض الجن على الجهاز العصبى للانسان فيوقعه فى اضطراب وحيرة » ، وهذا مرفوض مع نبى نزل الله عليه الكتاب وحفظه بقوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

وهنالك قضية الشاة المسمومة التى أكل منها رسول الله وكانت سبب علة مرض موته ، فلقد روى ابن سعد أن اليهود سمت رسول الله وسمت أبا بكر ، وذلك أن إمرأة يهودية من يهود خيبر ، هى زينب بنت الحارث ، امرأة سلام إبن مشكم ، أهدت لرسول الله شاة مسمومة فأخذ منها بضعة فلاكها فى فمه ثم طرحها ، فقال لأصحابه : إمسكوا فإن فخذها تعلمنى أنها مسمومة . ثم أرسل إلى اليهودية ، فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قالت : « أردت أن أعلم إن كنت صادقاً فإن الله سيطلعك على ذلك وإن كنت كاذباً أرحت الناس منك » .

وقد مات بشر بن البراء لأنه أكل منها فاكثر . واحتجم رسول الله من أجل الذى أكل ، وأضاف ابن سعد ، أن رسول الله عاش بعد ذلك ثلاث سنين حتى كان وجعه الذى قُبض فيه ، جعل يقول فى مرضه : « مازلت أجد من الأكلة التى أكلتها يوم خيبر عداداً حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرى وتوفى رسول الله شهيداً » .

هذا القول مردود لأن الله حافظ نبيه ، وأنه ما كان لرسول الله أن يثق فى أى يهودى لعلمه بعداوتهم له فما باله يُقدم على طعام من إمرأة يعرف عنها عداوتها له وللمسلمين ! ولم يكن الرسول بذلك الشخص الذى يُقدم على الولائم ويسيل لعابه أمام أى نوع من اللحوم . كذلك إذا كانت ساق الشاة أخبرته أن بها سماً فكان من الأولى أن تخبره قبل أن ياكل منها لا بعد أن ياكل ويتأثر بذلك السم الذى كان سبباً فى وفاته ، ومن المعلوم أن مفعول السم يظهر أثره

على المسموم سريعاً لابعد ثلاث سنين . ولقد كان جبريل يخبر النبى بكيد اليهود قبل وقوعه مثلما فعل مع بنى النضير حين رسموا أن يلقوا عليه صخرة من فوق منزل جلس تحته رسوله الله فجاءه جبريل بخبر كيدهم فخرج راجعاً إلى المدينة وسط دهشة اليهود ، فما الذى منع جبريل ان يخبر رسول الله هذه المرة بأمر هذا السم !

وهنالك قضية المغالاة فى قوة الرسول الجنسية ، وهذا ما أورده صاحب الطبقات فى كتابه تحت عنوان : « باب ذكر ما أعطى رسول الله من القوة على الجماع » . وهو ينسب إلى حديث يرجع نسبه إلى أسامة بن زيد عن صفوان بن سليم أنه قال أن رسول الله قال « أتانى جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلاً فى الجماع » .

كذلك هنالك قضية المغالاة فى قوته الجسدية ، فى الرواية التى رواها ابن هشام عن ابن اسحق ورواها ابن سعد من صرع الرسول للبطل القرشى العملاق « ركانه بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف » . قال ابن اسحق : « كان ركانة أشد قريش فخلا برسول الله فى بعض شعاب مكة فقال له رسول الله : ياركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك . فقال له رسول الله : أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم حتى أصارعك . قال : فقام إليه ركانة يصارعه فلما بطش به رسول الله أضجعه وهو لايملك من نفسه شيئاً ، ثم قال : عد يا محمد ، فعاد فصرعه . فقال : يامحمد والله إن هذا للعجب أتصرعنى ؟ فقال رسول الله وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن إتقيت الله واتبعت أمرى . قال . ما هو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى ، قال : أدعها ، فدعاها فاقبلت حتى وقفت بين يدى رسول الله . قال : فقال لها أرجعى إلى مكانك قال : فرجعت مكانها . قال : فذهب ركانه إلى قومه فقال : يا بنى عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فوالله ما رأيت أسحر منه قط ، ثم أخبرهم بالذى رأى والذى صنع » .

هذه الروايات وردت فى كتب السيرة النبوية لتثبت قوة الرسول الجنسية

والجسدية ، وفى الحقيقة أن سيرة الرسول ليست بحاجة لاثبات مثل هذه الأمور لأن رسول الله ما كان يباهى بقوة جسدية ولا هو أشاع أنه يتميز عن سائر البشر سوى باصطفائه ليكون نبياً ورسولاً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . لم يصارع الرسول قريشاً بقوته الجسدية ولكنه صرعها بشدة إيمانه برسالته وقوة عزيمته وثقته بنصر الله له ولم يكن الرسول بحاجة للقوة الجنسية لأنه كان رجلاً كسائر الرجال ، ولم يكن متفرغاً لأمر الجنس ، ولم يكن لديه الغرض فى ذلك ولا القصد ، كذلك لم يكن لديه الوقت ، فهو رسول دعوة وقائد أمة ومعلم رسالة ، وَرب أسرة يقض جل يومه فى الدعوة لله والنظر فى أحوال أمته ويقض نصف الليل أو أكثر من نصفه فى القيام ويقض معظم عامه صائما فمن أين لرسول الله بالوقت حتى يستغل هذه القوة التى أوتيها كما تدعى هذه الروايات ؟ إن المبالغة فى قوة رسول الله الجسدية قد تكون عن حب وعن إعجاب لهذا النبى لكن ما أغنى الرسول عن هذه الأمور التى يتصف بها من يبغون متع الحياة وما كان أبعد رسول الله عن ذلك وما أشدزهده فى الدنيا ولذائذها .

وفى الوقت الذى يبالغ فيه هؤلاء بهذه الأمور نراهم يبالغون أيضا فى تجويع رسول الله وقسوته على نفسه فى أمر الزاد والطعام ، فيقول صاحب الطبقات أن : « فاطمة بنت رسول الله جاءت يوماً بكسرة خبز إلى والدها ، فقال لها : ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ فقالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال : إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » . كذلك يذكر ابن سعد عن أبى هريرة أن رسول الله كان يشد صلبه بالحجر من شدة الجوع ، وأنه كان يمر بآل رسول الله هلال ثم هلال لا يوقد فى شئ من بيوته نار لا لخبز ولا لطبيخ ، فقالوا : بأى شئ كان يعيشون يا أبا هريرة ؟ قال : بالأسودين التمر والماء . كذلك ذكر ابن سعد أن يوم توفى رسول الله توفى ودرعه مرهونه عند رجل من اليهود بوسق (جوال) من شعير .

مبالغة فى القوة الجسدية والجنسية ومبالغة فى الجوع والمعاناة وذلك مالا

يليق بسيرة رسول الله ، مبالغة تسئ إلى السيرة العطرة سواء أكانت عن إغراض أو عن حب ما أغنى صاحب السيرة المطهرة عنها .

وهنالك من الأمور الصغيرة التى وردت فى كتب السيرة ، من الأفضل حذفها من هذه الكتب ، من هذه الأمور قول ابن سعد أنه « كانت لرسول الله مكحلة يكتحل بها عند النوم ثلاثاً فى كل عين » ، وقد ثبت ضرر الكحل للعين وأنه سبب من أسباب العمى ، فحاشا لرسول الله أنه يفعل شئ يضره ويضر تابعيه وهو المثل والقدوة ونحن مأمورون باتباع سنته من قول وعمل وسلوك .

كذلك قول ابن سعد عن صفته فى مأكل رسول الله أنه كان يلعق أصابعه . قال عن كعب بن مرة قال : « رأيت رسول الله يأكل بثلاث أصابع ، قال هشام : بالابهام والتى تليها والوسطى ، ثم رأيته يلعق أصابعه الثلاث حين أراد أن يمسحها قبل أن يمسحها فلعق الوسطى ثم التى تليها ثم الابهام » بالله عليكم كيف جرؤ كاتب هذا القول على نسبته لرسول الله ؟ .

ومن القضايا التى أخذ بها بعض كتاب السيرة مثل ابن سعد وبعض المفسرين المسلمين : حديث الغرانيق ، الذى سبق أن أشرنا اليه عند حديثنا عن عودة المهاجرين الأولين من الحبشة ، وهذا الحديث ينقض الدعوة الاسلامية من أساسها ويجدد أمر الوثنية والشرك بالله وهذا ما جاء الاسلام أساساً لمحاربته والقضاء عليه . ولذلك لم يتردد ابن اسحق حين سئل عنه فى أنه قال إنه من وضع الزنادقة .

ومن القضايا التى يجب أن تُرفع من سيرة رسول الله تلك الرواية التى تقول أن رسول الله أراد أن يكتب لأمته كتاباً فى مرضه الذى مات فيه يضع فيه بعض التعاليم والوصايا ، لكن المجتمعين حول فراشه لغطوا واختلفوا فاغتم رسول الله من ذلك وامتنع عن كتابة هذا الكتاب . يقول ابن سعد : « لما حضرت رسول الله الوفاة وفى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب . فقال رسول الله : هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده ، فقال عمر : إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ومنهم يقول ما قال

عمر ، فلما كثر اللغط والاختلاف وغموا رسول الله فقال : قوموا عنى . فكان ابن عباس يقول : الرزيه كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب مع اختلافهم ولغطهم » . تلك الرواية رواية غير واقعية لأنه ليس من المعقول أن ينتظر رسول الله لآخر لحظات حياته ويتذكر وقتها وهو يستعد للقاء ربه أن يكتب لأمته كتاباً بعد هذا العمر الطويل الذى عاشه معهم وبعد أن أكتمل نزول الوحى عليه وتمام الدين وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾ . لقد عاش رسول حياة طويلة بعد البعثة قوامها ثلاثة وعشرون عاماً يهدى الناس ويرشدهم ويتلقى الوحى ويبلغه ويطبق تشريع الله ويسوس الدولة بعد أن أقامها فى المدينة . وإذا كان رسول الله قد تذكر شيئا أو أمراً أراد أن يبلغ به من حوله فإنه ليس لأحد أن يجرؤ على مخالفته فى ذلك وعدم تلبية رغبته لاعُمر ولاغيره ، وحاشا لله أن نقول أن رسول الله أوينسب لعمر القول أن رسول الله قد غاب عن وعيه ، بل أنه عليه السلام ظل فى كامل وعيه حتى خرجت روحه الطاهرة إلى بارئها .

وآخر هذه القضايا التى يجب أن نناقشها فى سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام والتى طالما اعتاد المستشرقون الحديث عنها واللمز فيها هى قضية تعدد زوجات رسول الله . وقد سبق أن أوضحنا أن حياة الرسول عليه السلام ليست كحياة أى شخص عادى ، وأن تربيته كانت تربيته إلهية وأن نمط حياته جاء مثالاً يحتذى للاسلام وللمسلمين . لقد عاش الرسول فى مجتمع تعددت فيه الزوجات ، ولم يكن من الغريب على محمد أن يشذ عن هذا المجتمع ، ولقد جاءت زيجات رسول الله وتمت بناءً على أمر ربانى ، وكانت كما سبق أن قلنا لتنفيذ أمر من أوامر الله إما لوضع تشريع أو لزيادة رابطة أواصر أو لإعالة أرملة فقدت عائلها فى سبيل الله أو لرعاية أسرة فقدت راعيها وتعرضت للضياع .، ولنستعرض زيجات رسول الله ونتبين ذلك الأمر من خلال ملابسات تلك الزيجات .

فقد كانت أول زوجات رسول الله ، بعد وفاة خديجة ، هى « سودة بنت

زمعة » ، أرملة « السكران بن عمرو بن عبد شمس » ، تزوجها عليه السلام ، بعد وفاة خديجة بشهر بعد أن تُوفى عنها زوجها بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة وأهلها على الكفر ، وكانت تبلغ من العمر خمسة وخمسين عاماً ، ولم تكن جميله ولا ذات ثراء ، وإذا كان محمد ، كما يدعى أعداؤه ، أنه يتزوج لاشباع جنسى ، لما تزوج من هذه المرأة العجوز الفقيرة وكانت أمامه الفرصة ليتزوج من فتاة صغيرة شريفة ، وما كان أكثرهن آنذاك ، تزوج الرسول من سودة ، بعد أن صارت أرملة لاعائل لها ولاتستطيع العيش مع أهلها المشركين الذين ربما فتنوها عن دينها ، فكان لابد لها من عائل ومن كان أرحم من محمد الذى إعتبر نفسه مسئولا عن كل المسلمين . ولقد عاشت سودة مع رسول الله خمس سنوات وتوفيت ، وهى عنده ، بعد الهجرة بعامين .

تزوج رسول الله سودة ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا أُستشهدوا فى سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوة ضعاف يخافون عليهن ، سيجدون رجالاً سيخلفونهم فى رعايتهن وقد ضرب لهم رسول الله المثل بنفسه وما أروعه من مثل وما أعظمها من قدوة صالحة .

وتزوج رسول الله من « عائشة » ، إبنة صديقه الصديق أبى بكر ليزيد من روابط الصداقة والمحبة بينهما برابطة المصاهرة . وقد كان أبو بكر أحب الناس الى قلب رسول الله ، فلم لايزيد هذا الحب قوة بمصاهرته من أحب البنات إلى قلبه إبنته الصغرى عائشة ، تزوجها رسول الله فى المدينة بعد الهجرة مباشرة وكان قد خطبها من أبيها قبل الهجرة فى مكة وكانت قد تجاوزت العاشرة وكانت قد خُطبت قبله لجبير بن المطعم بن عدى . وحين بنى بها رسول الله كانت قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها ولم تكن فى العاشرة كما يدعى بعض المغرضين . وقد توفيت السيدة عائشة فى عهد خلافة معاوية بن أبى سفيان عام ٥٨ للهجرة ، وعاشت أرملة بعد وفاة سيد الخلق سبعاً وأربعين عاماً ولم تنجب عائشة لرسول الله .

أما « حفصة بنت عمر بن الخطاب » فقد تزوجها رسول الله لنفس غرض زواجه من عائشة ، أراد أن يقوى صداقته لعمر بالمصاهرة ، ولم تكن مكانة

عمر فى قلب رسول الله بأقل من مكانة أبى بكر ، فقد كان الاثنان له خير الصاحبين ، ولم تكن حفصه ذات جمال ، وكان أبوها عمر قد عرضها على كل من أبى بكر وعثمان ليتزوج أحد منها فأظهرا عدم القبول ، فشرفها رسول الله بالزواج منها وأعلى قدرها فى أن تتزوج من هو خير من أبى بكر وعثمان ، ولقد توفيت حفصه سنة ٤٥ للهجرة فى خلافه معاوية بن ابى سفيان ولم تنجب لرسول الله .

وزواج رسول الله من « زينب بن خزيمة بن الحارث » ، فكان شفقه بها بعد استشهاد زوجها فى بدر وتركها دون عائل ، وكانت زينب زوجة « لعبيدة ابن الحارث بن المطلب » ، الذى استشهد فى بدر بالمبارزة ، ولم تكن زينب ذات الجمال وكانت طاعنه فى السن ووصلت إلى الستين حين اقترن بها رسول الله ، وعاشت زينب عامين فقط مع رسول الله ، وتوفيت فى حياته مثل خديجة ، وقد اشتهرت زينب بعطفها وحدبها على الفقراء حتى أنها سميت « بأم المساكين » .

وزواج رسول الله من « أم سلمة ابنت أبى أمية بن المغيره المخزومية » ، واسمها « هند » ، فكان لرعاية هذه الزوجة الكثيرة العيال والتى مات عنها زوجها فى حرب بنى أسد . وكان زوجها « أبو سلمة » قد قتل عنها فى تلك الحرب وتركها مع عيال كثيرة دون أن يكون لها عائل ، فكان عائلها رسول الله ، وقد كانت أم سلمة قد تجاوزت سن الخمسين حين تزوج منها رسول الله

أما زواج رسول الله من « زينب بنت جحش بن رئاب » فقد كان بأمر سماوى لتطبيق تشريع إلهى ، وزينب هى إبنة عمة رسول الله « أميمة بنت عبد المطلب » تربت وهى طفلة صغيرة بعين رسول الله وعنايته ، وكانت له بمقام الابنة أو الأخت الصغرى التى يعرفها جيداً وشهد نموها وهى طفلة ثم وهى صبية وقبل زواجها من مولاه « زيد بن حارثه » . ولقد تحدث المستشرقون الحاقدون كثيراً عن هذا الزواج بالذات ونسجوا الروايات والقصص الخيالى حوله واطلقوا لفكرهم العنان فى محاولة طعن رسول الله وتشويه سيرته

العطره ، لقد اتهموا رسول الله بوقوعه فى غرام إبنة عمته وعمله على تطليقها من مولاه زيد حين اكتشف جمالها . وقد صوّر بعض هؤلاء المستشرقين زينباً حين رآها النبى « وهى نصف عارية أو تكاد وقد انسدل ليل شعرها على ناعم جسدها الناطق بما يكنه من كل معانى الهوى » ، وذكر آخرون أنه « حين فتح باب زينب وهى فى بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفتها، وكانت ممددة على فراشها فى ثياب نومها فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالنساء ومفاتنهن ، فكتم حبه لها فى نفسه ، وإن لم يطق الصبر على ذلك طويلا فعمل على تطليقها من زيد والزواج منها » . وأمثال هذه الصور المراهقة التى يصورها أصحاب النفوس الضعيفة من أمثال « موير »، و« درمنجم » ، و« واشنطن » ، و« أرفنج » ، و« لامانس » ، و« رودنسون » وغيرهم من المستشرقين المغرضين الذين تصدوا فى كتاباتهم لسيرة رسول الله ، ومما يدعو للأسف أن هؤلاء اعتمدوا فى رواياتهم على ما ورد فى بعض كتب السيرة والحديث وعلى تفسيرهم الخاطئ لبعض آيات القرآن التى عرضت لهذا الموضوع ، ثم أقاموا صوراً من خيالهم المراهق المريض فى شأن محمد وصلته بالمرأة ، واستدلوا على ذلك بكثرة زواجه من النساء حتى بلغن تسعاً فى القول الراجح وحتى بلغن أكثر من ذلك فى بعض الروايات . لم يكن محمد كما صوره هؤلاء وأولئك الحاقدون المغرضون رجلاً يأخذ بعقله الهوى ، فهو لم يتزوج من تزوج من نسائه إلا بأمر سماوى لحكمه الهية وليس بدافع من شهوة أو غرام .

لقد عرف رسول الله جمال إبنة عمته زينب منذ طفولتها ، لأن الحجاب لم يكن قد فُرض يومئذ ، فإذا كان له غرض فى الزواج منها فلم لم يتزوج منها وهى فى العشرينات وما الذى جعله ينتظر حتى تبلغ الخامسة والثلاثين ويتزوج منها بعد أن طلُقت من زيد ؟ وإذا كان لرسول الله غرض فى الزواج من زينب فى أى وقت ، قبل أن تتزوج من زيد مولاه ، فإن أهلها ، الذين هم أهله ، كانوا سيرحبون كل الترحيب بهذا الشرف الرفيع ، ولكن الرسول لم يكن يفكر فى الزواج من زينب ، وهو الذى خطبها لمولاه زيد الذى كان يعتبره إبناً له ، وكان « عبد الله بن جحش » ، أخو زينب قد عارض هذا الزواج لكون

أخته قرشيه هاشميه وإبنة عمة رسول الله ، فكيف لها أن تتزوج من مولى إشترته خديجة وأعتقه محمد ؟ وقد رأى عبد الله أن هذا الزواج سوف يكون عاراً يلاحق أخته ونسلها مدى الحياة . وقد كان عاراً عند العرب ، حتى فى ظل الاسلام ، أن تتزوج الحرة عبداً أياً كانت مكانته ، ولكن الرسول أراد أن يُذهب عادات الجاهلية من نفوس العرب ، وأراد أن يذيب الفوارق العنصرية بين الطبقات وأن يسوى بين الناس أحمرهم وأسودهم ، وقد رأى زواج زينب من زيد فرصة لتطبيق هذا المبدأ . ولقد امتثلت زينب وامتثل اخوها لارادة الله ورسوله فى اتمام هــذا الزواج رغماً عن نفسيهما إمتثالا لقـوله تعالـى : **﴿ وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا ﴾** .

وتزوج زيد من زينب ، ودفع لها رسول الله مهرها عنه ، ولكن زينباً لم تتقبل هذا الزواج ولم تعط زيداً الفرصة لإقامة حياة زوجية هادئة هانئة فصارت تضايقه كثيراً وتمردت عليه حتى أثارته وشكى زيد لرسول الله كثيراً منها ، وكان الرسول فى كل مرة يقول له : (إمسك عليك زوجك واتق الله) ، لكن زيداً لم يتحمل استمرار حياته مع زينب ، وهى كارهة له ولم يتحمل تعاليها عليه فطلقها .

وقد أراد الشارع الكريم أن يُبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بانسابها ، ومن اعطاء المتبنى جميع حقوق الابن من الصلب فى الميراث وحرمة النسب فنزل قوله تعالى : **﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بافواهكم والله يقول الحق ويهدى السبيل ﴾** . وأجاز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمن إدعاه ، كما يجوز للمتبنى أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمتبناه ، وحين أراد الرسول أن يطبق هذا الحكم الألهى فكر فى أن يطبقه على نفسه مع زيد ، ولكن تردد خشية أقوال الناس ، فنزل فى ذلك قوله تعالى يأمره بعدم التردد فى هذا الأمر **﴿ وتخُفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾**

ولذلك أقدم الرسول على الزواج من زينب بعد أن طلقها زيد ترضيةً لها وتنفيذاً لأمر الله تعالى حيث قال : ﴿ **فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ، لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا** ﴾ .

ولم تنجب زينب من رسول الله ، وعاشت بعده حتى توفيت عام عشرين للهجرة أيام خلافة عمر بن الخطاب .

وتزوج رسول الله من « أم حبيبة بنت أبى سفيان بعد حرب » ابن عمة رسول الله ، وأسمها « رملة » ، تزوجها وهى مهاجرة فى الحبشة لمَّا ارتد عنها زوجها هنالك إلى الكفر وعادت إلى المدينة دون عائل ، وقد كان رسول الله عائلها ، وقد أكرمها وتزوجها ولم يُرد لها الاذلال فى ظل الاسلام ، وكان أبوها أبو سفيان ، سيد قريش لازال على الكفر ، ولقد توفيت أم حبيبة سنة ٤٤ للهجرة فى خلافة أخيها معاوية .

وتزوج رسول الله من « جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار » وكانت من سبايا « بنى المصطلق » من « خزاعة » ، وكانت قد أسُرت فى الحرب وفداها رسول الله ثم أعتقها وتزوجها إكراماً لها ولقبيلتها التى أسلمت جميعها بسبب هذا الزواج وهذه المصاهرة الكريمة ، توفيت سنة ٥٦ هـ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان .

كذلك تزوج رسول الله من « صفية بنت حُيَىْ بن أخطب اليهودية » ابنة سيد بنى النضير وكانت من سبايا خيبر ، اصطفاها رسول الله لنفسه من غنائم يهود « بنى قريظة » ، وأعتقها وتزوجها بعد أن أسلمت . وتزوج من « ماريا القبطية » ، وكانت جارية أهداها له « المقوقس » حاكم مصر ، هى وأختها « سيرين » فى العام السابع للهجرة ، فأعتقها رسول الله وأسلمت ، وأنجب منها إبنه « ابراهيم » ، وتوفيت ماريا القبطية فى العام السادس عشرة للهجرة فى خلافة عمر بن الخطاب .

وخطب رسول الله إمرأتين لم يدخل بهن ، وهما : « أسماء بنت النعمان الكندية » ، لإصابة وجهها بمرض جلدى « البهاق » ، و « عمرة بنت يزيد

الكلابية » التى إستعاذت به من نفسه فأعاذها وفك خطبته لها . وقد قيل أن رسول الله قد تزوج أيضا من « ميمونه بنت الحارث بن حزن » ، وكانت قد وهبت نفسها للنبى ، ونزل فيها قوله تعالى : ﴿ وإمرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى ﴾ ، وقيل أنها آخر إمرأة تزوجها رسول الله ، تزوجها وهى إبنة سبع وثلاثين عاماً ولم تنجب له وتوفيت سنة ٥١ هـ فى خلافة معاوية .

وهكذا بحسبة بسيطة نجد أن رسول الله قد تزوج من أربع زوجات حرائر فتيات صغار السن بعدو فاة خديجة ، وهن : عائشة وحفصة وزينب بنت جحش وجويريه ، وتزوج من جاريتين لايدخل حسابهن مع الحرائر ، وهما : صفية اليهودية ، وماريا القبطية . أما الباقيات فكن طاعنات فى السن فاتهن قطار الزواج ، ولايُعاب على الرسل أمر تعدد الزواج لأنه بأمر الهى . ولقد عابوا على محمد أنه تزوج من تسع نساء ولم يعيبوا على زواج النبى داود من مائة إمرأة والنبى سليمان من سبعمائه إمرأة وثلاثمائه سرية كما ورد فى أسفار العهد القديم .. !!!

وهنالك مغالطة مشهورة فى مسألة تعدد الزوجات فى الإسلام ، فمفكرو الغرب يروجون بأن الأسلام هو الذى أباح تعدد الزوجات ، بينما الحقيقة أنه هو الدين الذى حدد عدد الزوجات بأربع - كحد أقصى - وكان قبل الاسلام بلا حدود فى جميع الأديان . وها هو الغرب اليوم يطالب بالتعدد بعد أن ساد الطلاق فى مجتمعه وانتشرت العلاقات المحرمه . وبالنسبة لزوجات النبى فقد حرم الله عليه أن يبدلهن أو يطلقهن كما حرم عليهن أن يتزوجن من بعده .

والحقيقة أن مثل هذه القضايا التى أثارتها تلك الروايات ، يجب علينا أن ندرسها دراسة جيدة وأن لا نتقبل أحكام المغرضين فيها على علاتها ولانتساق وراء أفكارهم الهدامة بحجة حرية الرأى وحرية التفكير ، لأن هذه السيرة النبوية الطاهرة من أهم كنوز الاسلام والمسلمين وهى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم فحياة محمد وسلوكه وأقواله وأفعاله هى السنة المطهرة التى تعُد هى والقرآن الكريم أساس تشريع المسلمين . فيجب علينا أن ندافع عن هذه السيرة وأن نقرر كل ماجاء فيها استشهاداً بما جاء فى

كتاب الله المحكم وأن نستأصل منها ما يلقى أى ظلال شائبة غير صحيحة على حياة المصطفى صاحب هذه السيرة العظيمة وإننى حين أقترح ذلك إنما أجتهد برأيى من منطلق الغيرة على هذه السيرة المشرفة والحب لهذا العظيم صاحب السيرة الذى أوتى جوامع الكلم وانسابت هداياته من ينبوع جياش حافل بالخير عامر بالبركات ، والخير أردت وما توفيقى إلا بالله .

وسبحان من أبدع محمداً النبى المصطفى ، إنه الانسان الفذ الذى صان الايمان مادة ومعنى ، وعاش به سيرة ودعوة ، وأقام على دعائمه أمة ودولة ، وأنشأ باسمه حضارة وعزة ومجداً .

وصلى الله وسلم عليك ياخير الخلق أجمعين

وصدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم

وأن الحمد لله رب العالمين

تم بحمد الله

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- كتب الصحاح : صحيح البخارى
  : صحيح مسلم
- كتب السنن : سنن ابن ماجه
  : سنن أبى داود
  : سنن الترمذى
  : سنن النسائى
- كتب الأسانيد : مسند الأمام أبى حنيفة
  : مسند الأمام أحمد بن حنبل
  : مسند الأمام الشافعى
  : موطأ الأمام مالك بن أنس
- ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة .
- ابن اسحق : المغازى .
- ابن تيمية : السياسة الشرعية
- ابن سعد : الطبقات الكبرى
- ابن سيد الناس : عيون الأثر
- ابن شبة : أخبار المدينة .
- ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب
- ابن القيم الجوزية : زاد المعاد فى أخبار خير العباد
- ابن كثير : السيرة النبوية
- ابن هشام : السيرة .
- أبو الأعلى المودودى : نظريات الإسلام ، ترجمة جليل الأصلحى .

- أحمد عبد الحميد العباسي : عمدة الأخبار فى مدينة المختار .
- الأزرقى : أخبار مكة .
- رفاعة الطهطاوى : نهاية الاعجاز بأخبار ساكن الحجاز .
- السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى
- السهيلى : الروض الأنف
- سيد أحمد الناصرى : الروم ، تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربى
- سيد أمير على : روح الأسلام
- الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن
- طه حسين : على هامش السيرة .
- طه الدسوقى : نظرية النبوة فى الإسلام
- عباس العقاد : عبقرية محمد .
- عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء .
- القاسمى : نظام الحكم فى الشريعة .
- الكتانى : نظام الحكومة النبوية .
- محمد أحمد جاد المولى : محمد المثل الكامل .
- محمد أسد : منهاج الإسلام فى الحكم .
- محمد حسين هيكل : حياة محمد .
- محمد رشيد رضا : ألوحى المحمدى .
- محمد بن عبد الوهاب : سيرة الرسول .
- محمود شاكر : التاريخ الإسلامى ، السيرة .
- الواقدى : المغازى .

المراجع الأجنبية

- Andrae T : "Mohammed, The Man and his Faith", London 1936.
- Blachère, R : "Le Probleme de Mahomet", Paris 1952.
- Buhl, F : "Muhammad in the Encyclopaedia of Islam", Vol. III, Leiden 1936.
- Charles, J : "Mahomet, Israêl et le Christ", Paris 1956.
- Demengham, E : "La Vie de Mahomet", Paris 1950.
- Demombynes, G : "Mahomet", Paris 1969.
- Goitein, S : "Studies in Islamic History and Institutions", New York 1967.
- Rodinson, M : "Mohammed", td. by : Anne Carter, New York 1974.
- Watt, M : "Muhammad at Mecca", Oxford 1953.
- Watt, M : "Muhammad at Medina", Oxford 1956.
- Watt, M : "Muhammad, Prophet and Stateman", Oxford 1961.

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب
٩٣/ ٥٥٩٠

I.S.B

977-222-046-6

دار الهانى للطباعة
ت : ٢٣١٢٠٥٥